الطيّب صالح

مختارات

٢

المضيئون كالنجوم: من أعلام العرب والفرنجة

RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٢

المضيئون كالنجوم: من أعلام العرب والفرنجة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ILLUMINATING LIKE THE STARS
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in March 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21193-0

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٥

الإهداء

إلى روح الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز. كان يتابع هذه المقالات ويشجعني على الكتابة ولِما لقيت منه من تقدير ولطف.

المحتويات

القسم الأول:

من أعلام العرب

الفصل الأول: من عبير الحديقة المباركة ١٣

الفصل الثاني: عمر بن الخطاب ٢١

الفصل الثالث: عبد الله بن عمر ٤٥

الفصل الرابع: من فيوض العارفين ١٢١

الفصل الخامس: المضيئون كالنجوم ١٥٣

القسم الثاني:

من أعلام الفرنجة

الفصل الأول: اللورد بتلر ١٩١

الفصل الثاني: ساميول بيبز ٢٠١
الفصل الثالث: أي. ج. تيلور ٢١٧
الفصل الرابع: مايكل آدمز ٢٢٣
الفصل الخامس: ريتشارد كمب ٢٣٣
الفصل السادس: فيرناند برودل ٢٣٩
الفصل السابع: مارسيل بروست ٢٧٧
الفصل الثامن: رولان بارت ٢٩٧
الفصل التاسع: ميشيل فوكو ٣٠٧

القسم الأول

من أعلام العرب

الفصل الأول

من عبير الحديقة المباركة

إنه كلام قديم، ولكن الأيام لا تنقص من جدته ورونقه شيئاً. كيف لا، وهو من أثر الإنسان الكامل، سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله حين يلقاه جبريل، أجود بالخير من الريح المرسلة».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله إذا دخل العشر (أي العشر الأواخر) أحيى الليل وأيقظ أهله وشد المئزر».

وعن مُعاذة القدرية أنها سألت عائشة أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، قالت (نعم) وسألتها من

أي الشهر كان يصوم، فقالت عائشة رضي الله عنها «لم يكن يبالي من أي الشهر كان يصوم».

وعن أنس رضي الله عنه قال:
«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئاً. وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلّا رأيته، ولا نائماً إلّا رأيته».

وعن مجيبة الباهلية أن أباها أو عمها أتى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تغيرت هيئته وساء حاله فقال:
«يا رسول الله أما تعرفني؟» قال له: «ومن أنت؟» قال «أنا الباهلي الذي جاءك عام أول»، قال له الرسول «فما غيّرك، وقد كنت حسن الهيئة»؟ قال: «ما أكلت طعاماً منذ فارقتك إلّا بليل». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عذبت نفسك. صم شهر الصبر، ويوماً من كل شهر». قال الرجل: «زدني فإن بي قوة»، قال: «صم يومين»، قال الرجل: «زدني» قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «صم ثلاثة أيام» قال: «زدني» قال الرسول: «صم من الحرم واترك، صم من الحرم واترك».
هذا وشهر الصبر هو رمضان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي (يعني الرسول صلى الله عليه وسلم) بثلاث. صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات

فتُميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء».

وعنه أيضاً أن الرسول جاء إلى سعد بن عُبادة فجاءه بخبز وزيت فأكل، ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة».

يفطر بتمرات وحسوة ماء، أو بخبز وزيت، فلم يكن نعيم الدنيا من همه، وكذلك فعل أصحابه رضوان الله عليهم تأسياً به.

وفي «الحلية» للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، عن زيد بن أرقم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه استسقى فجيء له بإناء فيه ماء مُزج بالعسل، فلما أدناه من فمه وعلم ما فيه بكى بكاء شديداً، ثم مسح وجهه وأفاق فسألوه عن سبب بكائه فقال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئاً ويقول: «إليكِ عني، إليكِ عني». ولم أر معه أحداً فقلت: «يا رسول الله، أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً»، قال: «هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها إليكِ عني، فتنحت وقالت: (لئن انفلتَّ مني لا يفلت مني من بعدك)، فذاك الذي أبكاني».

■ ■ ■

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يتلوى ما يجد من الدقَل ما يملأ به بطنه». والدقل، بفتح الدال والقاف، نوع رديء من التمر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «تُوفّي رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلّا شطرُ شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ..».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير».

وعن عروة بن الزُبير عن عائشة أنها كانت تقول: «واللهِ يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّة، وما أُوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار» قلت: «يا خالة فما كان يُعيشكم؟» قالت: «الأسودان، التمر والماء، إلاّ أنه كان لرسول الله جيران من الأنصار، وكانت لهم منايخ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها، فيسقينا».

وعنها أيضاً أنها قالت: «ما شبع آل محمد من طعام البِر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبِضَ».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات».

وعن جابر رضي الله عنه قال:
«إنّا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت صخرة شديدة فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فخبّروه فقام ونزل وبطنه معصوب بحجر، وكنا لبثنا ثلاثة أيام لم نذُق شيئاً، فأخذ النبي المعول فضرب الصخرة فتفتت.

فقلت: «يا رسول الله إئذن لي إلى البيت». فقلت لامرأتي: «رأيت

في النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما في ذلك صبر فهل عندك شيء؟» قالت عندي شعير وعناق (أي شاة صغيرة). فذبحت العِناق، وطحنت الشعير وجعلنا اللحم في البرمة.

ثم جئت النبي والعجين قد انكسر والبُرمة بين الأثافي قد كادت تنضج. فقلت، طعيم لي (أي طعام قليل) فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: «كم هو؟»، فوصفته له. فقال: «كثير، قل لها لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي». ثم قال: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار فدخلت على زوجتي، فقلت لها: «ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار».

قالت: «هل أعلمته»؟ قلت: نعم. وجاء النبي وأصحابه وقال لهم «ادخلوا ولا تضاغطوا»، فجعل يكسر الخبز ويضع عليه اللحم، ويجمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقي منه. ثم قال لامرأة جابر «كلي (من هذا) وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لقد رأيت سبعين من أهل الضعة ما منهم رجل عليه رداء، إما أزار وإما كساء وقد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعهم بيده كراهية أن تُرى عورته».

ومن خطبة للصحابي عتبة غزوّان وكان والياً على البصرة أنه قال: «لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا طعام إلّا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا. فالتقطتُ بُردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك. فازرت بنصفها واتّزر سعد بنصفها. فما

أصبح اليوم منا أحد إلّا وهو أمير على مصر من الأمصار. وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً».

ورُوي أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام لإفطاره وكان صائماً فنظر إليه وقال: «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلّا بردة إن غُطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غُطيت رجلاه بدا رأسه. ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، حتى خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا».

قالوا، وجعل يبكي ولم يقرب الطعام.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «نام الرسول صلى الله عليه وسلم على حصيرٍ فقام وقد أثر على جنبه. قلنا: «يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً». فقال: ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلّا كواكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

■ ■ ■

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال الصالحة، فستكون فتن كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيع دينه بغرض من الدنيا».

وعن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذَر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

فيما روى عن الله سبحانه وتعالى أنه قال:
«يا عبادي إني حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلّا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلّا نفسه».

قال سعيد «كان أبو إدريس إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه. ورووا أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: «ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث».

وعن أبي ذر قال:
«قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله والجهاد

في سبيله»، قلت: «أي الرقاب أفضل»؟ قال «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً» قلت: «فإن لم أفعل؟»، قال: «تُعين صانعاً أو تصنع لأخرق».

قلت:
«يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟». قال: «تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك».

وعنه أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

وعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه:
«أتدرون من المفلس»؟ قالوا: «المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع»، فقال: «إن المفلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار».

وعن جرير بن عبد الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

هذا، وقد روى أنس رضي الله عنه، يصف تواضع الرسول الكريم ورِفْقه قال:
«إن كانت الأمَة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت».

الفصل الثاني

عمر بن الخطاب

جاء في الأثر، أن راعييْن في شعاب الجبال فوق مكة، قال أحدهما لصاحبه:

«أما علمت أن ذلك الأغْسر الأيْسر، قد صار خليفة للمسلمين؟».
«الذي كان يصارع الناس في سوق عكاظ؟».
«نعم، هو ذاك».

فقال الراعي:
«أما والله ليوسعنَّهم خيراً أو ليوسعنّهم شراً».

وقد أوسعهم خيراً، حتى أصبح يُضرب به المثل في تاريخ الإنسانية، لأنه منذ أيامه تلك في سوق عكاظ، حدثت له ثورة روحية زلزلت كيانه، وثاب إلى المعلم الربّاني، الذي أدّبه فأحسن تأديبه. صار،

كما وصف أبو عثمان النهدي «والذي لو شاء أن تنْطق قنانيَّ هذه نطقتْ، لو كان عمر بن الخطاب ميزاناً، ما كان فيه ميْط شعرة».

كان، كما حدّثوا، طويلاً، حتى إذا مشى حافياً، يُشرف على الناس كأنه راكب على دابة. أبيضَ مشرباً بحُمرة. وقد اسودّ وجهه في عام الرّمادة، لأنه حرّم على نفسه الّلحم واللبن، فوصفه بعض الرواة أنه كان (آدم).

كان أعسر أيسر، يعمل بكلتا يديه، أصلع شديد الصلع، أشيب، جسيماً، إذا استلقى، يخلف إحدى ساقيه على الأخرى، وإذا غضب يمسك بلحيته إلى فمه وينفخ فيها. كان ناسكاً يصوم الدهر، لكنه، كما وصفوا، إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع.

وما أحسن ما رُوي عن سالم بن عبد الله بن عمر. قال: «كان عمر ابن الخطاب وعبد الله بن عمر، لا يُعرف فيهما البرّ، حتى يقولا أو يفعلا». عنى أنهما لم يكونا يتظاهران بالبر، ولكن أقوالهما وأفعالهما كانت تخبر عنهما.

رووا عن عبد الله بن عمر أنه قال «إنما جاءتنا الأُدمة من قبل أخوالي، وجاءني البُضْعُ من أخوالي، فهاتان الخصلتان لم تكونا في أبي رحمه الله. كان أبي أبيض لا يتزوج النساء لشهوة إلّا لطلب الولد».

أمُّ عبد الله، وعبد الرحمن وحفْصة أم المؤمنين، هي زينب بنت مظعون من بني جُمَح. أما عمر، فأخواله بنو مخزوم، أمه حَنْتَمة

بنت هاشم ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ولم يرث شيئاً من زهوهم، فقد عُرفوا بالعنجهية.

وإن كان ورث منه شيئاً فقد محاه أنه أخذ نفسه بالشدة وأذلّها إذلالاً. وقد ذكر ابن سيرين أن عمر بن الخطاب قال:

«ما بقي فيّ شيء من أمر الجاهلية إلّا أني لست أبالي إلى أي الناس تزوجت وأيّهم زوّجت».

هذا، ولعله عزل خالد بن الوليد لما ظنه فيه من زهو بني مخزوم. وحدثوا أنه قال:

«لأعزلنّ خالد بن الوليد والمثنّى، مُثنّى بني شيبان، ليعلما أن الله إنما كان ينصر عباده وليس إياهما كان ينصر».

لكنه رأى من سلوك خالد بعد عزله، وأنه لم يترفع أن يقاتل بين صفوف المسلمين، جندياً من عامة الناس، راجع نفسه وقال:

«رحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال مني».
وحين مات خالد، وولولت عليه نساء مخزوم، قال «دعوا نساء مخزوم تبكي على أبي سليمان».

هذا، ومن بعض ما وصفوا عن إذلال عمر لنفسه، أنه صعد المنبر فجأة ذات يوم وقال: «أيها الناس. لقد رأيتُني وما لي شيء آكله. إلّا أن خالات لي من بني مخزوم كنت أستعذب لهن الماء ـ وفي رواية أرعى لهن الغنم ـ فكن يقبضن لي القبضات من الزبيب، وفي

رواية يجدن عليَّ ببعض اللبن. ثم نزل عن المنبر. فقيل له «ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟»، فقال «وجدتُ في نفسي زهواً فأردت أن أطأطىء منها».

وذكروا أنهم سمعوه يقول على المنبر «وددت أن عندنا حصفة أو حصفتين من جراد، فأصبنا منه».

وروى إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن يونس عن حميد بن هلال، أن حفص بن أبي العاص كان يحضر طعام عمر، فكان لا يأكل، فقال له عمر: «ما يمنعك من طعامنا؟» قال «إن طعامك جَشبُ غليظ، وإني راجع إلى طعام لين قد صُنع لي فأصيب منه». فقال عمر «أتراني أعجز أن آمر بشاة فيلقى عنها شعرها، وآمر بدقيق فيُنْخل في خرقة، ثم آمر به فيُخبز خبزاً رقاقاً، وآمر بصاع من زبيب فيُقذف في سُعن، ثم يصب عليه من الماء فيصبح كأنه دم الغزال؟»، فقال حفص «إني لأراك عالماً بطيب العيش». فقال عمر «أجل. والذي نفسي بيده لولا أن تنْتَقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم».

أجل، كان أمره عجباً في هذا، يتأسى بصاحبه أبي بكر، ومعلمه الرسول الكريم. وهو حديث لا يُملّ على أنه مُعاد. ما زال طازجاً عبر القرون. تقرؤه أو تسمعه، فكأنك تسمعه لأول مرة.

رووا أن ابنته حفصة أم المؤمنين قالت له: «يا أمير المؤمنين. إنه قد أوسع الله في الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير. فلو طعمت طعاماً ألين من طعامك، ولبست لباساً ألين من لباسك». فقال لها «سأخاصمك إلى نفسك. أما تذكرين ما كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يلقى من شدة العيش؟» فما زال يذكرها حتى أبكاها، ثم قال: «إني والله لئن استطعت لأشاركنّهما عيشهما الشديد، لعلي ألقى معهما العيش الرّخيّ». عنى الرسول وأبا بكر.

هذا الموقف تكرر على وجه آخر، بين عمر وأبي عبيدة بن الجرّاح. كان عمر يُؤثره ويقول: «إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي، استخلفته. فإن سألني الله عزَّ وجل لـمَ استخلفتُه قلت: «إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

وقد دعا عمر بعض أصحابه أن يتمنوا على الله، فكل منهم تمنى ما شاء. أما هو فقال: «أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة».

روى أشياخنا أن عمر حين قدم الشام، تلقاه قادة الجند والرؤساء، وقد بدا عليهم ما أصابهم من خير الشام. ونظر فلم يرَ أبا عبيدة، فقال: «أين أخي؟» قالوا «من؟» قال «أبو عبيدة». فلما جاءه نزل فاعتنقه، ثم دخل بيته، فلم يجد فيه غير سيفه وترسه ورحْله. فقال له عمر «ما منعك أن تتخذ ما اتخذ أصحابك؟» فقال أبو عبيدة «يا أمير المؤمنين. هذا يبلغني المقيل».

بذلك ذكّره بما أوصاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم. وزاد أشياخنا أن عمر وأبا عبيدة رضوان الله عليهما، ظلا يتذكران ويتباكيان إلى أن طلع الفجر.

■ ■ ■

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما تواترت الروايات عنه، على وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء، أجل، بكى من خشية الله، وبكى من فداحة العبء الذي نهض به. وعندي، أنه بكى أيضاً من الوحشة.

رحل حبيبه وصديقه ومعلمه الذي قال له وهو خارج إلى العمرة «لا تنْسنا من دعائك يا أخي». فقال عمر «ما وددت أن لي بها حمْر النعم أن قال لي يا أخي». ورووا أنه في تلك الرحلة وضع ساقاً على ساق فوق راحلته، وأطلق عقيرته بالغناء، وكان حسن الصوت:

وما حَملتْ من ناقة فوقَ رحْلها
أبرَّ وأوفى ذمّةً من محمد

هيهات الآن يا أبا حفص، تلك الساعات الوضيئة، في حضرة ذلك الإنسان النوراني.

ورحل صاحبه أبو بكر. كانا في الحب فَرَسَيْ رهان، وعمر يقرُّ لأبي بكر بالسبق في الصحبة والفضل. ولما اختار الله رسوله إليه، كان كل واحد منهما يجد بعض العزاء في صاحبه عن ذلك الفقد الفادح. ثم رحل أبو بكر. وسوف يمتد الأجل بأبي حفص، حتى يرى الدنيا تفتح خزائنها ويكون ذلك بلاءً فوق بلاء.

رووا عن عبد الله بن عباس أنه قال «دعاني عمر بن الخطاب فأتيتُه فإذا بين يديه نِطْعٍ عليه الذّهب منثوراً. فقال لي «هلمّ فاقسم هذا بين قومِك، فالله أعلمُ حيثُ زوى هذا عن نبيّه عليه السلام وعن أبي بكر، فأُعطيتُه لخير أو أُعطيتُه لشر» قال، فأكببتُ عليه أقسمُ وأزيّل، فسمعت البكاء، فإذا صوت عمر يبكي ويقول «كلاّ والذي

نفسي بيده، ما حبَسه عن نبيه عليه السلام وعن أبي بكر، إرادة الشرّ لهما وأعطاه عمر إرادة الخير له».

كان على قوته وشدّته، رقيق القلب، غزير ماء العين، متواصل الأحزان. في عزِّ الزمان الجميل، بكى حرقة على الزمان الأجمل.

رأى الإمارة بلاء، وكان أول ما قال، كما روى حُميد بن هلال، قال:

«أخبرنا من شهد وفاة أبي بكر الصديق، أن عمر لما فرغ من دفنه، نفض يده عن تراب قبره، ثم قام خطيباً مكانه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي. فوالله لا يحضرني شيء من أمرِكم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عنِ الجزء والأمانة. ولئن أحسنوا لأحسننّ إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنّ بهم». قال الرجل: فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الحياة.

كان ذلك عام ثلاثة عشر من الهجرة. وفي عام تسعة وتسعين، قدّر الله أن يجيء من ذرية الفاروق، إمام آخر صالح، على فترة من الأئمة الصالحين. قام المقام نفسه، وقال المقالة نفسها.

حدّثوا أن عمر بن عبد العزيز، حين فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك، وخرج من قبره، سمع للأرض رجّة. فقال، ما هذا؟ قالوا مراكب الخلافة. فقال «ما لي ولها. نحّوها عني، وقرّبوا إليَّ بغلتي».

فصرفوا الخيل وجاءوا له ببغلته فركبها، فإذا صاحب الشرطة يسير

بين يديه بالحرْبة. فقال «تنحّ عني ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من عامة المسلمين». فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وترحّم على سليمان، ثم قال:

«أيها الناس. إني قد ابتُليتُ بهذا الأمر، من غير رأي كان مني فيه، ولا طلْبة له ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خَلعتُ ما في أعناقكم من بيْعتي، فاختاروا لأنفسكم».

قالوا، فصاح الناس صيحة واحدة «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فتولّ أمرنا باليُمن والبركة».

فلما رأى أنهم غيرُ تاركيه، وأنهم أجمعوا عليه، لبث حتى هدأت الأصوات، ثم قام فخطب فيهم خطبة جاء فيها:

«... إن هذه الأمّة لم تختلف في ربّها عزّ وجل ولا في نبيّها صلى الله عليه وسلم ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم. وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً».

قالوا إن عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة، ضيق على بني أُمية، ونزع منهم الأرض والأموال التي منحهم إياها الخلفاء قبله، فلجأوا إلى عمته أم عمر بنت مروان، فدخلت عليه فقالت: «إن قرابتك يشكونك، ويزعمون أنك أخذت منهم خيْر غيرك». قال «ما منعتُهم حقاً». فقالت «إني رأيتهم يتكلّمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال لها: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا وقّاني الله شره». فخرجت إليهم وقالت «تتزوّجون في آل عمر بن الخطاب فإذا نزعوا إلى الشّبه جزعتم».

كان يحذو حذْو جدّه لأمه، وكان مثله متّصل الدمع كثير الأحزان. عن محمد بن زيد قال: اجتمع علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. فقالوا لعبد الرحمن بن عوف، وكان أجرأهم على عمر بن الخطاب «لو كلّمت أمير المؤمنين للناس، فإنه يأتي الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبتُه أن يكلمه، فيرجع ولم يقض حاجته». فدخل عليه عبد الرحمن فقال له ذلك، فقال له عمر «أنشدُك الله، أعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا؟»، قال «اللهم نعم». فقال عمر «والله يا عبد الرحمن، لقد لنْتُ للناس حتى خشيت الله في اللين، واشتديت عليهم حتى خشيت الله في الشدة فأين المفرّ؟»، ثم أخذ يبكي. فقام عبد الرحمن يبكي يجر رداءه ويقول «أُفّ لهم بعدك! أُفّ لهم بعدك!».

كان إسلامه كما وصفوا فتحاً. وكانت هجرتُه نصراً. وكانت إمارته رحمة. وكان على وجهه خطان أسودان من كثرة ما بكى في جوف الليالي من خشية الله. وكذلك بكى من الوحشة على فراق صاحبيه في الزمان الجميل.

■ ■ ■

لبث الفاروق رضي الله عنه بعد صاحبيْه، حتى رأى الدنيا تفتح خزائنها، فخاف على نفسه وعلى المسلمين، وكأن الثراء الوافد، طوفان يخشى أن يغرقه ويفرق الناس. كان يقيس ذلك بما عهده من معلّمه الرباني في بواكير الزمان الجميل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم، هلالٌ ثم هلالٌ ثم هلالٌ لا يوقد في بيت من بيوته

نار، لا لخبز ولا لطبيخ». قالوا «بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟» قال «بالأسودَيْن، التمر والماء».

ورووا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت «إني لجالسة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدى لنا أبو بكر رِجْلَ شاة. فإني لأقطعها مع رسول الله في ظُلمة البيت». فقيل لها «أما كان لكم سراج؟» قالت «لو كان لنا زيت يُسرج به لأكلناه».

وحدَّث إياس الهُذليّ قال «كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليساً، وكان نعم الجليس. فسرنا معه ذات يوم إلى داره، فأتانا بجفنة فيها خبز ولحم. فلما وُضعت بكى عبد الرحمن. فسألناه عن سبب بكائه فقال: «فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خُبز الشعير. ولا أرانا أُخِّرْنا لهذا لما هو خير لنا».

كذلك كان يرى أبو حفص، وكل أولئك الرّهط الذين شربوا من النبع الصّافي أول العهد. وكان شأن عمر في ذلك عجباً. كان كلما رأى المال يتدفق على المدينة، يزداد حزنه وجزعه، ويظنه بلاء يبتليه الله به.

أبقاه الله بعد صاحبيْه، ليرى ظل الإسلام يمتد إلى بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر. وذكروا أن خراج العراق وحده، بلغ على عهد عمر، أكثر من مائة ألف ألف درهم، وعشرين ألف ألف (أي مائة وعشرين مليوناً).

نرى عمر بن الخطاب في سنوات الرخاء تلك، قلقاً، متوجّساً خيفة،

مشمّراً عن ساعديه، مستجمعاً طاقته كلها، وكأن الخير الذي انهمر على المسلمين في عهده، بلاء كالبلاء الذي أصابهم بعد ذلك في عام الرّمادة.

جلس للمال يقسمه بالعدل والقسطاس، حتى إنه أعطى الرقيق وأعطى الذّمي وأعطى اللّقيط.

فرض لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، خمسة آلاف درهم لكل واحد منهم، وساوى بهم حلفاءهم ومواليهم. وفرض لمهاجرة الحبشة ومن شهد أُحداً، أربعة آلاف لكل واحد منهم. وفرض لأبناء البدريّين ألفين ألفين. وفرض لقرابة الرسول خمسة آلاف لكل واحد منهم، وفي رواية سبعة آلاف. وأعطى أمهات المؤمنين، كل واحدة، اثني عشر ألفاً.

كان يحمل بنفسه أعطيات أهل البادية إليهم في أماكنهم. قال حزام بن هشام الكعبي عن أبيه «رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خُزاعة، حتى ينزل قُديداً، فنأتيه بقديد، فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيّب فيعطيهن في أيديهن. ثم يروح فينزل عُسفان، فيفعل مثل ذلك، حتى توفّاه الله».

كان يقول «لأزيدنّهم ما زاد المال. لأعدّنَّه لهم عداً، فإن أعياني لأكيلنّه لهم كيلاً، فإن أعياني، حثوْتُه لهم حثواً».

روي عن أبي هريرة رضي الله أنه قال «قدمت على عمر من البحرين، فلقيتُه في صلاة العشاء الآخرة، فسلّمتُ عليه، فسألني عن الناس، ثم قال لي «ابم جئت؟». قلت «جئتك بخمسمائة ألف

درهم». قال: «هل تدري ما تقول؟» قلت «مائة ألف، مائة ألف، حتى عددتُ خمساً». قال «إنك ناعس، فارجع إلى أهلك فنَم، فإذا أصبحت فأْتني». قال أبو هريرة «فغدوتُ عليه فقال «ماذا جئت به؟» قلت «جئتُ بخمسمائة ألف درهم». قال عمر «أطيّب هو؟» قلت: «نعم، لا أعلم إلّا ذلك». فقال عمر للناس «إنه قدم علينا مال كثير، فإن شئتم أن نعدّ لكم عدّاً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً».

وذكروا أن رجلاً قال له «يا أمير المؤمنين، إني رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً يعطون الناس عليه». فجعل ديواناً.

وتُروى هذه القصة من وجه آخر، أن أبا هريرة حين قال له ما قال، بكى عمر وأجهش بالبكاء، وقال «أما كان هذا عند الله حين كان محمد وأبو بكر يأكلان القدْ؟» والقدّ جلدٌ يابس، كانوا يشوونه ويأكلونه، إذا لم يجدوا ما يؤكل.

إنْ كان عمر قد قال ذلك، فما ذاك إلّا أنه خشي على نفسه، أن يكون الله قد منع المال عن صاحبيْه، رحمة بهما، وأعطاه إياه ابتلاءً له.

وفي رواية أن الذي أشار عليه بتدوين الديوان، هو هشام بن المغيرة، فأخذ برأيه، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومَخْرمه بن نوفل، وجُبير ابن مطعم، وكانوا من نُسّاب قريش، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم، فبدأوا ببني هاشم، وأتبعوهم قوم أبي بكر، ثم عمر وقومه. فلما عرضوه على عمر قال:

«وددْتُ والله أنه هكذا. ولكن أبدأوا بقرابة النبي صلى الله عليه

وسلم، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله».

هذا، وكان الفاروق رحمه الله، يثوب عن كل هذا المال إلى داره، فيأكل كما وصف أبو موسى الأشعري، قال:

«قدمنا على عمر في وفد أهل البصرة، فكنّا ندخل عليه كل يوم، فإذا له خُبزٌ ثلاث، فربما وافقناها مأدومة بزيت، وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة قد دُقّت ثم أُغليَ بها، وربما وافقنا اللحم الفريض وهو قليل».

كان جلّ همّه أن يلحق بصاحبيْه، ويخرج من الدنيا، كما قال، كفافاً، لا له ولا عليه وقد اختطّ لنفسه خُطّة، لم يستطعها إلّا القليلون، حتى في ذلك الزمان، والناس قريبو عهد بمنبع الضوء، فكيف بنا في هذا الزمان؟

إنها قصة على قدمها، غضة طريفة، كأننا نسمعها لأول مرة، تثير الشجى، لأنها تتعلّق بالهدف الأسمى، وهيهات لنا أن نقترب من تلك الأعالي!

■ ■ ■

تعجب لذلك الإنسان، وكلُّ أحواله عجب، ألا يستقرُّ أبداً؟ ألا يُريح جسده؟ ألا تُغمض عينه؟ يقفز من بين السطور في كتب السِّير، يركض على الصفحات ركضاً. بينما تراه واقفاً يَعِظُ في مسجد رسول الله، إذا هو في بيت المال، باركاً على ركبتيه، حاسراً عن رأسه، مشمراً عن ساعديه، يعدُّ ويقسّم. ثم إذا هو يجيّش

الجيوش الجرارة، ويتابع سير المعارك على بعد آلاف الأميال، لا تخفى عنه صغيرة ولا كبيرة، والرّسل يغْدون ويروحون، بينه وبين ساحات القتال، وكأنه وحده «غرفة عمليات حربية».

يتجول في الأسواق يحمل درّته، ويطوف في البوادي، يعطي بنفسه كل ذي حق حقّه في يده.

ثم تجده يسعى في طرقات المدينة في جوف الليل، مثل طيف رحيم، يتنصت على بكاء الأطفال، وآهات الأيامى، وشكوى النساء اللائي غاب أزواجهن عنهن في ميادين القتال. أحياناً بمفرده، وأحياناً برفقة بعض أصحابه.

حدّثوا عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن عبد الله بن عمر، قال:

«قدِمتْ رفقةٌ من التجار، فنزلوا المُصلى، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف «هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرَق؟» فباتا يحرسانهم ويصليان ما شاء الله لهما. فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه، وقال لأمه «يا أمةَ الله، اتّقي الله والتفتي إلى صبيك». ثم عاد إلى مكانه فلم يلبث أن سمع بكاء الصبي، فعاد إلى أمه، فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه.

فلما كان من آخر الليل، سمع بكاءه، فأتى أُمه فقال «ويحك، إني لأراك أم سوء. ما لي أرى ابنك لا يقرٍ منذ الليلة؟»، فقالت له المرأة «يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة إني أُريغه عن الفطام فيأبى». قال «ولِمَ؟» قالت «لأن عمر لا يفرض إلاّ للفُطّم». قال «وكم له؟» قالت «كذا وكذا شهراً». قال لها عمر «ويحك لا تعجليه».

قال، فصلّى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلّم قال: «يا بُؤْساً لعمر! كم قتل من أبناء المسلمين!»، ثم أمر منادياً فنادى «لا تعجلوا أبناءكم على الفطام، فإنّا نفرض لكل مولود في الإسلام». وكتب بذلك إلى الآفاق.

كان حاله من الخشية، حال رجل يحسب أنْ لو هلك جملٌ على شط الفرات، فهو مسؤول عنه.

ثم تراه يتقصى أخبار الناس في أطراف الجزيرة، فيتضح لك أكثر جانبُ الرحمة والحُنوّ في طبيعة عمر، فكأنه أُمّ رؤوم. حدّثوا أن خالد ابن عُرفطة العذري قدم على عمر، فسأله عما وراءه، فقال:

«يا أمير المؤمنين، تركتُ مَنْ ورائي، يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم. ما وطىء أحد «القادسية إلّا وعطاؤه ألفان، أو خمسة عشر مائة (ألف وخمسمائة). وما من مولود يولَد إلّا أُلحق على خمسمائة أو ستمائة. فإذا خرج هذا لأهل بيت، فما ظنّك بهم؟ فإنهم ليُنفقونه فيما ينبغي وفيما لا ينبغي».

فقال عمر «الله المُستعان. إنما هو حقهم، وأنا أسْعد بأدائه إليهم، منهم بأخذه. فلا تحمدنّي، فإنه لو كان من مال الخطّاب ما أُعطيتموه. ولكني قد علمتُ أن فيه فضلاً، ولا ينبغي لي أن أحبسه عنهم. فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء العُريْب ابتاع منه غنماً فجعلها بسوادهم، ثم إذا أخرج العطاءُ، الثانية، ابتاع الرأس فجعله فيها، فإني ويحك يا خالد بن عُرفطة، أخاف عليكم أن يليكم بعدي ولاةٌ لا يُعدّ العطاء في زمانهم مالاً، فإن بقي أحدٌ منهم، أو أحدٌ من ولده، كان لهم شيء قد اعتقدوه فيتّكئون عليه».

لعلّه لو امتدّ به الأجل، كان يعطيهم قدْر حاجتهم، ويحبس الفضول في بيت المال، لينفق منها وقت الضرورة فقد كان ينحو إلى ذلك. وما أجمل هذه القصة، من قطعة فنية اكتملت فيها عناصر التأثير كلها، وما أبلغ قوله (هؤلاء العُريْب). لم يقلّل من شأنهم، إنما قال ذلك بدافع الحب والرحمة، فكأنهم فلذات كبده. تراهم بعين خيالك، في خيامهم وبين إبلهم وأغنامهم، يعيشون مطمئنين تحت ستر الله، ترعاهم عينٌ لا يغمض لها جفن.

ثم تراه وحده أواخر الليل، منبثقاً من طيات الظلام مثل طيف كريم. تعلم أنه قد بذل قصارى جهده وأكثر، في ذلك اليوم. ولن يهجع حين يهجع الناس، فما زال أمامه بعد، قيام وتهجُّد ودموع.

قال الراوي، إن عمر دخل المسجد بعد صلاة العشاء بزمن، فوجد نفراً من أصحاب رسول الله يتذاكرون، فيهم الصحابي الجليل أُبيّ ابن كعب. قال عمر «ما خلّفكم بعد الصلاة؟»، فقال أُبيّ «جلسنا نذكر الله» فجلس عمر معهم، ثم قال لأدناهم (خُذْ) ـ أي قلْ. ثم استقرأهم رجلاً رجلاً، حتى وصل إلى الجالس بجواره.

قال الرجل «فحُصرت وانعقد لساني وأخذني من الرّعدة، حتى جعل يجد مسّ ذلك مني». فقال: «ولو أن تقول اللهم اغفر لنا، اللهم ارحمنا». ثم أخذ هو، فلم يكن في المجلس أكثر دمعة ولا أشد بكاء منه. ثم قال «أيها. الآن فتفرّقوا».

ثم تجده بين الحزم واللين، في تلك الرسالة البليغة التي وجهها إلى أبي موسى الأشعري، وكان قد ولّاه على البصرة.

كان أبو موسى، صحابياً جليلاً ورعاً. وكان عذب الصوت في تلاوة القرآن. وقد رووا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «إن عبد الله بن قيس (الأشعري) أُعطي مزماراً من مزامير آل داوود». وكان عمر يُقدّره ويحترمه وما كان متّهماً عنده. وذكروا أن أبا موسى حين ترك ولاية البصرة، لم يكن يملك غير ستمائة درهم هي عطاء عياله. إلّا أن عمر رحمه الله كان يحرص على أولئك الرهط من الصحابة، حرصه على نفسه.

وهي رسالة طويلة جاء فيها:

«وقد بلغ أمير المؤمنين، أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك، ليس للمسلمين مثلها. فإيّاك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب، فلم يكن لها همّ إلّا السِّمَن، وإنما حتفُها لو تعلم، في السِّمن».

■ ■ ■

امتحن الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أول مرة بالرخاء الذي غمر الناس في عهده. ثم امتحنه بالمجاعة. فجأة حبست السماء الغيث. طيلة تسعة أشهر لم تنزل قطرة من المطر. اسودّت الأرض ويبست، وأصبحت الريح تذرو غباراً كالرماد. لذلك سموه عام الرمادة. مات الزرع وهلكت الماشية، ولم يجد الناس ما يأكلون، فأكلوا اليرابيع والجرذان، وطحنوا العظام فسفوها.

نستطيع أن نتخيل ما أصاب أبا حفص من هلع على المسلمين، ونحن نعلم شدة إحساسه بالمسؤولية. حتى تلك الكارثة الطبيعية،

خشي أن يكون مسؤولاً عن حدوثها، بوجه من الوجوه.

رُوي عن عبد الله بن عمر أنه قال «كان عمر بن الخطاب أحدث في عام الرمادة أمراً ما كان يفعله. كان يصلي بالناس العشاء، ثم يأتي بيته فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل. ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها. وإني لأسمعه يدعو في السحر ويقول (اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي)».

نراه الآن في أقوى حالاته، وإن كان في أضعف حالاته. وقف شامخاً كالجبل، بدأ بنفسه، وألزمها ضروباً من التقشف والزهد فوق ما كان قد فرضه عليها أصلاً. وكان الإنسان يظن أن ليس فوق ذلك من مزيد. حتى مزق اللحم التي كان يتقوى بها من حين إلى حين حرمها على نفسه.

قال محمد بن يحيى بن حبّاب «جيء لعمر بن الخطاب بخبز مفتوت بسمن عام الرمادة، فدعا رجلاً بدوياً يأكل معه. فجعل البدوي يتبع باللقمة الودك في جانب الصحفة. فقال له عمر (كأنك مقْفر من الودك). قال: (أجل. ما أكلت سمناً ولا لحماً ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم). فأقسم عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس».

لم يقرب زوجة، ولم يذق النوم إلّا غراراً. ظل واقفاً يحمل العبء ـ ويا له من عبء ـ غادياً رائحاً، ضارعاً باكياً، ووجهه يسودّ من الجوع والهم، والأخدودان عليه يزدادان عُمقاً لكثرة ما أراق من الدمع.

رحم الله الفاروق. حدّث أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: «لو لم يرفع الله المحْل عام الرمادة، لظننا أن عمر يموت همّاً بأمر المسلمين».

هجر الناس مواطنهم، وجاءوا فأحاطوا بالمدينة عاصمة الدولة، كما يفعل الناس في المجاعات طوال التاريخ. كان عمر يرى ما أصابهم من الهزال، ويرى جنائزهم تخرج بالعشرات، فيزداد هلعه ويزداد تضرعه.

قال أبو هريرة فيما حدثوا: «يرحم الله ابن حنْتمة (يعني عمر). لقد رأيته عام الرمادة وأنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده، وأنه ليعتقب هو وأسلم. فلما رآني قال «من أين يا أبا هريرة؟» قلت «من قريب يا أمير المؤمنين» قال، فأخذت أحمل معه، حتى انتهينا إلى صرار ـ وهي بئر قديمة على مسافة ثلاثة أميال من المدينة ـ فإذا جماعة من محارب نحو من عشرين بيتاً. فقال عمر «ما أقدمكم؟» قالوا «الجهد». قال أبو هريرة، فأخرجوا لنا جلد الميتة مشوياً كانوا يأكلونه، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يسفونها. فرأيت عمر طرح رداءه، ثم أتزر، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا. وأرسل أسلم إلى المدينة، فجاءه بأبعرة، فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبابة ثم كساهم. وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك».

وتراه في لمحة خاطفة معبرة، واقفاً يعلم امرأة كيف تصنع العصيد. عن حزام بن هشام عن أبيه قال «رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مرّ على امرأة وهي تعصد عصيدة لها، فقال (ما هكذا العصْد) ثم أخذ المسوط فقال (هكذا) فأراها».

لم يغفل عمر جانب الإدارة ـ إدارة الكوارث كما يقال بلغة هذه الأيام ـ فكوّن (جهازاً) لتوزيع المعونة، حين وصلت في ما بعد من أطراف الدولة، ولتدبير (شؤون اللاجئين) واستقبالهم وإنزالهم في أماكنهم.

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال:

«لما كان عام الرمادة، تجلبت العرب من كل ناحية، فقدموا المدينة. فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وآدامهم، منهم يزيد ابن أخت النمر، والمسور بن مخْرمة، وعبد الرحمن بن عبد القارىء، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا، اجتمعوا عند عمر، فيخبرونه بكل ما كانوا فيه. وكان كل رجل منهم على ناحية المدينة. وكان الأعراب حلولاً ما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة».

قبل أن يصله المدد، اتبع عمر سياسة (المطابخ المفتوحة) وكان هو يصنع مائدة عامة يحضرها من شاء من الناس. وقد أحصوا من تعشى معه ذات ليلة، فإذا هم عشرة آلاف. هذا، وقد ترك لنا الرواة وصفاً مؤثراً لمائدة من هذه الموائد، قالوا:

«وكانت قدور عمر يقوم إليها العمال في السحر يعملون الكركور حتى يصبحوا ثم يطعمون المرضى منهم ويعملون العصائد. وكان عمر يأمر بالزيت فيغلى في القدور الكبار حتى يذهب حُمّته وحره ـ إذ كان العرب يصابون بالحمى إذا أكلوا الزيت النيىء ـ ثم يثرد بالخبز ويؤدم بذلك الزيت. وما أكل عمر في بيت أحد من نسائه

ولا بيت أحد من ولده، يأكل مع الناس، حتى رفع الله البلاء».

■ ■ ■

كان أبو عُبيدة أول من هبَّ للنجدة. لم يكتفِ بإرسال المدد من حيث هو في بلاد الشام، ولكنه أحضره بنفسه، ففرح عمر بوصول المدد، وفرح كعهده بلقاء صديقه، فأوكل إليه أمر توزيعه ففعل، ثم قفل راجعاً. لم يجتمعا بعد ذلك، فقد مات ابن الجراح الأمين، في طاعون عمواس الذي جاء حثيثاً في أعقاب عام الرمادة، فكان كرباً آخر على المسلمين.

هبَّ عمر كعادته فحشد نفسه والذين معه، وأعلن حالة الطوارىء كما نقول، كتب رسالته الشهيرة إلى عمرو بن العاص والي مصر، وهي توضح حالته تلك الأيام:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاصي ابن العاصي. سلام عليك. أما بعد، أفتراني هالكاً ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا غوثاه! يا غوثاه! يا غوثاه!».

ما كان لعمرو أن يبطىء بعد تلك الرسالة. بعث المدد من مصر براً وبحراً. وكان أعوان الخليفة يستقبلون كل ذلك خارج المدينة ويوزّعونه كما أمرهم عمر. وقد قال لأحد عماله:

«أما ما لقيت من الطعام، فملْ به إلى أهل البادية. وأما الظروف فاجعلها لحُفاً يلبسونها. وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من ودَكها، ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا. وأما

الدقيق فيصطنعون ويُحرزون حتى يأتي أمر الله لهم بالفرج».

وروي عن موسى بن طلحة قوله «كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن ابعث الطعام على الإبل وابعث في البحر. فبعث عمرو على الإبل، فاستقبلها رسل الخليفة بأفواه الشام، وعدّلوا بها يميناً وشمالاً ينحرون الجزر ويطعمون الدقيق، ويكسون القباء. وبعث رجلاً إلى الطعام الذي بعث به عمرو بالبحر، فحُمل إلى أهل تهامة».

استجاب لاستغاثات الفاروق، معاوية من الجزء الذي وليه من بلاد الشام. واستجاب سعد ابن أبي وقاص من العراق.

حدّثوا أن عمرو بن العاص، أرسل عشرين سفينة بالبحر، موسقة بالدقيق والودَك (الدُّهن). وبعث بألف بعير بالبر تحمل الدقيق، وأرسل خمسة آلاف عباءة. وبعث معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وثلاثة آلاف عباءة. وأرسل سعد من العراق ألفيْ بعير تحمل الدقيق.

تحرّكت أطراف الدولة الإسلامية الناشئة، تحركاً مدهشاً لنجدة الجزيرة العربية، مهد الرسالة. وكانت سابقة رائعة، ومثلاً بعيد المدى في تاريخ الإسلام. كانت أعضاء الدولة تتكافل في الشدة والرخاء. ومن حسن حظ المسلمين أنهم سيطروا على (سلال الخبز) في العالم يومئذٍ، فلم يحتاجوا إلى عون من خارج الدولة.

وكان عمر كأعظم ما يكون القائد. كان زعيم الأمة، وضميرها، ومرآة وجدانها. فعل أكثر مما تفعله الدول الحديثة اليوم في التصدي للمجاعات. ضمن أولاً تدفق العون إلى مناطق الشدة في الجزيرة

العربية. وكوّن جهازاً إدارياً كفوءاً لتوزيع المعونات، أشرف عليه هو بنفسه.

اتّبع أساليب متنوعة لإطعام الناس الذين لم يبرحوا، أوصل إليهم العون في أماكنهم. والذين أصبحوا لاجئين حول العاصمة، أقام لهم الموائد المفتوحة وأعطى بعضهم معونات عينية.

لم يكتفِ بذلك، بل عاش هو نفسه، القائد الأعلى للأمة، كأنه لاجىء من غمار اللاجئين، فأكل مما يأكلون، ولبس كما يلبسون. وقد كاد يطبق خطة جريئة، لو طال القحط بالناس. عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال «لو لم أجد للناس من المال ما يسعُهم إلّا أن أُدخل على كل أهل بيت مثلهم فيقاسمونهم طعامهم وشرابهم، فإنهم لم يهلكوا عن أنصاف بطونهم».

هكذا صنع الفاروق. عمل كل ما في مقدور بشر أن يعمله. شيء واحد لم يكن باستطاعته. أن تتفتح أبواب السماء بالغيث. ذلك بيد الله، فاتجه إليه بالتضرّع والدعاء.

حدّث السائب بن يزيد قال «رأيت على عمر بن الخطاب في زمن الرمادة، إزاراً فيه ست عشرة رقعة، وهو يدعو ويقول (اللهم لا تجعل هلكة أمة محمد على رجلي)».

وكان يهتف بالناس بعد صلاة المغرب «أيها الناس، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وسلوه من فضله واستسقوا سُقيا رحمة لا سقيا عذاب».

قالوا إن عمر حين عزم أن يصلّي صلاة الاستسقاء، كتب إلى عماله أن يخرجوا للصلاة في وقت حدّده لهم، في كل أرجاء الدولة. وخرج هو بالناس في المدينة، وعليه بُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى المصلّى، فصلى وتضرع وتضرع الناس معه، وبكى حتى ابتلّت لحيته. ثم أخذ بيد العبّاس ورفعها وقال: «اللهم إنّا نتشفع إليك بعم نبيّك أن تُذهب عنا المِحل وأن تسقينا الغيث».

ووصفوا أنهم لم يبرحوا مكانهم حتى انهمر الغيث وظلت السماء تسحّ أياماً. فلما حدث ذلك، أمر عمر الناس أن يجلوا عن المدينة ويلحقوا ببلادهم.

ذلك أيضاً من حسن تدبير هذا الإنسان العجيب. اضطر الناس اضطراراً إلى الخروج. لم يتركهم يكتظون في العاصمة بلا مبرر، وكفل لهم ما يضمن لهم استمرار العيش في مواطنهم. وبذلك ضمن الاستقرار في الدولة، والتوازن بين الأطراف والمركز والبادية والحضر.

رحم الله أبا حفص، وما أجمل ما قال السعدي في وصف تلك الأيام:

«كانت العرب قد علمت اليوم الذي استسقى فيه عمر، وقد بقيت غُبرات منهم، فخرجوا كأنهم النسور العجاف تخرج من وكورها يعجُّون إلى الله».

وصلى الله على سيدنا محمد، ما ناءت نخلة بأحمالها، وما حنَتْ أم على أطفالها.

■ ■ ■

الفصل الثالث

عبد الله بن عمر

نراه في لمحة خاطفة مُعبِّرة يوم فتح مكة، وهو ابن عشرين سنة، على فرس جرور، وفي يده رمح ثقيل، وعليه بردة. أبصره النبي صلى الله عليه وسلم، فقال «إن عبد الله! إن عبد الله!».

أسعده ذلك الثناء من القائد الأعلى والمعلم الأكبر، لا ريب. كان قد جاءه يوم بدر وهو ابن ثلاث عشرة، فرده لصغر سنه. وجاءه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة فردّه لصغر سنّه. لكنه اليوم شاب في عنفوان الشباب، مقاتل تحت لواء القائد العظيم.

ظل كذلك طول حياته، عيناه أبداً مشدودتان إلى قائده ومثله الأعلى، كل خطوة يخطوها كأنه يسمع صوت الرسول الكريم يقول «نِعْمَ الرجل عبد الله».

حين اختاره أبوه رئيساً للمجلس الذي كلّفه بانتخاب الخليفة بعده، كان بذلك القرار، قد اعترف له بقدره صراحة. ما كان عمر، وهو مَنْ هو في تشدّده وبُعده عن المحاباة، أن يحمّل ابنه تلك المسؤولية المجسمة، لولا أنه كان يعلم ـ وكان الناس يعلمون ـ أن عبد الله بن عمر أهلٌ لحمل العبء الجسيم.

لكنه أيضاً حدّد له دوره الذي سوف يلازمه فيما بعد. المجلس يتكوّن من رجال يكبرونه سنّاً، ويرجحونه قدراً. كلهم شهد بدراً، وكلهم مبشّرون بالجنة. سوف يكون الخليفة واحداً منه، أما هو، فليس له من الأمر شيء، كما أوصى الخليفة العتيد، وهو على فراش الموت.

نِعْمَ الرجل، عبد الله بن عمر. سوف يعيش طويلاً، ويحزن كثيراً. سوف يحضر زمان الحَجاج، ويرى من جبروته وبطشه بالناس. سوف يقول، وهو يوشك أن يفارق الحياة: «ما آسى من الدنيا إلاّ على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وألاّ أكون قاتلت هذه الفئة الباغية».

قاوم الإغراء ـ والتهديد أحياناً ـ ونأى بنفسه وأهل بيته عن الخوض في الفتنة. وكان يقول: «من قال حي على الصلاة أجبته. ومن قال حي على الفلاح أجبته. ومن قال حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله، قلتُ لا».

ظلَّ وفياً لذكرى حبيبه ومعلّمه في العهد الأول. يمشي في طرقات المدينة، متقفياً أثر الرسول الأمين. واحة من الضوء والطمأنينة في خضَمّ الفتن. يتذكر وتدمع عيناه ويقول: «عسى أن يقع الحافر على الحافر».

كان كما حدّث موسى بن طلحة:
«يرحم الله عبد الله بن عمر. والله إني لأحسبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي عهده إليه، لم يُفتن بعده ولم يتغيّر».

يكلّفه أبوه بثلاث مهام قبل أن يفارق الدنيا. ذلك الإنسان العجيب، وهو طعين، قاب قوسين من الموت، ما يزال كعهده دائماً، يعد العدة، ويفكر في أمر نفسه وأمر المسلمين.

رووا أن الفاروق رضي الله عنه، لما رأى اللّبن الذي شربه يخرج من جرحه، وأيقن أنه راحل، قال لابنه:

«يا عبد الله بن عمر، انظر كمْ عليَّ من الدين».
فحسب عبد الله، فوجده ستة وثمانين ألف درهم.
قال عبد الرحمن بن عوف «ألا تستقْرضُها من بيت المال حتى تؤدّيها؟».

فقال عمر «معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدي، أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر، فتتبعني تبعتُه وأقع في أمر لا ينجيني إلّا المَخرجُ منه».

وطلب عمر من ابنه أن يضمن الدين، فضمنه وأشهد على نفسه، فقال عمر:

«يا عبد الله. إن وفَى لها مالُ آل عمر، فأدِّها عني من أموالهم. وإن لم تفِ أموالهم فاسْألِ فيها بني عدي بن كعب. فإن لم تفِ فأسأل

فيها قريشاً ولا تعْدُهم إلى غيرهم».

هذا، وقد رووا أنه لم يمضِ أسبوع على دفن عمر، حتى حمل عبد الله بن عمر المال إلى الخليفة الجديد، عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

ثم انصرف همّ عمر إلى أمر مثواه، وكان حريصاً أن يُدفن مع صاحبيه، فطلب من عبد الله أن يذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقال له:

«أقرئها السلام، ولا تقل لها أمير المؤمنين، فإنني لست لهم اليوم بأمير، وقل لها عمر يستأذنك أن يُدفن مع صاحبيه».

جاءها فوجدها قاعدة تبكي، ولمّا أخبرها قالت:
«قد والله كنت أريده لنفسي، ولأوثرنّه به على نفسي».

رووا، أن عمر رضي الله عنه، حين حضرته الوفاة كان رأسه في حِجر ابنه عبد الله، فقال له:
«ضع خدّي في الأرض».

فقال عبد الله «وما عليك في الأرض كان أو في حِجري؟».
قال «ضع خدّي في الأرض». ففعل.
وحدّثوا أن عمر أخذ يردّد «ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي» حتى فاضت روحه.

حملوه، ووقفوا به على الباب، واستأذنوا عائشة مرة أخرى، كما

أوصى عمر، فأذنت لهم.

حفروا له بجوار صاحبيه. ودخل قبره نفر من كبار الصحابة، اختلف فيهم الرُواة، ولكنهم اتّفقوا جميعاً، أن أحدهم كان عبد الله ابن عمر.

■ ■ ■

وفّى لأبيه بالتزاماته كلها. غسّله وكفّنه وحمله ووقف به على الباب حتى أُذن له. دفنه مع صاحبيْه وانصرف ليتمّ ما بدأه. وكان عمر رضي الله عنه قد أوصاه وصيّة مفصلة كيف يصنع في أمر جنازته.

عن يحيى بن راشد النّصري، أن عمر بن الخطاب لما حضرته الوفاة قال لابنه:

«.. فإذا قُبضتُ فأغمضني، وأقصدوا في كفني، إن يكن لي عند الله خير، أبدلني خيراً منه. وإن كنت على غير ذلك، سلبني فأسرع سلبي. وأقصدوا في حفرتي، فإنه إن يكن لي عند الله خير، وسّع لي فيها مدَّ بصري، وإن كنت على غير ذلك، ضيّقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي. ولا تخرُجنَّ معي امرأة، ولا تزكّوني بما ليس فيَّ، فإن الله هو أعلم بي. وإذا خرجتم بي، فأسرعوا في المشي، فإنه إن يكن لي عند الله خير، قدمتموني إلى ما هو خير لي. وإن كنت على غير ذلك ألقيتُم عن رقابكم شراً تحملونه».

هذه الرواية، من بين الروايات المتضاربة، عن آخر لحظات ذلك الإنسان الفذّ، هي عندي أشبه بعمر. خائف وجلٌ من لقاء ربه إلى

آخر لحظة، وهو كما وصفه الإمام علي رضي الله عنه.

عن جعفر بن محمد عن أبيه، أن علياً لمّا غُسل عمر بن الخطاب وكُفّن وحُمل على سريره، وقف عليه وقال: «والله ما على الأرض رجل أحبُّ أن ألقى الله بصحيفته، من هذا المسجّى بالثوب».

صلى عليه صُهيْب الرومي رضي الله عنه، وكان عمر يؤثره، وقد انتدبه للصلاة بالناس حتى انتُخب الخليفة الجديد. وذكره الرواة بين نفر قالوا إن عمر تمنّى لو يستخلفهم. نراه في ذلك اليوم العصيب، صارخاً، معبراً عن الهلع الذي أصاب المسلمين. روى ابن سيرين، أن صُهيباً حين طُعن عمر، أخذ يبكي ويولول «وا عمراه! وأخاه! مَنْ لنا بعدك؟».

كيف فعل عبد الله بن عمر في ذلك اليوم؟

لا شك أنه أحسّ هوْل المصاب كسائر المسلمين. وأكثر، لأنه فقد صديقاً. كانا كأنهما أخَوان. منذ أن فقد عمر أخاه زيد بن الخطاب، في حروب الردّة صار ابنه عبد الله، أقربَ الناس إليه من أهل بيته. لكن عمر وابنه، كليهما، ما كانا يعدلان من الناس أحداً برسول الله.

إلّا أن الرواة، لا يفيدوننا شيئاً عن إحساس عبد الله في ذلك اليوم. نحسّ به صامتاً منصرفاً إلى الوفاء بالتزاماته.

كانت المفاوضات لانتخاب الخليفة الجديد، قد بدأت والخليفة الطّعين ما يزال على قيد الحياة. رووا أنهم قالوا لعمر حين حضرته الوفاة

(استخلف)، فقال «لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر، من هؤلاء النفر الذين تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راضٍ. فأيّهم أُستُخلف فهو الخليفة من بعدي». وسمّى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعداً. وقال: «إن أصابت سعداً فذاك، وإلّا فأيهم استخلف فلْيستعن به، فإني لم أعزلْه عن عجز ولا خيانة». وجعل ابنه عبد الله معهم يشاورونه وليس له من الأمر شيء. وقد تواترت الروايات أنه جعل صوته مرجحاً إذا انقسموا إلى فريقين متساويين.

وفي رواية أن عمر حين قيل له استخلف، قال «من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة ابن الجراح!» فقال له رجل «فأين أنت من عبد الله ابن عمر؟» فقال له عمر «قاتلك الله. والله ما أردت الله بهذا. أستخلفُ رجلاً ليس يُحسن أن يطلّق امرأته؟».

إن صحّت هذه الرواية، فلعل الفاروق كان يشير إلى قصته مع عبد الله، حين أمره أن يطلق امرأة له، فأبى عليه، فشكاه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولما أمره الرسول بطلاقها، طلّقها في الحال.

إنها قصة تنمّ عن طبيعة العلاقة بين عمر وابنه، وعلاقتهما بالرسول الكريم، أسلما معاً وهاجرا معاً، وجاهدا في الإسلام، كل على طريقته. لكن عبد الله، مثل أبيه، ما كان يعدل حبّه لأحد، بحبّه لله ورسوله. حين أمره الرسول، أذعن فوراً دون جدال، لأن الرسول هو المرجع الأمثل، وقوله هو القول الفصل.

وهذا، وقد رووا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال:
«أرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري قبل أن يموت بساعة. ولما جاءه قال له: يا أبا طلحة. كن في خمسين من قومك من الأنصار

مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم، فقُم على الباب بأصحابك، ولا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركْه يمضي اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم. اللهم أنت خليفتي عليهم».

هكذا نرى الفاروق رحمه اللّه، حتّى آخر رمق من حياته، لا يحيد عن المبدأ الذي سار عليه طيلة عهده. أقام حكمه على (النّخبة). المهاجرين الأولين، والذين بايعوا النبي تحت الشجرة، وأهل بدر من المهاجرين والأنصار. كذلك طبّق مبدأه الذي بيّنه للأنصار يوم السقيفة، حين قال لهم «منّا الأمراء، ومنكم الوزراء».

أخرجهم من الخلافة، لكنه جعلهم حُرّاسها والأوصياء عليها. وقد رضوا بقسمتهم، لو أن الأمور سارت كما أراد عمر.

ما كان عمر ـ وهو كما نعلم ـ ليستخلف ابنه. وكان عبد الله يدرك، وقد زاده ورعه يقيناً، أنه لا يستطيع أن ينافس أولئك النفر الأجلاّء من الصحابة.

بقي طول حياته «ليس له من الأمر شيء». وفي ذلك تكمن عظمته.

■ ■ ■

فرسا الرهان

لا يفيدنا الرُّواة إلّا قليلاً عن حقيقة موقف عبد الله بن عمر. كان محايداً بحكم وضعه، ولكنه كان يعلم كسائر الناس، أن الأمر سوف ينحصر في أحد رجلين، علي بن أبي طالب وعثمان بن

عفّان رضي الله عنهما، فهل كان يفضّل أحدهما على الآخر؟

ذكروا أن الفاروق دعا إليه علياً وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً. وكان طلحة خارج المدينة ـ لم يكلّم إلّا علياً وعثمان. قال لعلي:

«يا علي، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من الرسول صلى الله عليه وسلم، وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم. فإن ولّيت هذا الأمر، فاتّق الله فيه، ولا تحمل بني هاشم على رقاب الناس».

وقال لعثمان:
«يا عثمان ـ لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وسنّك وشرفك. فإن وَليت هذا الأمر فاتق الله فيه ولا تحملنّ بني عبد شمس على رقاب الناس».

قالوا، ولما خرجوا من عنده قال «لو ولّوها هذا الأجْلح[١] ـ يقصد علياً ـ سلك بهم الطريق».

فقال له عبد الله بن عمر «فما يمنعك يا أمير المؤمنين؟».
فقال عمر: «أكره أن أتحملها حيّاً وميّتاً».

هل نستشف من هذا ميلاً لعلي، أم أن عبد الله لم يزد على أن قال لأبيه «إذا كنت تراه أهلاً للخلافة فلمَ لا تستخلفه؟».

الله أعلم. إلّا أن الروايات تواترت من وجه آخر، أن عمر أحب أن يستخلف أبا عبيدة بن الجرّاح، وصرّح بذلك غير مرة. ومعلوم أنه لما

وقع طاعون عمواس بالشام، أراد أن يستنقذ أبا عبيدة، فكتب يستقدمه إليه.

وعرف أبو عبيدة قصده فكتب إليه:
«إني قد عرفتُ حاجتك إليَّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم. فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه. فحلّلْني من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعْني في جندي».

كان عمر يدرك ولا شك، أن صاحبه النّبيل، لن يفعل غير ما فعل، وأن الله بالغٌ أمره. لكنها حاجة في نفسه قضاها. لم يلبث أبو عبيدة أن توفي في الطاعون، وظل عمر يتحسّر عليه. وقبلاً قال حين سألوه أن يتمنى «أتمنى ملْء هذه الحجرة رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح».

هذا، وقد ذكروا أيضاً أن عمر قال وهو على فراش موته «لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به، سالم مولى أبي حُذَيْفة، وأبي عبيدة بن الجرّاح».

عجيبٌ هذا. ذاك أبو عبيدة، أمين الأمة، وقائد الجيوش، وفتى بني فِهْر بن مالك من قريش، وسيدٌ من سادات المسلمين. إنما كيف بسالم مولى أبي حُذيْفة أميراً للمؤمنين؟

كان سالم مولى لثُبيتة بنت يَعار الأنصارية، وكانت زوجة لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ـ وهو أخو هند زوج أبي سفيان ـ وكان من المسلمين الأوائل ومن مهاجرة الحبشة. وقد أعتقت ثُبيتةُ سالماً

فتبنّاه أبو حُذيْفة، وزوّجة ابنة أخيه، فاطمة بنت الوليد بن عُتبة بن ربيعة.

كان سالم سابقاً في الإسلام والهجرة. وذكروا أنه كان يؤم المهاجرين الأولين بقُباء، لأنه كان أحفظهم للقرآن، وكان فيهم عمر ابن الخطاب. وقد آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح.

كان مشهوداً له بالتقوى حتى إنهم كانوا يقولون «سالم من الصالحين». ويُذكر عنه، أنه لما تزعزع الناس يوم اليمامة في حروب الردة، قال سالم «ما هكذا كُنا نفعل مع رسول الله». ثم إنه حفر حفرة وقام فيها حاملاً راية المهاجرين، فقاتل مكانه حتى استُشهد.

هكذا نرى، أن سالماً أيضاً كان سيّداً من سادات المسلمين، لا جرم أنه مولى. أحبّه عمر لما وجد فيه من تلك الصفات، وأحبه أكثر لأنه مولى. كيف لا، وهو صاحب القولة العظيمة عن بلال «أبو بكر سيّدُنا وأعتق سيّدنا».

رحم الله الفاروق. لعله حلم أن ينْحُوَ بالحكم منحىً إسلامياً صرفاً يخرجه من البيوتات الكبيرة في قريش. إنما في قريش كذلك، رجال كانوا دعائم في صرح الإسلام، زيادةً على أنهم من بني هاشم أو بني عبد شمس.

كان علي في أول الأربعين من عمره، وكان عثمان قد تقدم في السبعين، فهل يركنون إلى علي، مع زهده وتشدده وشبابه؟ أم

يركنون إلى عثمان، مع رقّته ولينه وشيخوخته؟ وهما بعد ذلك فرسا رهان في الإسلام.

ذلك، وما كان عبد الله بن عمر بأقّل حباً من أبيه لسالم مولى أبي حُذيْفة، فسمى أحد أبنائه به. قالوا إن سالم بن عبد الله، كان أشبه ولد عبد الله به، كما كان عبد الله أشبه ولد عمر بعُمر.

■ ■ ■

ولاية عثمان

فضَّلوا الشيخوخة على الشباب، واللِّين على الحزم. ولعلهم خافوا أن يكون عهد علي امتداداً لعهد عمر في تقشُّفه وتشدّده. كيف لا، وقد كان علي بمثابة المستشار الأول للدولة في خلافة عمر، وكانت فتاواه أكثر صرامة حتى من عمر.

لزم عبد الله جانب الحياد. رووا أنه قال:
«... فقاموا يتشاورون، فدعاني عثمان مرة أو مرتين ليدخلني في الأمر. ولا والله ما أحبُّ أني كنت فيه (...) فلما أكثر عثمان عليّ قلت له (ألا تعقلون؟ أتؤمِّرون وأمير المؤمنين حي؟)».

إن صحت أقوال الرّواة، فإن السباق بدأ والخليفة الشهيد لم يدفن بعد. حدّثوا عن عكرمة بن خالد أنه قال «لما وُضع عمر ليُصلّى به أقبل عليّ وعثمان، واحدهما آخذٌ بيد الآخر. فقال عبد الرحمن بن عوف (قد أوشكتما يا بني عبد مناف) فسمعاها فقال كل واحد منهما (قُم يا أبا يحيى فصلّ عليه) فصلّى صهيب.

وفي رواية أن عبد الرحمن بن عوف قال: «إن هذا لهو الحرص على الإمارة. لقد علمتما ما هذا إليكما، وقد أُمر به غيركما. تقدم يا صهيب فصلِّ عليه».

مهما كان من الأمر، فإن عبد الرحمن بن عوف لم يلبث أن برز هو العنصر الحاسم في اختيار الخليفة الجديد. كان من المسلمين السابقين، قالوا إنه أسلم قبل أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم. وهاجر الهجرتين، وأبلى أعظم البلاء في الإسلام. وكان رجلاً؟ موسراً. ذكروا أن الرسول قال له «يا ابن عوف: إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلّا زحفاً فأقرض الله يُطلق لك قدميك». فكان يُكثر من الصدقة.

قالوا إن عيراً لعبد الرحمن بن عوف قدمت على المدينة، فكان لها رجّة. وسألت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقيل لها أنها عير عبد الرحمن بن عوف، فقالت «أما أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول (كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتى أفلت ولم يكد). ولما بلغ ذلك عبد الرحمن قال (هي وما عليها صدقة). وكانت خمسمائة راحلة بأحمالها.

وذكروا أنه حين تُوفي ترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس، وذهباً في سبائك قطعوها بالفؤوس.

كان مع ذلك محبوباً من الرسول، مقرّباً من أبي بكر وعمر. وكان له جُرأة على عمر.

لم يكن يطلب الخلافة، فأخرج نفسه منها على أن يفوضوه فيختار لهم، فقبلوا. ثم قام باستفتاء واسع بين الصحابة من المهاجرين والأنصار وعامة الناس فوجد أغلبهم يميلون إلى عثمان.

حدّثوا أنه أخذ بيد عثمان وقال له «عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنّة رسوله وسنّة صاحبيه، وشرط عمر ألاّ تجعل أحداً من بني عبد شمس على رقاب الناس». فقال عثمان «نعم». ثم أخذ بيد علي وقال له مثل ذلك وألّا يجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس فقال علي «ما لك ولهذا إذا قطعتها في عنقي» فإن عليَّ الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها، كان في بني هاشم أو غيرهم».

قالوا، ولما أبى أن يعطيه الشرط كما أراد قام عبد الرحمن إلى المسجد وجمع الناس وأعلن بيعة عثمان. وفي روايات أن الإمام علياً كان أول من بايع أو أنه كان من أول من بايعوا.

الله أعلم كيف صار الأمر، فالقصة تُروى من وجوه عدة. وما كان الإمام علي كرّم الله وجهه أن يحمل بني هاشم على رقاب الناس وما في قوله ما ينمّ على أنه سوف يفعل ذلك.

صار ذو النّورين رضي الله عنه خليفة. ووشيكاً سوف تتحقق نبوءة أبي عبيدة بن الجراح. حدّثوا أنه قال:
«ما أُحب أن لي ما تطلع عليه الشمس وأن أبقى بعد عمر». فسألوه لِمَ فقال «سترون ما أقول إن بقيتم. أما هو فإن وليَ والٍ بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يُطع له الناس بذلك ولم يحملوه. وإن ضعف عنهم قتلوه».

إنما هذا في طيّات الغيب. إنهم يومئذٍ راضون بعثمان كل الرضى.
حدّث الزهري قال «لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميراً. عمل ست سنين لا ينقمُ الناس عليه شيئاً وإنه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم».

ورووا عن الحسن البصري أنه قال:
«رأيت عثمان يخطب وأنا يومئذٍ غلام، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وِجهاً ولا أحسن نضرة منه. وسمعته يقول (أيها الناس أُغدوا على أُعطياتكم)، فيقومون ويُجاء بالحُلل فتقسّم بينهم حتى والله سمعتْ أُذناي (يا معشر المسلمين أغدوا على السمن والعسل)... ثم يقول (يا معشر المسلمين أغدوا على الطيب). فيفدون فيقسّم بينهم المسك والعنبر وغيره والعُدوان والله منفيّ والأعطيات دارّة والخير كثير. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً من لقي من كل البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره. فلم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف».

■ ■ ■

ناشر السلام

كان يمشي في طرقات المدينة، تجلّله السكينة، كأنه ضوءٌ من نجم بعيد.
مع الناس وليس معهم.

حدّث الإمام البخاري قال: «قال رجل: اللهم أبْقِ عبد الله بن عمر ما أبقيتني أقتدي به، فإني لا أعلم أحداً على الأمر الأول غيره».

كان على الأمر الأول، في حركاته وسكناته كلها، روحه موصولة بمعلّمه الأكبر.

رووا أن السيدة عائشة قالت «ما كان أحد يتّبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منازله كما كان يتّبعه عبد الله بن عمر».
وعن الأوزاعي أن عبد الله بن عمر قال:

«لقد بايعت رسول الله صلى الله وسلم، فما نكثتُ ولا بدّلتُ إلى يومي هذا، ولا بايعتُ صاحب فتنة ولا أيقظت مؤمناً من مرْقده».

وقال عبد الله بن أُويْس المدني «حدّثني أبي عن عاصم بن محمد عن أبيه قال: ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا ابتدرت عيناه تبكيان».

وحدّثوا أن عبد الله بن عمر قال:
«ما وضعت لبِنَةً ـ أي أنه لم يبن بيتاً ـ ولا غرست نخلة منذ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم».

كانت بيْعته للرسول هي البيْعة، وصُحبته هي الصحبة، وزمانه مع الرسول هو الزمان. بعد ذلك ظلَّ مرابطاً ينتظر.

عن جابر بن عبد الله أنه قال:
«ما رأينا أحداً إلّا قد مالت به الدنيا أو مال بها إلّا عبد الله بن عمر».

عاش على سفر، كما أوصاه معلّمه وقدوته. رووا أنه قال:

«أخذ رسول الله ببعض جسدي فقال:
كُنْ في الدنيا غريباً أو عابر سبيل وعُدَّ نفسك من أهل القبور».

كذلك كان. مستعداً للرحيل في أي وقت. يمشي هوْناً في الطرقات والأسواق ينشر السلام ذات اليمين وذات الشمال، حتى لكأنه يسلّم على الحجر والشجر.

حدّثوا أنه قال:
إني لأخرج إلى السوق ما لي حاجةٌ إلّا أن أُسلّم ويُسلّم علي».

وروى عبد الله بن عطاء أن عبد الله بن عمر كان لا يمر على أحد إلّا سلّم عليه. فمر بزنجي فسلّم عليه فلم يرد، فقالوا له: «يا أبا عبد الرحمن. إنه طُمطُماني». قال: «وما طمطماني؟» قالوا: «أُخرِجَ من السفن الآن». قال «إنّي ما أخرج من بيتي إلّا لأسلّم ويُسلِّم عليَّ».

وقالوا إنه سلّم على جماعة، فقيل له إنهم يهود، فقال «رُدّوا عليَّ سلامي».

وذكروا أنه مرَّ بجماعة فنسي أن يسلّم عليهم، فرجع وقال لهم: «إني سهوْت. السلام عليكم».

وحدّثوا أن ابن عمر كان يخرج ماشياً إلى قُباء كل سبت، ونعلاه في يديه، فيمرُّ بعمرو بن ثابت العُتواري، فيقول له «يا عمرو. أُغْدُ بنا». فيخرجان يمشيان معاً.

ذلك دأبه. نعلاه في يديه، وربما تحت إبْطِه، كأن تراب المدينة كله، حرم.

أراد عثمان رضي الله عنه أن يولّيه القضاء فأبى. أخبروا عن يزيد بن مؤهب أن عثمان حين عرض القضاء على عبد الله بن عمر قال له:

«لا أقضي بين اثنين ولا أؤمّ اثنين.. بلغني أن القضاة ثلاثة. رجل قضى بجهل فهو من النار. ورجل حاف ومال به الهوى، فهو من النار. ورجل اجتهد فأصاب فهو كفافٌ لا أجر له ولا وزر عليه».

فقال له عثمان:
«لكن أباك كان يقضي».

فقال:
«إن أبي كان يقضي، فإذا أشكل عليه شيء، سأل النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا أشكل على النبي سأل جبريل. وإني لا أجد من أسأل. أما سمعت النبي يقول (مَنْ عاذ بالله فقد عاذ بمَعاذ؟)».

قال عثمان «بلى».
فقال عبد الله «فإني أعوذ بالله أن تولّيتني».
فأعفاه، وقال له «لا تُخبر بهذا أحداً».
تقول، إن ذلك إفراط في الحرص.
نعم. ولكنه حرصٌ من خشية الله.
رحمه الله. كان يقول:
«خُذوا بِحظِّكم من العُزلة».

■ ■ ■

دروب متقاطعة

كان عبد الله بن عمر مع عثمان طوال أيام الحصار. كان بين نفر من الشباب الذين وقفوا مدافعين عن الخليفة، منهم الحسن والحسين، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن الزبير، وقيل أيضاً عبد الله بن عمرو ابن العاص. وكان معهم بإجماع الرواة سعيد بن العاص.

أمر عثمان عبد الله بن عباس أن يحج بالناس، فقال له «والله يا أمير المؤمنين إن قتال هؤلاء البغاة أحب إليَّ من الحج».

لكن عثمان أصرَّ عليه فمضى ولم يحضر مقتل الخليفة (يوم الدار).

كانوا قبلاً رفقاء سلاح، حاربوا كلُّهم تحت إمرة سعيد بن العاص حين غزا طبرستان، أيام كان والياً على الكوفة، في خلافة عثمان رضي الله عنه. تفرّقت السبل بعد ذلك، وكل واحد منهم كان له شأن. وبعضهم، مثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، لقيا مصارع مأساوية على أيدي بني أمية. كان مقتل عثمان، هو منطلق الصراع الدامي الذي لم ينته حتى اليوم.

هذا، وسعيد بن العاص، هو الذي عناه الرّاجز الغوغائي بقوله:

يطْلبْن حقَّ الله في الوليد
وعند عثمان وفي سعيد

وما كان الذي طلبوه يومذاك، وإلى اليوم، من الله في شيء. والوليد هو الوليد بن عقبة.

هو ابن العاص بن أميّة بن عبد شمس، ابن عبد مناف، الذي يلتقي

عنده بنو هاشم وبنو عبد شمس. نشأ يتيماً في كنف عثمان. ذكروا أن عمر تفقّد قريشاً ذات يوم، فسأل عنه، فقالوا له إنه عند معاوية في دمشق، عليل مشرف على الموت. فكتب عمر إلى معاوية أن يحمله إليه.

وفي المدينة طاب سعيد من مرضه، فقال له عمر:
«يا ابن أخي، قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازددْ يزدْك الله خيراً».

ثم سأله إن كان يريد الزواج، فقال سعيد لا. لكن عمر، في إحدى جولاته يتفقد أحوال الأعراب في البادية، نزل ماء، فوجد عليه ثلاث فتيات وأمهن، فسألهن، فقالت له الأم «هنَّ بنات سفيان بن عُوَيْف، وقد هلك رجالنا وضعْنا، فزوّجهن في أكفائهن». فزوّج عمر سعيدَ بن العاص إحداهن، وزوج عبد الرحمن بن عوف الثانية، والوليد بن عقبة الثالثة.

رحم الله عمر. ما كان يدع شاردة ولا واردة. وسوف نرى أن دروب سعيد بن العاص والوليد بن عقبة، تقاطعت أكثر من مرة.

ويقول الطبري عن سعيد «كان عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة حسنة وقُدْمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس».

كذلك نرى أن عثمان لم يكن محابياً لقرابته حين ولّاه على الكوفة عام ٣٠هـ خلفاً للوليد بن عُقبة. يومذاك غنّت إماءُ تلك المدينة القلقة دوماً:

يا ويلَنا قد عُزل الوليدُ
وجاءنا مجوعاً سعيد

ينقصُ في الصَّاع ولا يزيدُ
فجوّ الإماءُ والعبيدُ

سوف يرون ويلاً كثيراً ـ أحراراً وعبيداً ـ على أيدي الحجاج وزياد!

كان الوليد بن عقبة، والياً لعمر بن الخطاب على عرب الجزيرة، فولاه عثمان على الكوفة. أقام بها نحواً من خمس سنوات، كان خلالها حسن السيرة رفيقاً بالناس، جواداً حتى إنه قسم للإماء والعبيد، فلذلك بكاؤهم عليه. وكان موطّأ الأكناف، ليس لداره باب، وليس دونه حجاب.

عزله عثمان لأن أهل الكوفة اتّهموه زوراً بشرب الخمر، وجاء منهم رجلان يشهدان عليه. طلب عثمان إلى سعيد بن العاص أن يقيم عليه الحد، فقال سعيد:
«يا أمير المؤمنين أنشدك الله. والله إنهما لخصمان موتوران».

فقال عثمان «نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار».

سار سعيد إلى الكوفة، وانطلق منها في غزوات مظفّرة أوْغل بها شرقاً، فأخضع جرجان وسجستان وطبرستان، وأدخل في حظيرة الإسلام أمماً من الأرمن والتركمان والأفغان. وكان معه أولئك الشباب الأفذاذ من الصحابة وعترة الرسول، أحدهم بطل قصّتنا، عبد الله بن عمر. وقد مدح أحد الشعراء سعيداً بقوله:

تسوس الذي ما ساس قبلك واحد
ثمانين ألفاً دارعين وحُسّرا

رغم ذلك انقلب عليه أهل الكوفة كما انقلبوا من قبل على الوليد ابن عقبة.

■ ■ ■

امتد به العمر فأصبح قدوة للناس، ومنارة من المنارات التي يهتدون بها. كان في سمته وسلوكه وأحوال عيشه وعبادته يذكرهم بالزمان الوضيء الذي أخذ يبدو لهم بعيداً وهم بعد على مقربة منه.

ذكروا أن عبد الله بن عمر إذا رآه أحد فكأن به شيئاً من اتباعه آثار النبي صلى الله عليه وسلم.

نعم، بوسع المرء أن يتخيّل ذلك، فقد كان يعيش معهم في زمانهم بجسمه، ولكنه كان بروحه ووجدانه في زمان آخر.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«ما كان أحد يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم في منازله كما كان يتبعه ابن عمر».

حدث إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس عن آخرين قال:

«ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلّا ابتدرت عيناه تبكيان».

كان يتذكر صحبة السنوات العشر التي قضاها في رعاية معلمه الجليل، يتذكر ويبكي.

رووا عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه أنه قرأ «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» فلما وصل إلى ختام الآية إذا بعبد الله بن عمر يبكي حتى ابتلّت لحيته وقميصه من دموعه، قال عبد الله «فحدثني الذي كان إلى جنب ابن عمر، قال «لقد أردت أن أقوم إلى عُبيْد ابن عمير فأقول له أقصر عليك فإنك قد آذيت هذا الشيخ».

وكأني به وقد طافت به ذكرى ذلك الموقف، فقد حدثوا أن عبد الله بن مسعود قرأ على الرسول الكريم حتى وصل إلى تلك الآية، فإذا عينا الرسول تذرفان، فقال لابن مسعود «حسبك».

لم يكن، كما وصفه بعضهم، متشدداً، ولكنه كان حريصاً على الأثر، كما روي عن أبي جعفر محمد بن علي قال:

«لم يكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحذر إذا سمع من رسول الله شيئاً إلّا يزيد فيه ولا ينقص من عبد الله بن عمر».

وروي عن الإمام مالك أنه قال:
«قال لي أبو جعفر أمير المؤمنين كيف أخذتم قول ابن عمر بين الأقاويل؟».

فقلت له «بقي يا أمير المؤمنين وكان له فضل عند الناس ووجدنا من تقدمنا أخذ به فأخذنا به». فقال أبو جعفر «فخذ بقوله وإن خالف علياً وابن عباس».

وناهيك بالإمام علي باب مدينة العلم وابن عباس الحبر، من فقيهين.

وحدث حماد بن زيد عن يحيى ابن أبي إسحق قال: «سألت سعيد ابن المسيّب عن صوم يوم عرفة فقال: «كان ابن عمر لا يصومه» قلت: «هل غيره؟»، قال «حسبك به شيخاً».

المقصود هنا صيام يوم عرفة للحاج كي يتقوى بإفطاره على الوقوف والدعاء.

أما غير الحاج فيسن له الصيام، ورووا أن ابن عمر حين سئل عن صيام يوم الجمعة ويوم عرفة حبّذ صيامهما وقال «كنا ورسول الله نعدل صوم يوم عرفة بصوم سنة».

هذا وفي (سنن البيهقي) أن ابن عمار لم يكن يرى كراهة في تتابع الصيام ولا في صيام الدهر ما لم يخَف الصائم من ذلك ضرراً أو تفويت مصلحة. وفي (طبقات ابن سعد) أن ابن عمر لم يكن يصوم في سفر ولا يفطر في الحضر إلّا أن يمرض أو أيام يقدم «فإنه كان رجلاً كريماً يحب أن يؤكل عنده».

■ ■ ■

«رجل أبيض تعلوه حُمرة، طُوال أشيب... إنما جاءتنا الأدمة من قبل أخوالي، والخال أنزع شيء. وجاءني البُضعُ من أخوالي، فهاتان الخصلتان لم تكونا في أبي رحمه الله. كان أبي أبيض ولم يكن يتزوج النساء لشهوة إلّا لطلب الولد».

كان عبد الله طويلاً، أخذ ذلك عن أبيه، وكان آدم ـ أي شديد السُّمرة ـ أخذ ذلك عن أخواله من بني جُمح.

أُمّه زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح. وخاله الصحابي الجليل عثمانِ بن مظعون. وجاء في صفة عثمان ابن مظعون «أنه كان شديد الأُدمة، ليس بالقصير ولا بالطويل، كبير اللحية عريضها».

كان من المسلمين الأوائل، وذكروا أنه جاء الرسول صلى الله عليه وسلم، هو وعُبيْدة بن الحارث بن المطّلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجرّاح، فأسلموا جميعاً في وقت واحد، ولم يكن الرسول قد دخل دار الأرقم بعد.

ووصفوا أن آل مظعونٍ بكّروا في الهجرة رجالهم ونساؤهم ولم يبق منهم بمكة أحد حتى أُغلقت ديارهم.

هذا إذاً بيت قديم في الإسلام، فمتى أسلمت زينب زوج عمر وأم عبد الله وأخت عثمان بن مظعون؟ هل دخلت في الإسلام مع إخوتها أم انتظرت إسلام زوجها؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، محاطاً بالمسلمين في آل بيته. وأخوه زيد، وكان أحب قرابته إليه، أسلم قبله. ومن قبل كان ابن عمه زيد بن عمرو بن نفيل، من الحنفاء.

كان رجلاً فذّاً جاء قبل زمانه. أدرك النبي لكنه توفي قبل الرسالة ببضع سنوات. عرف بفطرته ضلال قريش فاعتزل أصنامها وشعائرها. ورووا أنه كان يقول:

«لا أعبد حجراً ولا أصلّي إلّا إلى هذا البيت حتى أموت».
وقالوا إنه كان يسند ظهره إلى الكعبة وينادي:
«يا معشر قريش. ما منكم اليوم أحد على دين إبراهيم غيري».
وكان يخلّص الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يئد ابنته:
«مهلاً لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها».
فيأخذها منه، حتى إذا كبرت يقول لأبيها:
«إن شئت دفعتها إليك. وإن شئت كفيتك مؤونتها».

رووا أن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم قال عنه:
«زيد بن عمرو يُبعث يوم القيامة أمّة وحده».

كذلك نرى أن إسلام عمر بن الخطاب، لعله لم يكن أمراً فجأة كما نفهم من تلك القصة الشهيرة حين وجد أخته وزوجها يقرآن القرآن.

لا بد أنه أحسّ ذلك النزوع إلى الحق الذي أحسّه ابن عمه زيد بن عمرو، ولا بد أنه رأى أن الحق قد تنزّل في مكة على الرجل القرشيّ محمد بن عبد الله، كما رأى أهل بيته.

كان عمر من أشدّ القرشيين حبّاً لقريش، مثل العباس بن عبد المطلب عم النبي. وهو مثل العباس تردد في إسلامه حرصاً على اجتماع كلمة قريش. ثم كانت تلك الحادثة مع أخته وزوجها، فاستقر عزمه على أمر كان يخامره من قبل. فذهب إلى الرسول الكريم وأسلم من توّه كأنه كان مسلماً منذ البدء.

أما عبد الله بن عمر، فإنه لم يعرف غير الإسلام. في رواية أنه

هاجر مع أبويه إلى المدينة وهو ابن ست سنوات. وفي رواية أنه كان ابن إحدى عشرة.

■ ■ ■

نرى فيما تواتر إلينا من أخبار عبد الله بن عمر، رجلاً لم يكن عازفاً عن طيبات العيش، ولكنه كان يقتصد ويمنع نفسه. كان زاهداً لكنه معتدل في زهده. وفي كل ذلك كان يتأسى بالرسول الكريم.

روى يحيى بن عمر قال:
«قلت لنافع ـ مولى ابن عمر ـ أكان ابن عمر يُصيب دقّ هذا الطعام؟ (كان ابن عمر يأكل الدجاج والفراخ والخبيص في البُرمة)».

وأخبروا عن أبي جعفر القارىء أنه قال: «خرجت مع ابن عمر من مكة إلى المدينة، وكان له جَفْنة من ثريد يجتمع عليها بنوه وأصحابه وكل من جاء حتى يأكل بعضهم واقفاً. ومعه بعير عليه مزادتان فيهما نبيذ وماء مملوءتان، فكان لكل رجل قدح من سُوَيْق بذلك النبيذ حتى يتضلّع منه شبعاً».

النبيذ هو نقع الزبيب قبل أن يتخمّر. كان يعتني بثوبه ويدهن شعره ويُحفي شاربه ويتطيب ويصبغ لحيته بالزعفران والورْس فيه المسك.

حدّث مالك بن أنس عن نافع أن عبد الله بن عمر كان لا يروح إلى الجمعة إلّا ادّهن وتطيّب. وقال ابن شهاب أن ابن عمر كان

يتطيّب للعيد. وحدّث حبيب بن أبي ثابت أنه رأى ابن عمر حلق رأسه ثم لطّخه بخَلوق. والخلوق دُهن ممزوج بالعطر.

وأخبروا عن سالم بن عبد الله بن عمر أن أباه كان يأمر بثيابه فتُجمّر (أي تُبخّر) كل جمعة وإذا أراد الخروج إلى مكة في حج أو عُمرة أمرهم ألّا يجمّروا ثيابه.

وتواترت الروايات أنه كان يحبّ النساء وعنده قُوة على الباه. فذلك قوله «جاءني البُضْع من أخوالي». والبضعُ شهوةُ النساء. وقد عدّ له ابن سعد ست نساء، بين حُرَّة وأم ولد (أي أمة). وليس كثيراً بحساب ذلك الزمان.

وذكروا أنه في شبابه أراد أن يعتزل النساء، فنصحتْه أخته حفصة أم المؤمنين أن يتزوج، وهو يشبه ما أراده خالُه عثمان بن مظعون.

حدّث ابن شهاب أن عثمان بن مظعون أراد أن يختصي ويسيح في الأرض، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم:

«أليس لك فيَّ أسوةٍ حسنة؟ فأنا آتي النساء وآكل اللحم وأصوم وأفطر. إن خصاء أُمتي الصيام، وليس من أمتي من خَصي أو اختصى».

وحكوا عن قُدامة بن مظعون أن أخاه عثمان قال للرسول صلى الله عليه وسلم:

«يا رسول الله. إني رجل تشق عليَّ العُزْبة في المغازي، فتأذن لي فأختصي».

فقال الرسول:

«لا. ولكن عليك يا ابن مظعون بالصّيام فإنه مُجْفر». وفي رواية أنه قال له «عليك بالصوم فإنه مجْفرة».

وفسّروا أن الفحل إذا جفَر فقد انقطع عن الضراب. والرجل إذا جفَر أو أجْفر، فقد انقطع عن الجماع. وقوله «تشقّ عليَّ العُزبةُ (بالعين والزاي) في المغازي، أي أنه يكون غازياً مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يستطيع الصبر عن امرأته.

رووا عن أبي بردة أنه قال:

«دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فرأيْنها سيئة الهيئة. فقلن لها «ما لَك، فما في قريش أغنى من بعلك؟» قالت «ما لنا منه شيء. أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم». فذكرْن ذلك للرسول، ولما لقيه قال له: «يا عثمان بن مظعون. أما لك بي أُسوة».

فقال «بأبي أنت وأمي وما ذاك؟». قال الرسول «تصوم النهار وتقوم الليل». قال عثمان «إني لأفعل» فقال الرسول «لا تفعل. إن لعينيك عليك حقاً وأن لجسدك عليك حقاً. فصلِّ ونَمْ وصُم وأفطر». قال فأتت زوجته نساء النبي بعد ذلك عطرة كأنها عروس، فقلن لها «تهْ» قالت «أصابنا ما أصاب الناس».

ذاك عثمان بن مظعون خال عبد الله بن عمر. كان يحب الرسول وكان الرسول يحبه، وكان أول من دفن في بقيع الفرقد من الصحابة.

أخذ عنه عبد الله بن عمر وعن بقية أخواله في بني جُمح، البُضْع، كما قال. إلاّ أن عبد الله أخذ بحظه من الدنيا دون إسراف. وزهد فيها دون رهبانية، كذلك كان يفعل معلّمه الجليل.

روى مولاه نافع أن عبد الله بن عمر كانت له جارية، فلما وجد أنه تعلّق بها تعلقاً شديداً، أعتقها وزوّجها أحد مواليه.
فولدت غلاماً. فكان ابن عمر يحمل الصبي ويقبّله ويشمّه ويقول «واهاً لريح فلانة».

■ ■ ■

كان عبد الله بن عمر رجلاً غاية في الجود، وكان جوده مما تشرّبه من روح الإسلام، ليس فيه ذلك النزوع الجاهلي إلى المدح وحسن الذكر. كان يبتغي مرضاة الله.

حدّثوا عن مولاه نافع أنه قال:
«كان عبد الله بن عمر إذا اشتدّ عجبه بشيء من ماله، قرّبه لربه. فقد رأيتُنا ذات عشية وكنا حجاجاً وراح على نجيب له قد أخذه بمال. فلما أعجبته روْحته وسرّه إناختُه نزل عنه فقال: يا نافع. أنزعوا زمامه ورحله وجللوه وأشعروه وأدخلوه في البُدْن».

وفسّروا أن إشعار البدن، هو أن يُشقّ أحد جنبي السّنام حتى يسيل الدم فتكون علامة على أنها هَدْي مهيّأة للنحر.

وعن سعيد بن أبي هلال أن عبد الله بن عمر نزل الجحفة وهو معتلّ فقال لزوجته (إني أشتهي حوتاً). فالتمسوا له فلم يجدوا غير

حوت واحد، فطبخته زوجته صفيّة، ولما وضعته له، جاء مسكين فوقف عليه. فقال له ابن عمر (خُذه). فقالت زوجته (سبحان الله. قد عنيْنا في طبخه وعندنا ما نعطي السائل غيره). فقال (إن عبد الله يُحبه).

وصفية هذه، هي بنت أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عُمير بن عوف من ثقيف. وهي أم أبنائه أبي بكر وأبي عبيدة وواقد وعبد الله وعمر وسودة، وسودة تزوجها الرجل العابد عروة بن الزبير بن العوّام.

عدّوا لابن عمر من الولد اثني عشر ذكراً وأربع إناث. وكان أحبهم إليه وأشبههم به سالم. وأُمه أمّ ولد.

قال له الإمام مالك «لم يكن أحد في زمن سالم بن عبد الله، أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والقصْد في العيش منه».

ومن أخباره أن الخليفة هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فوجد سالم ابن عبد الله بن عمر، فقال له:
«يا سالم. هل لك حاجة أقضيها لك؟».

فقال سالم «إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غير الله».
فلما خرج، تبعه هشام وقال له:
«الآن قد خرجنا فسَلْني حاجتك».

فقال سالم:
«من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة».

فقال هشام:
«بل من حوائج الدنيا».

فقال سالم:
«ما سألتُ من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها».

بعد هذا بنحو ستين عاماً، وقف رجل آخر من ذريّة عمر بن الخطاب موقفاً مماثلاً مع خليفة آخر. كان عبد الله بن عبد العزيز العمري لا يلقى هارون الرشيد في الكعبة إلّا ويعظه ويغلظ عليه حتى يبكي هارون الرشيد فيجيئون له بالمنديل بعد المنديل يجفف بها دموعه. وكان يقول: «والله إني لأحب أن أحج كل سنة ما يمنعني إلّا رجل من ولد عمر بن الخطاب يُسْمعني ما أكره».

ذكروا من أخباره أنه سافر ذات مرة إلى الرشيد ليعظه، قال الراوي:

«فلما نزل عبد الله بن عبد العزيز العمري الكوفة، زحف العسكر لمنعه من الرحيل إلى بغداد حتى لو كان نزل بهم مائة ألف من العدو ما زادوا على هيبته. فرجع ولم يصل إلى الرشيد».

سوف نرى إن شاء الله من مواقف عبد الله بن عمر مع معاوية ويزيد وعبد الملك والحجّاج.

كان رجلاً جواداً يحب أن يجتمع الناس على مائدته. رووا أنهم عاتبوا امرأته في أمره. لما رأوا عليه من هُزال. فقالت «وما أصنع به؟ لا يُصنع له طعام إلّا دعا إليه من يأكله». وقالوا إنها أرسلت إلى مساكين كانوا يجلسون بطريقه إذا خرج من المسجد، فأطعمتهم

وقالت لهم «لا تجلسوا بطريقه». وأرسلت بطعام إلى رجال كان يدعوهم إلى مائدته، وقالت لهم «إن دعاكم فلا تأتوه».

ولما جاء عبد الله إلى بيته قال: «أرسلوا إلى فلان وإلى فلان»، ولما لم يحضر أحد وعلم ما صنعت زوجته غضب وقال: «أردتم ألا أتعشى الليلة» فلم يطعم شيئاً تلك الليلة.

حدّث ميمون بن مهران عن نافع أنه جيء لابن عمر ببضعة وعشرين ألفاً، فما قام من مجلسه حتى فرّقها كلها وزاد عليها. ولم يزل يعطي حتى أنفد كل ما عنده فجاءه بعض من كان يبرُّهم فاستقرض من بعض من كان أعطاهم وأعطى أولئك.

وكان يعتق رقيقه إذا رأى من أحدهم أمراً يسره. قال نافع:

«فلقد رأيتُ بعض غلمانه ربما شمّر في العبادة ولزم المسجد، فإذا رآه على تلك الحالة أعتقه. فكان الناس يقولون له (إنهم إنما يخدعونك). فيقول (من خدعنا في الله انخدعنا له). كذلك كان يقول عمر بن الخطاب.

قال نافع:
«ما مات ابن عمر حتى كان قد أعتق ألف إنسان أو يزيد».

■ ■ ■

بقدر ما كان عبد الله بن عمر كريماً في عطائه، فقد كان كريماً في أخذه، وفي الأخذ أحياناً بعض معاني الكرم. كان يعطي كأنه يأخذ، ويأخذ كأنه يعطي. وكان شعاره في ذلك بسيطاً.

أخبروا عن نافع مولى ابن عمر قال:
«كان يُرسَلُ بالمال إلى عبد الله بن عمر، فيقبله ويقول (لا أسأل أحداً شيئاً ولا أردُّ ما رزقني الله)».

وحدّث القعقاع بن حكيم قال:
«كتب عبد العزيز بن هارون إلى ابن عمر أن ارفع إليَّ حاجتك. قال فكتب إليه عبد الله: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إبْدَأ بمن تعول واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى). وإني لا أحسب اليد العليا إلّا المُعطية والسفلى إلّا السائلة. وإني غير سائلك، ولا راد رزقاً ساقه الله إليَّ منك».

كلماتٌ آيةٌ في البلاغة وحُسن الخُلق وعزّة النفس. إنسان (أرستقراطي) بمفهوم الإسلام في النُّبل.

عبد العزيز بن هارون هذا، إذا كان يريد أن يُعطي فما الذي يمنعه؟ تأمّل قوله (ارفعْ إليَّ حاجتك). كأنه أراد أن يُهين ابن عمر أنه يضعه في موضع طالب الحاجة.

ذكر بعضهم أن عبد الله بن عمر، كان إذا أعطى أحداً، لا يناول المُعطى إليه، حتى لا تكون يدُه هي العليا، ولكنه يبسط يده فيأخذ صاحب العطاء عطاءَه، فتكون يد عبد الله بن عمر هي السفلى. بلى، كان يُعطي كأنه يأخذ.

من نعم الله عليه أن المال كان يجيئه من حيث لا يَحتسب، فقد كان رجلاً كريماً، ولم يكن موسراً. وليس أكثر مضاضة على الكريم من ضيق ذات اليد. وكما أن المال أجمل ما يكون عند الكُرماء،

فهو أقبح ما يكون في أيدي البخلاء. هؤلاء كما قال الشاعر السوداني القديم:

ديلْ حُرّاسْ رزقْ زَيْ التَّكنُّه أَمانَه
زَي إبل الرّحيل شايْلَه السُّقَى وعطشانَة.

وما أجمل قوله (حُرَّاس رزق)، كأنهم ديدبانات يقفون أمام خزائن مُغْلقة لا يفتحها إلّا الموت. و(الرزق) هنا هو المال و(التّكنّ) أي كأن.

وقد قال أصدق القائلين في سورة القصص في وصف قارون: ﴿وآتيناه من الكنوز ما أن مفاتحَه لتنوءُ بالعُصْبة أولي القُوّة﴾.

إنني أتخيّل أن قارون كان يحمل مفاتيح خزائنه على ظهره، كالعيس التي تحمل الماء في البيداء، فيكون الله سبحانه وتعالى قد جعل ماله عبئاً ثقيلاً عليه، وزاده رهَقاً على رهق.

عبد الله بن عمر كان بخلاف ذلك، كأنه ملتقى طرق تنزل فيها قوافل الرحمة. يجيئُه المال من كل صوب، فيُعطيه المحتاج والمُعتر وابن السبيل. يأخذ بيد ويُعطي بيد. ويده هي العليا في الأخذ، لأن أخذه ليس فيه مذلة السؤال. وهي السُّفلى في العطاء، لأن عطاءه ليس فيه معنى الاستعلاء.

حدّث ميمون بن مهران أن ابناً لعبد الله بن عمر قال لأبيه إن إزاره قد بلي وتخرّق وطلب منه إزاراً جديداً. فقال له «ارقع إزارك»، ثم كساه بعد، فلم يعجب ابنه الإزار. فقال له عبدالله:

«ويْحك اتّق الله. ولا تكوننّ من القوم الذين يجعلون ما رزقهم الله عزَّ وجل، في بطونهم وعلى ظهورهم».

وعن نافع أن معاوية بعث إلى ابن عمر بمائة ألف، فما حال الحول وعنده منها شيء.

وعنه أن ابن عمر كان لا يُعجبه شيء من ماله إلّا تصدّق به. وقال:

«ربما تصدّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً. وأعطاه ابن عامر مرتين ثلاثين ألفاً. فقال (يا نافع. إني أخاف أن تفتِنَني دراهم ابن عامر. اذهب فأنت حُر)».

وتُروى قصة عتق نافع من وجه آخر. روى عاصم بن محمد عن أبيه قال:
«أُعْطيَ ابن عمر بنافع ألفَ دينار، فقلتُ له (يا أبا عبد الرحمن. فما تنتظر أن تبيع؟) قال: (فهلاّ ما هو خير من ذلك؟ إنه حرٌّ لوجه الله عزَّ وجل)».

■ ■ ■

من ذُرِّية عبد الله بن عمر رحمه الله، عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفّان رضي الله عنه. أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. كان من أماجد فتيان قريش، وكانوا يلقّبونه بـ (المطرَف) لشدة وسامته. تزوج فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، فولدت له محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الذي أسموه (الديباج) لشدة وسامته أيضاً.

ذكروا أن عبد الله بن عمرو بن عثمان كتب إلى الخليفة عبد الملك ابن مروان يقول:

«أما بعد، فإنك تعلم بلاء أمير المؤمنين عثمان عندكم في رفع أقداركم وإحسانه إليكم. وإن مروان أوصى بقضاء دين عمرو بن عثمان، فإن تفعلْ فأهلُ ذلك نحن، وإن لم تفعل فسيُغني الله عنك والسلام».

فرد عليه عبد الملك بن مروان:

«أما بعد، فإن عمرو بن سعيد كان أقرب رحماً بي منك. وإنه لمّا أخطأ قدمه، فرَّقتُ بين رأسه وجسده. ولقد هممتُ أن ألحقك به».

فرد عليه عبد الله بن عمرو:
«إن تفعل فإني لـمُعرقٌ في الشهادة، فأنا ابن أميريْ المؤمنين عمر وعثمان».

تلك الجذوة العُمرية لا تخبو أبداً.

هذا، وعمرو بن سعيد الذي أشار إليه عبد الملك، هو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أميّة. وأبوه سعيد بن العاص، هو الذي ذكرنا من أمر توليه الكوفة على عهد عثمان، وفتحه طبرستان وغيرها من بلاد ما وراء النهر. وهو الذي ذكره الراجز الغوغائي من الذين تسوروا الدار على الخليفة الشيخ رحمه الله بقوله:

يطُلْبن حقَّ الله في الوليد
وعند عثمان وفي سعيد

وكان مروان بن الحكم، بعد أن وثب على الملك إثر انتصاره في موقعة (مرج راهط) قد أوصى أن يكون عمرو بن سعيد خليفة بعد عبد الملك، لكن عبد الملك لم يلبث أن قتله، وقالوا إن ذلك أوّل غدر في الإسلام. وفي ذلك قال بعضهم:

يا قومُ لا تُغلَبوا عن رأيكم فلقد
جرّبتم الغدر من أبناء مروانا
أمسوْا وقد قتلوا عمرواً وما رشدوا
لكي يولّوا أمورَ النّاس ولدانا

رووا أن عبد الملك بن مروان، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير بن العوّام عام خمسة وسبعين، خطب الناس بالمدينة فقال:

«أما بعد، فإني لستُ بالخليفة المُستضْعف (يعني عثمان)، ولا الخليفة المُداهن (يعني معاوية)، ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد). إلّا وإن مَنْ كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويُطعمون من هذه الأموال. ألا وإني لا أداوي أدواءَ هذه الأمة إلّا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. تكلّفونا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم! فلن تزدادوا إلّا عقوبة حتى يحكم بالسيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد، قرابتُه قرابتُه، وموضعه موضعُه، قال برأسه هكذا، فقلنا بأسيافنا هكذا.

ألا وإنّا نحمل (نحتمل) لكم كل شيء، إلّا وثوباً على أمير أو نَصْب راية. ألا وإن الجامعة (الأغلال) التي جعلتها في عنق عمرو ابن سعيد، عندي. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلّا ضربتُ عنُقه».

هذه الخطبة النَكباء، لا تكاد تُصدق، لولا أنها تواترت لدى عدد من المؤرخين الثقات، مما يرجِّح صحة روايتها. وما أقدم عليه عبد الملك قبل وبعد، يؤكد على الأقل صحة النوايا التي انطوت عليها. حديثه عن (تقوى الله) يؤكّده ما رُوي عن الحجاج أنه كان يقول (انظروا إلى هذا! إنه يأمرنا بتقوى الله)، وما كان الحجاج لعبد الملك بن مروان إلّا كما كان (آيْخمان) لهتلر!

إنه مذهبٌ بائسٌ في الحكم، هو على النقيض تماماً من مذهب الرجل العملاق حقاً، أبي عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب.

حدّثوا عن خالد بن سُميْر قال:
«قيل لابن عمر (لو أقمتَ للناس أمرهم فإن الناسَ كلهم قد رضوا بك). فقال (أرأيتم، إن خالف رجل بالمشرق؟) قالوا (إنْ خالف رجل قتل، وما قَتْلُ رجلٍ في صلاح الأمة؟).

فقال:
«والله ما أُحبُّ لو أن أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم، أخذت بقائمة رُمح، وأخذتُ بزُجِّه[٢]، فقُتل رجل واحد من المسلمين ولي الدنيا وما فيها».

■ ■ ■

كان عبد الله بن عمر، لا يرى الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل شيئاً إلّا ويفعله، ولا يراه يسلك طريقاً إلّا ويسلكه. قال موسى بن طلحة:

«يرحم الله عبد الله بن عمر. والله إني لأحسبه على عهد رسول

الله صلى الله عليه وسلم الذي عهده إليه لم يُفتَن بعده ولم يتغير».

موسى بن طلحة، هو ابن الصحابي السابق طلحة بن عبيد الله. وصفوه بأنه كان من الصالحين في زمانه، وكان من أهل العلم والورع ورواية الحديث. سكن الكوفة ثم رحل عنها حين غلب عليها المختار بن أبي عبيد الثقفي.

وقصة المختار ملحمة طويلة، لا يتّسع لها المجال الآن. إنما لا بد من الإشارة إلى أنه كان من الفرسان المعدودين. ثار على الأمويين بعد مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه، وغلب على الكوفة والموصل، وتتبع قتلة الإمام الحسين، فقتل شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين، وخوليَّ بن يزيد الذي حمل الرأس الشريف إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقّاس أمير الجيش، وعبيد الله بن زياد عامل الخليفة الأموي.

يجمع المختار بعبد الله بن عمر، أن عبد الله بن عمر كان متزوجاً من أخته، وهي صفية بنت أبي عُبيد. وذكر بعضهم أن المختار كان يرسل المال إلى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، ومحمد بن علي بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية، فيقبلونها، وقال آخرون أن ابن عمر كان يقبل المال من حيث جاء إلّا من المختار.

هذا، وقد أورد البخاري رحمه الله في صحيحه، في معرض حديثه عن تقفّي ابن عمر لأثر الرسول الكريم، عن عُبيد بن جريج أنه قال لعبد الله بن عمر:

«يا أبا عبد الرحمن، رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها».

قال «وما هي يا ابن جُريْج؟».

قال «رأيتك لا تمس من الأركان إلّا اليمانييْن. ورأيتك تلبس النعال السِّبْتية. ورأيتك تصبغ بالصفرة. ورأيتك إذا كنت بمكة أهلّ الناس إذا رأوا الهلال ولم تهلّ أنت حتى كان يوم التَّرْوية».

قال عبد الله بن عمر:
«أمّا الأركان فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسُّ إلّااليمانيَّين. وأما النعال السِّبْتية فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلبس النّعل التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة فإني رأيت رسول الله وسلم يصبغ بها فأنا أحب أن أصبغ بها. وأما الإهْلال فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُهلّ حتى تنبعث راحلته».

هذا، وفسّروا أن النعال السِّبْتيّة (بالتشديد على السين مع الكسر) هي أخفاف لينة كانت تصنع في عُمان من جلد البقر المدبوغ بالقَرَظ.

و(القرظ) ثمر شجر السّيال والسُّنْط والسّدر وما شاكلها. وفي السودان ينطقونها (قرض) وهو عندهم من شجر السنط خاصة.

ومن أمثال العرب (لا يصير هذا الأمر حتى يعود القارظان)، أي أنه لن يصير. وقالوا إن القارظين رجلان من عَنزة خرجا يجمعان القرظ فلم يعودا. وفي ذلك قال الشاعر:

وحتَّى يؤوبَ القارظان كلاهما
ويُنشر في القتلى كليْبٌ لوائلِ

قال الزّهري «كأنها سُميت سبْتية لأن شعرها قد سُبتَ عنها أي

حُلق بعلاج من الدبّاغ». وقال ابن الأعرابي «سميت النعال المدبوغة سبْتية لأنها انسْبتت بالدباغ، أي لانت».

هذا، وقد جاء ذكر الأخفاف السبتية في بيت أبي الطيب الذي أوقد الجدل، يصف شرب الإبل:

إذا مـا استـحـيْن الماءَ يـعـرضُ نـفـسَـه
شـربْـن بـسـبْـتٍ فـي إنـاءٍ مـن الـورد

شبّه أشفار الإبل لدقّتها ونعومتها بالإخفاف السّبتية. وللبيت وجه آخر، ارتآه العروضي الفقيه، هو الأرجح عندي.

هذا، ويورد البخاري رحمه الله، قصة توضح حرص عبد الله بن عمر على اقتفاء أثر الرسول الكريم، قال حدثنا أبو نعيم قال حدّثنا سيف سمعت مجاهداً يقول:

«أُتي ابن عمر رضي الله عنهما في منزله، فقيل له، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل الكعبة. قال (ابن عمر) فأقبلتُ فأجد رسول الله قد خرج، وأجد بلالاً، عند الباب قائماً. فقلت، يا بلال، هل صلّى رسول الله في الكعبة؟ قال نعم. قلت فأين؟ قال بين هاتين الأسطوانتين، ثم خرج فصلى ركعتين في وجه الكعبة».

ذاك أبو عبد الرحمن في لهفته على تتبُّع مواطىء معلّمه الأسمى. كان متصوفاً في حُبه، كما وصف الشهرزوري في مقام آخر:

ومـعـنـي صـاحـبٌ جـاء يـقـتـفـي الـ
آثـارَ والحبُّ شـأنُـه الـتَّـطْـفـيـلُ

■ ■ ■

من أجمل ما عثرت عليه من أخبار تتبع عبد الله بن عمر لآثار الرسول صلى الله عليه وسلم، ما أورده الإمام البخاري في صحيحه قال:

«حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا أنس بن عياض. قال حدثنا موسى بن عقبة عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله صلى الله وسلم كان ينزل بذي الحُليْفة حين يعتمر، وفي حجته حين حج تحت سمُرة في موضع المسجد الذي بذي الحُليفة. وكان إذا رجع من غزو كان في تلك الطريق أو حج أو عُمرة هبط من بطن واد، فإذا ظهر من بطن واد أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية، فعرّس ثم حتى يُصبح، ليس عند المسجد الذي بحجارة ولا على الأكمة التي عليها المسجد.

كان ثمَّ خليجُ يصلي عبد الله عنده، في بطنه كُثُبٌ. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يصلي. فدحا السيلُ فيه بالبطحاء حتى دَفن ذلك المكان الذي كان عبد الله يصلّي فيه، وإن عبد الله حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلّم صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي بشرف الرَّوْحاء. وكان عبد الله يَعلُم (يضع علامة) المكان الذي صلّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم، يقول ثم عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلي. وذلك المسجد على حافة الطريق اليُمنى وأنت ذاهب إلى مكة، بينه وبين المسجد الأكبر رمية حجر أو نحو ذلك.

وكان ابن عمر يصلي إلى العرْق[٣] الذي عند مُنصرف الرّوحاء، وذلك العَرقِ انتهاء طرَفه على حافّة الطريق دون المسجد الذي بينه وبين المُنصرف وأنت ذاهب إلى مكة. وقد ابتُني ثم مسجدٌ، فلم

يكن عبد الله بن عمر يصلّي في ذلك المسجد. كان يتركه عن يساره ووراءَه، ويصلي أمامه إلى العرق نفسه.

وكان عبد الله يروح من الرَّوْحاء، فلا يصلي الظهر، حتى يأتي ذلك المكان فيصلي فيه الظهر. وإذا أقبل من مكة إن مرّ به قبل الصبح بساعة أو من آخر السحر، عرّس[٤] حتى يصلّي به الصبح.

(وقال نافع) إن عبد الله حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل تحت سَرْحة[٥] ضخمة دون الرُّوَيْثة عن يمين الطريق ووُجاة الطريق في مكان بطح سهل حتى يُفضي من أكمة دُوَيْن بريد الرُّويْثة بميلين، وقد انكسر أعلاها فأنثنى في جوفها وهي قائمة على ساق، وفي ساقها كثبٌ كثيرة. وأن عبد الله بن عمر حدّثه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى في طَرَف تَلعة من وراء العَرْج[٦] وأنت ذاهب إلى هضبة.

عند ذلك المسجد قبْران أو ثلاثة. على القبور رَضْمٌ[٧] من حجارة عن يمين الطريق، عند سلمات الطريق، بين أولئك السّلمات، كان عبد الله يروح من العَرْج بعد أن تميلَ الشمس بالهاجرة، فيصلي الظهر في ذلك المسجد.

(وقال نافع) إن عبد الله حدّثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزل عند سرحات عن يسار الطريق في مسيل دون هَرْشي. ذلك المسيل لاصقٌ بكُراع[٨] هَرْشي، بينه وبين الطريق قريب من غلْوة. وكان عبد الله يصلّي إلى سَرْحة هي أقرب السّرحات إلى الطريق، وهي أطْولهُنّ.

حمله على التطرف والجنون، ويمكن للعقل أن يفهمه، وللخيال أن يحيط به.

العملان اللذان لم يستطع الخيال أن يحيط بهما إلى يومنا هذا، هما مصرع الخليفة عثمان ذي النورين، ومصرع الحسين بن علي، سبط الرسول الكريم. شهد عبد الله الهول الأول، وعاصر الهول الثاني. ولا بد أنهما رجّا شعوره رجّاً، وكان لهما أثر في موقفه من (الفتنة). وهو موقف أثار حيرة بعض الناس. بل هو نفسه تساءل وهو على فراش موته هل كان يجب عليه أن يفعل أكثر مما فعل.

روى ابن سعد وآخرون، أن ابن عمر لبس درعه مرتين يوم الدار. كان مع النفر الذين رابطوا مع الخليفة المحاصر، فيهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزّبير ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم والصحابي الجليل أبو هريرة.

وحدّث الطبري في تاريخه عن جماعة عن أبي حفص قال:
«لما كان يوم الخميس (١٧ من ذي الحجة عام ٣٦) دلّيت حجراً فوق الدار فقتلت رجلاً من أَسْلم يُقال له نيار. فأرسلوا إلى عثمان أن أَمْكنّا من قاتله. قال (والله ما أعرف له قاتلاً). فباتوا يتحرّفون علينا ليلة الجمعة بمثل النيران. فلما أصبحوا غدوْا فأول من طلع علينا كنانة بن عتّاب في يده شعلة من نار على ظهر سطوحنا، قد فُتح له من دار آل حزم. ثم دخلت الشُّعَل على إثره تنْضح بالنّفط. فقاتلناهم ساعة على الخشب، فأسمعُ عثمان يقول لأصحابه (ما بعد الحريق شيء. قد احترق الخشب واحترقت الأبواب. ومن كانت لي عليه طاعة فليمسك داره، فإنما يريدني القوم، وسيندمون على قتلي. والله لو تركوني لظننت أني لا أحب الحياة. لقد تغيّرتْ حالي

حمله على التطرف والجنون، ويمكن للعقل أن يفهمه، وللخيال أن يحيط به.

العملان اللذان لم يستطع الخيال أن يحيط بهما إلى يومنا هذا، هما مصرع الخليفة عثمان ذي النورين، ومصرع الحسين بن علي، سبط الرسول الكريم. شهد عبد الله الهول الأول، وعاصر الهول الثاني. ولا بد أنهما رجّا شعوره رجّاً، وكان لهما أثر في موقفه من (الفتنة). وهو موقف أثار حيرة بعض الناس. بل هو نفسه تساءل وهو على فراش موته هل كان يجب عليه أن يفعل أكثر مما فعل.

روى ابن سعد وآخرون، أن ابن عمر لبس درعه مرتين يوم الدار. كان مع النفر الذين رابطوا مع الخليفة المحاصر، فيهم الحسن والحسين وعبد الله بن الزّبير ومحمد بن طلحة وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم والصحابي الجليل أبو هريرة.

وحدّث الطبري في تاريخه عن جماعة عن أبي حفص قال:
«لما كان يوم الخميس (١٧ من ذي الحجة عام ٣٦) دلّيت حجراً فوق الدار فقتلت رجلاً من أَسْلم يُقال له نيار. فأرسلوا إلى عثمان أن أَمْكنّا من قاتله. قال (والله ما أعرف له قاتلاً). فباتوا يتحرّفون علينا ليلة الجمعة بمثل النيران. فلما أصبحوا غدوْا فأول من طلع علينا كنانة بن عتّاب في يده شعلة من نار على ظهر سطوحنا، قد فُتح له من دار آل حزم. ثم دخلت الشُّعَل على إثره تنْضح بالنّفط. فقاتلناهم ساعة على الخشب، فأسمعُ عثمان يقول لأصحابه (ما بعد الحريق شيء. قد احترق الخشب واحترقت الأبواب. ومن كانت لي عليه طاعة فليمسك داره، فإنما يريدني القوم، وسيندمون على قتلي. والله لو تركوني لظننت أني لا أحب الحياة. لقد تغيّرتْ حالي

وسقطت أسناني ورقّ عظمي..)».

في نهار الخميس أو نهار الجمعة أشرف عثمان رضي الله عنه على الرعاع، الذين قدموا من مصر والعراق والشام وحاصروا الدار، وقال لهم من حديث طويل:
«... فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفعه الله عزَّ وجل عنكم إلى يوم القيامة. وإنكم إن قتلتموني لم تُصلّوا بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً..».

وذكروا أن عبد الله بن سلام، الصحابي، قام على باب دار الخليفة عثمان، يريد أن يفرّق الناس عنها وقال:
«يا قوم! لا تسُلّوا سيف الله عليكم، فوالله أن سللتموه لا تغمدوه أبداً. ويلكم! إن سلطانكم اليوم يقوم على الدرّة، فإن قتلتم الخليفة، لا يقوم إلّا بالسيف. ويلكم! إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله. والله لئن قتلتموه لتتركنّها».

ظلوا يموجون حول الدار، لا يجرؤون على اتخاذ الخطوة الأخيرة الرهيبة، يحول بينهم ذلك الحاجز الغامض من الرهبة والمهابة. إن اجتازوه فلن يصُدَّهم بعد ذلك شيء.

قال الطبري:
«.. ودخلوا عليه فمنهم من يُجؤُه بنعل سيفه، وآخر يلكزه. وجاء رجلٌ بمشاقص معه فوجأه في ترقُوته فسال الدم على المصحف.. وهم في ذلك يهابون قتله.. وكان كبيراً وغُشي عليه. ودخل آخرون، فلما رأوه مغشياً عليه جروه برجله فصاحت نائلة (ابنة

الفُرافصة زوجته) وصاحت بناته. وجاء النُجيبي مخترطاً سيفه ليضعه في بطنه، فوقتْه نائلة فقطع يدها، واتّكأ بالسيف عليه في صدره. وقُتل عثمان رضي الله عنه قبل غروب الشمس (من يوم الجمعة). ونادى مناد ما يحلّ دمه ويُحرم ماله، فانتهبوا كل شيء..».

وفي روايات، أن الذين دخلوا على عثمان رحمه الله، كانوا محمد ابن أبي بكر وكنانة بن بشر بن عتّاب وسوْدان ابن حُمران وعمرو ابن الحمق، وأن الذي طعنه ابن بشر وأن عمرو بن الحمق وثب على عثمان وجلس على صدره، وكان به رمق، فطعنه تسع طعنات. واختلفوا هل حضر محمد بن أبي بكر القتل أم أنه خرج.

وحكي ابن سعد عن مولى ابن عبّاس المخزومي قال:
«.. وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين خذلوه (أي عثمان) قد كرهوا الفتنة وظنّوا أن الأمر لا يبلغ قتله. فندموا على ما صنعوا في أمره. ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين».

بعد نحو من خمسة وعشرين عاماً من مصرع عثمان رضي الله عنه، سوف يكون عبد الله بن عمر حيّاً شاهداً ـ عن بُعد ـ على الهول الأكبر، مصرع الحسين عليه السلام. وكان قتلهم عثمان هو الذي جرّأهم على قتل سبط النبي.

وكأن الرّعاع الذين منعوا الماء عن عثمان بالمدينة هم أنفسهم الذين أظمأوا الحسين بكربلاء.

■ ■ ■

ما الذي جعل ابن أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله وصفيه، ينخرط مع أولئك الغوغاء، فيكون شريكاً في إثم مقتل عثمان، إن لم يكن بالفعل فبشبهة القصد والمشاركة؟

في رواية للطبري أنه ساهم في القتل. قال:
«... عن عبد الرحمن بن محمد، أن محمد بن أبي بكر تسوّر على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتّاب وسوْدان بن حمران وعمرو بن الحَمق، فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف في سورة البقرة. فتقدمهم محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحية عثمان وقال له:

«أخزاك الله يا نَعْثَلْ»[٩].
فقال عثمان:
«لستُ بنعثل ولكني عبد الله وأمير المؤمنين».

قال محمد:
«ما أغنى عنك ومعاوية وفلان وفلان».

فقال عثمان:
«يا ابن أخي، دع عنك لحيتي، فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه».

فقال محمد:
«لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك. وما أُريد بك، أشدُّ من قبضتي على لحيتك».

قال عثمان:
«أستنصر الله عليك وأستعين به».

ثم إن محمداً بن أبي بكر طعن جبينَه بمشْقَص[١٠] في يده، ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه ثم علاه بالسيف حتى قتله...».

وعند ابن قُتيبة في كتابه «الإمامة والسياسة» بخلاف ذلك، قال:
«... ثم جاء علي إلى امرأة عثمان فسألها مَن قتل عثمان، قالت: لا أدري. دخل عليه رجال لا أعرفهم إلّا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر. فدعا علي محمداً فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال محمد (صدقت. قد والله دخلتُ عليه، فذكر لي أبي، فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى. والله ما قتلته ولا أمسكتُه).

قالت (صدق. ولكنه هو أدخلهم)».
رووا أن عبد الله بن عمر قال بعد مصرع عثمان: «إنا والله ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حق، ولا جاء من الكبائر شيئاً. ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم، وإن أعطاه قرابته سخطتم. إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون لهم أميراً إلّا قتلوه».

في الهوْل الآخر ـ مصرع الإمام الحسين رضوان الله عليه ـ كان قائد الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد هو عمر بن سعد، ابن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، بطل القادسية وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وهيهات أن يشفع له أنه ذهب على مضض كما روى الطبري:

«... وكان سبب خروج ابن سعد إلى الحسين عليه السلام، أن عبيد الله بن زياد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة يسير بهم إلى دَسْتبَى. وكانت الدّيلم قد خروا إليها وغلبوا عليها. فكتب إليه ابن زياد عهدَه على الرّي وأمره بالخروج، فخرج معسكراً بالناس بحمام أعين.

فلما كان من أمر الحسين ما كان وأقبل إلى الكوفة، دعا ابن زياد عمرَ بن سعد وقال: سرْ إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرْتَ إلى عمَلك.

فقال له ابن سعد: إن رأيْتَ رحمك الله أن تُعفيَني فافعلْ.
فقال له ابن زياد: نعم، على أن تَرُدّ لنا عهدنا.
فقال عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتى أنظر.

فانصرف عمر يستشير نصحاءه، فلم يكن يستشير أحداً إلّا نهاه عن الخروج إلى الحسين. وجاء حمزة بن المغيرة بن شُعبة وهو ابن أخته فقال له:

«أنشدك الله يا خال أن لا تسير إلى الحسين، فتأثم بربك وتقطع رحمك. فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها، لكان خيراً لك من أن تلقى الله بدم الحسين».

قال عمر: فإني أفعل إن شاء الله.

لكنه لم يفعل. مضى متردداً في خطة عبيد الله بن زياد، حتى باء بالإثم الفادح، وكأنه شريك في القتل.

فيما بعد، حين أُحيط بسيّد الشهداء، نرى عمر بن سعد في موقف ما أبأسه من موقف. روى الطبري عن رجل يُدعى عبد الله بن عمار البارقي، يصف قتال الإمام الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة، قال:

«... فشد عليه رجّالةٌ عن يمينه وشماله، فحمل على مَنْ عن يمينه حتى ابْذَعرّوا، وعلى من عن شماله حتى ابذعرّوا، وعليه قميص من خزّ، وهو مُعْتَمّ، فوالله ما رأيت مكسوراً قط قد قتل ولدُه وأهل بيته وأصحابه، أربطَ جأشاً ولا أمضى جناناً منه. ولا أجرأ مَقْدَما. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثلَه. إن كانت الرجّالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المَعزَى إذا شدّ عليها الذئب.

والله إنه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة أختُه، وكأني أنظر إلى قُرطها يجول بين أذنيها وعاتقها، وهي تقول (ليت السماء تنطبق على الأرض)، وقد دنا عمر بن سعد من الحسين. فقالت له (يا عمر بن سعد. أيُقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟»)، فكأني أنظر إلى دموع عمر وهي تسيل على خدّيْه ولحيته وصرَف بوجهه عنها».

ما كان أحراه أن يصنع كما صنع الحرُّ بن يزيد!
قال ابن سيرين، كما روى السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء):

«لم تُفقَد الخيلُ البُلْقُ في المغازي والجيوش حتى قُتل عثمان. ولم يُختَلَفْ في الأهلّة حتى قتل عثمان. ولم تُرَ هذه الحمرةُ التي في آفاق السماء حتى قُتل الحسين».

■ ■ ■

روى أكثر من واحد، أن عبد الله بن عمر لم يكن في المدينة، حين خرج الحسين عنها يريد الكوفة استجابة للرسائل المتلاحقة التي وصلته من أهلها، يحثّونَه على المسير إليهم، ويعدونه بالنصر والتأييد. فخرج عبد الله في أثره، حتى لقيه على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة. فكان من بعض ما قال له:

«أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فخيّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يُرد الدنيا. وأنك بضعةٌ من رسول الله، والله ما يليها أحد منكم أبداً. وما صرفها الله عنك إلّا للذي هو خير لكم».

قالوا، ولما أبى الحسين أن يرجع، اعتنقه ابن عمر وبكى وقال له «أستودعك الله من قتيل».

هذا، وقد ذكر السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» عن ابن عبد البر، أن الحسن بن علي وهو على فراش موته، قال لأخيه الحسين، رضوان الله عليهم:

«يا أخي. إن أباك استَشْرف لهذا الأمر، فصرفه الله عنه ووليَها أبو بكر. ثم استشرف لها وصُرفت عنه إلى عمر. ثم لم يَشُمَّ وقت الشورى أنها لا تعدوه، فصُرفت عنه إلى عثمان. فلما قُتل عثمان بويع علي، ثم نُوزع حتى جرّد السيف، فما صَفَتْ له. وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة...».

ويروي السيوطي أن جماعة من الصحابة حاولوا أن يثنوا الحسين عن عزمه، منهم جابر بن عبد الله وأبو سعيد وأبو واقد الليثي فلم

يُطع أحداً منهم وصمم على المسير إلى العراق، وأن عبد الله بن عباس قال له:

«والله إني لأظنُّك ستُقتل بين نسائك وبناتك كما قُتل عثمان».

فلم يسمع منه، فبكى ابن عباس، وقال له:
«أقررْت عين ابن الزبير».

كان عبد الله بن الزبير من القلائل الذين شجعوا الحسين على المسير إلى العراق، وقد رأى بعضهم في ذلك، أنه أراد أن يخلو له الجو في الحجاز.

كانوا يجدون أكثر من وجه شبه بين مصرع عثمان ومصرع الحسين. روى ابن جرير الطبري في «تاريخه»:

«... ثم أقبل الحسين سيراً إلى الكوفة، فانتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مُطيع العدوي، فلما رأى الحسين قام إليه وقال له:
«بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أقْدمك؟».

فأخبره ما كان من كتُب أهل العراق إليه وحثّهم إياه على المسير إليهم. فقال ابن مطيع:

أُذكرك الله يا ابن رسول الله وحُرمة الإسلام ـ أن تُنْتَهَك. أنشدك الله في حرمة العرب. فوالله لئن طلبتَ ما في أيدي بني أُمية ليقتُلُنّك. ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً. والله إنها لحرمة

الإسلام تُنْتَهك، وحرمة قريش، وحرمة العرب. فلا تفعلْ ولا تأت الكوفة، ولا تعرَّض لبني أمية».

كان لا بد أن تمضي المأساة إلى نهايتها المفجعة، لقدر قدره الله. وهذه الكلمات البليغة تكشف جوهر القضية. ذلك الستار الغامض من القداسة والحُرمة، (حرمة الإسلام)، إن مزّقوه، فلن يصدّهم بعده شيء. ونذكر هنا كلمات عثمان منذ خمسة وعشرين عاماً في الدهماء الذين حاصروه في المدينة:

«... فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفعه الله عزَّ وجل عنكم إلى يوم القيامة. وإنكم إن قتلتموني لم تُصلّوا بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً».

هذا ما كان يخشاه عبد الله بن عمر، الحافظ للعهد الأول، السائر على الأثر. إنما هيهات. كان إذا ذكر الحسين تدمع عيناه، ويقول:

«غَلَبنا الحسين بالخروج. ولعمري لقد كان له في أبيه وأخيه عبرة».

وها هو ذا أبو عبد الله الحسين، ابن الإمام علي بن أبي طالب، ابن فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد حصرته جيوش يزيد بن معاوية في كربلاء، يحرّكها من الكوفة عبيد الله بن زياد بن أبيه. كان يقاتل وحيداً، بعد أن استشهد أنصاره وأبناؤه وآل بيته.

روى الطبري عن أبي مخنف عن الصّقعب بن زهير عن حميد بن

مسلم قال:

«... كانت عليه جُبّة من خزّ وكان مُعْتَمّاً، وكان مخضوباً بالوسمة، وسمعته يقول قبل أن يُقتل وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع، يتّقي الرمية، ويفترضُ العورة، ويشدُّ على الخيل وهو يقول:

«أعلى قتلي تَحاثّون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسْخطُ عليكم لقتله مني. وأيم الله، إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله إن لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

قال الراوي:

«ولقد مكث طويلاً من النهار، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتّقي بعضهم ببعض، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء. فنادى شمير في الناس (ويحكم ماذا تنظرون بالرجل؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحُمل عليه من كل جانب، فضُربت كفه اليسرى ضربة ضربها زرعه بن شريك التميمي. وضُرب على عاتقه.

ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو. وحَمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النَخْعي، فطعنه بالرمح فوقع. ثم قال لخوْليّ بن يزيد الأصبحي (احتز رأسه) فأراد أن يفعل فضعُف وأصابته رعدة. فقال له سنان بن أنس (فَتّ الله عضُديك وأبان يَديك) فنزل إليه فذبحه واحتزَّ رأسه ثم دفع بها إلى خوْلي بن يزيد...».

هذا، وحين وصل جلال الدين السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) إلى مقتل الحسين عليه السلام، قال:

«وكان قتله بكربلاء، وفي قتله قصةٌ فيها طول لا يحتمل القلب ذكرها، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون».

■ ■ ■

جوهر المأساة واحد في الحالتين، مع الفارق في طبيعة كل منهما وملابساتها. حين قتلوا عثمان أحدثوا خرْقاً واسعاً في ثوب الإسلام. وحين قتلوا الحسين مزّقوا الثوب تمزيقاً.

ولا يغرّنّك بعض مؤرخي زماننا هذا، ممن يصورون مقتل ذي النورين على أنه كان نتيجة ثورة مشروعة ضد الظلم، والذين يبررون مقتل سبط النبي، أنه دعت إليه مقتضيات الحكم وتثبيت الدولة. أي ثورة؟ وأي دولة؟ ويا له من باطل يتزيى بزي الحق!

الطّغام الذين قتلوا عثمان في المدينة، وأوباش العرب الذين قتلوا الحسين في كربلاء، كانوا من طينة واحدة، بل كأنهم كانوا هم أنفسهم في الحالتين. كأن الشياطين ظهرت في صور البشر يوم الدار، ثم ظهرت بعد خمسة وعشرين عاماً في كربلاء.

عبروا الحاجز الغامض، الذي يفصل بين العقل والجنون، بين السكينة والفوضى، بين مكارم الأخلاق والخسة. وقد كدتُ أقول، بين الإيمان والكفر.

تجد ذلك أوضح ما يكون في سلوك الرجل المعتوه سنان بن أنس، الذي حمل رأس الحسين ووقف به على فسطاط عمر بن سعد، وأخذ يصيح كأنما تلبسته الشياطين:

أَوْقدْ ركابي فِضّة وذهبا
أنا قتلتُ السيد المحجَّبا
قتلت خير الناس أُمّاً وأبا
وخيرهم إذْ يُنسبون نسبا.

ما أعجب ذلك! وما أعجب قوله (فضة وذهبا) كأنه يهوذا الذي خان السيد المسيح لقاء حفنة من الفضة!

قالوا إنه حين أُدخل على عمر بن سعد وهو على تلك الحال، ضربه بقضيب كان في يده.

لا ريب أن عمر بن سعد، كان من وطأة الذنب وتأنيب الضمير، على ما لا يعلمه إلّا الله. لقد خيّره الحسين بين ثلاث. إما أن يدعه يعود إلى المدينة، أو يذهب إلى يزيد بالشام فيرى رأيه معه، أو يذهب إلى ثغر من الثغور مجاهداً في سبيل الله. فأرسل عمر بن سعد ذلك إلى عبيد الله بن زياد بالكوفة، فلم يقبل ابن زياد إلاّ أن يأتيه الحسين صاغراً. فمضى ابن سعد في (تنفيذ أوامر رئيسه)، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

وهو من بعد، قريب القرابة بالحسين. فأبوه سعد بن مالك (أبي وقّاص) بن وهيْب ابن عبد مناف بن زُهرة. وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم، آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زُهرة. ووهب ووهيب أخوان. وكان الرسول يقول عن سعد «هذا خالي». وسعد

هو الذي قال تلك القولة الشهيرة أول أيام الفتنة:

«لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عيْنان ولسان وشفتان فيقول هذا مؤمن وهذا كافر».

لم يُقدّر لعمر بن سعد حُسْن الذكر في ذلك اليوم المشؤوم. لو مال ميْلة واحدة لنجا.

ولكنه آثر العافية في طاعة ابن زياد. وحتى هذه لم يحصل عليها، إذ لم يلبث أن قتله المختار بن أبي عُبيد.

الرجل الذي نال الفخار أبد الدهر، من جُند ابن زياد في ذلك اليوم، هو الحُرّ بن يزيد الرِّياحي. كان على رأس كتيبة من الجيش من تميم وهمدان، فظلوا يسايرون الحسين عليه السلام أياماً، يراقبونه في حلّه وترحاله حتى نزل بكربلاء.

خلال ذلك، كان الحر يراجع نفسه ويحاسب ضميره، ويرى من فظاظات شمر بن ذي الجوْشن (ابن شرحبيل بن الأعور بن عقر الضباب بن كلاب، فيا له من اسم بائس لرجل بائس!).

وكان هو بمثابة القائد الفعلي على الجيش، وعمر بن سعد قائد بالاسم.

قال الطبري:

«... ثم إن الحُرّ بن يزيد لما زحف عمر بن سعد قال له (أصلحك الله. أمُقاتل أنت هذا الرجل؟). قال (أي والله قتالاً أيْسرُه أن تسقط

الرؤوس وتطيح الأيدي). قال الحر (أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضى؟) فقال عمر (أما والله لو كان الأمر إليَّ لفعلت. ولكن أميرك قد أبى...)».

حينئذٍ ضرب فرسه ولحق بالحسين، فسأله عن اسمه، قال (الحرّ بن يزيد!). فقال له الحسين «أنت الحر كما أسمتْك أمك. أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة».

وذكروا أن الحرّ وقف ونادى الجند بأعلى صوته:
«يا أهل الكوفة. لأُمكم الهبَل والعبر. دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه. وزعمتم أنك قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوْتم عليه لتقتلوه. أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظْمه وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضرّاً. وحَلّاءْتموه وأُصَيْبيَتَه (تصغير صبيه) وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني، وتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه. وها هم قد صرعهم العطش. بئسما خلّفتم محمداً في ذُريته. لا أسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه...».

إنما هيهات، فقد كانوا من الذين نصَّت عليهم الآية الكريمة في سورة الأحزاب:
﴿وقالوا ربنا إنّا أطعْنا سادتنا وكُبَراءَنا فأضلونَا السَبيلا﴾.

رووا أنّ يزيد بن معاوية حين جاءوا برأس الحسين عليه السلام، دمعت عيناه وقال:

«لقد كنت أرضى من طاعتهم بأقل من قتل أبي عبد الله».

لكنه لم يحاسب ابن زياد ولم يعزلْه. ووشيكاً سوف تستبيح جيوشه مدينة الرسول.

■ ■ ■

مصرع ذي النورين أنهى دور المدينة كونها حاضرة الدولة الإسلامية، وجرّ عليها ألواناً من البؤس، لم يكن آخرها أن جُنْدَ يزيد استباحوها ثلاثة أيام، فروّعوا أهلها أي ترويع.

ومصرع الحسين سبط النبي وأشْرف أهل زمانه، قوّض مُلكَ آل أبي سفيان في المدى القريب، وملكَ آل مروان في المدى البعيد، وزعزع دعائم دولة العباسيين فيما وراء ذلك.

في «العقد الفريد» وغيره من المصادر، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج يقول:
«جنِّبْني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاءٌ من الحرب. وإني رأيت بني حرب سُلبوا ملكَهم لما قتلوا الحسين بن علي».

وقد استيقظ يزيد ـ متأخراً ـ على فداحة جُرمِه، وخطورة ذلك على دولته، روى عدد من المؤرخين عن أبي عبيدة معْمر بن المثنى قوله:

«لما قتل عُبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه، بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية، فسُرّ بقتلهم أولاً، وحسُنت بذلك منزلة عبيد الله عنده. ثم لم يلبث إلّا قليلاً حتى ندم على

قتل الحسين، فكان يقول: وما كان عليّ لو احتملتُ الأذى وأنزلته معي في داري، وحكّمته فيما يريد، وإن كان في ذلك وكَفٌ ووهَنٌ في سلطاني، حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورعاية لحقّه وقرابته؟

لعن الله ابن مرجانة (...) قتله فبغَّضَني بقتله إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغّضني البرّ والفاجر، بما استعظم الناس من قتلي حسيْناً. ما لي ولابن مرجانة؟ لعنه الله وغضب عليه».

إنما لات حين مندم! وقد ظل ذلك البُغض يسري في أوصال تاريخ المسلمين إلى يومنا هذا.

كان كل من الشهيدين، يدرك أن قتله لن يكون أمراً هيّناً. ولكنه سوف يحدث أثراً عظيماً في مستقبل الإسلام. كل واحد منهما وطّن نفسه على الموت. عثمان، فيما رووا، رأى في منامه الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له «سوف تُفطر عندنا» ـ وكان صائماً في يومه، والحسين رأى أن الرسول يقول له «إنك تقدم إلينا».

كان كل واحد منهما مُشْفقاً ـ ليس على نفسه ـ ولكن على الطّغّام الذين أحاطوا به ليقتلوه. مشفقاً عليهم من شرّ ما يصنعون بأنفسهم وبالأجيال التي سوف تأتي من بعدهم.

الخليفة الشيخ، يطلب من حفنة المدافعين عنه أن يضعوا سلاحهم. روى ابن سعد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، أن عثمان قال لمن كان معه يوم الدار «إن أعظمكم عنّي غناءً، رجل كف يده وسلاحه».

وذكر الطبري أن الحسين قال لمن كان معه:
«.. هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله. فإن القوم إنما يطلبونني، ولو قد أصابوني انصرفوا عن طلب غيري..».

كأن أولئك الطغام لم يعودوا مسلمين ولم يعودوا عرباً ولم يعودوا بشراً، وقد قال لهم الحسين:
«ويلكم! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب..».

لم يقفوا عند حد، لم يردعهم الإسلام، ولم تردعهم أعراف العرب حتى في أيام جاهليتهم. بعد البذاءة في القتل، كانت الخِسّة في النّهب والسّلب، حدث ابن سعد عن الزهري أنه قال:

«.. ودخلت الغوغاء دار عثمان، فصاح واحد منهم (أيحلّ دم عثمان ولا يحلّ ماله؟). فانتهبوا متاعه. فقامت نائلة فقالت (لصوص وربّ الكعبة. يا أعداء الله، ما ركبْتُم من دم عثمان أعظم. أما والله لقد قتلتموه صَوّاماً قوّاماً يقرأ القرآن في ركعه..)».

وروى الطبري في مقتل الحسين عليه السلام، عن جعفر بن محمد ابن علي قوله:

«.. وسلب الحسينُ ما كان عليه، فأخذ سراويله بَحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وكانت من خزّ، فكان يُسمى بعد (قيس قطيفة)، وأخذ نعليْه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ

سيفه رجل من بني نهشل بن دارم فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بُديل، ومال الناس على الورْس والحلل والإبل فانتهبوها، ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه فإن كانت المرأة لتُنازَع على ثوبها عن ظهرها حتى تُغلب عليه فيأخذونه منها».

هذا، ويقول الأستاذ عبد الحليم الجندي في كتابه «البديع» عن الإمام جعفر الصادق، وهو يلتمس العزاء والعبرة في مصرع الحسين عليه السلام:

«إن في إنسانية البشر قابلية للفساد، كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية (...) ومن الفساد ما يستلفظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر. وفي استشهاد أبي الشهداء آية من الآيات.

كانت كربلاء قارعة رجَّتُ الأرض رجّاً يُعيد الإسلام غضّاً في الأنفس بما كان فيها من التصميم والإجماع على الاستشهاد في سبيله...».

■ ■ ■

أشد ما كان يخشى عبد الله بن عمر على نفسه من الفتنة. وقد فهموا الفتنة على وجهيْن: أن يُفتن المسلم عن دينه فيرتد إلى الكفر. أو أن يتنازع المسلمون السلطان، فتكون فتنة يضرب فيها بعضُهم رقاب بعض. وأحياناً يجيء المحظوران على هيئة واحدة، كما حدث في مقتل عثمان ومقتل الحسين رضي الله عنهما.

وعَى ابن عمر أحاديث الرسول في الفتنة كلها. وروى هو نفسه طرفاً منها. وهي أحاديث كان لها أثر عظيم في نفسه ولا شك، بسبب علاقته الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبسبب هيأته النفسية واستعداده الفطري.

حين أخذ الرسول ببضعة من جسده ـ كما روى ـ وقال له «خُذْ بحظك من العزلة»، فقد كان يعطيه ما يناسب طبعه، كما كان يفعل مع سائر أصحابه، ولا بد أنه فسّر (العزلة)، فيما بعد، أن من معانيها (الاعتزال)، فاعتزل الناس بعد مقتل عثمان، كما فعل سعد ابن أبي وقّاص، الذي قال حين أرسلوا إليه ليبايع «أنا وابن عمر خرجنا منها». وكان معهما من كبار الصحابة، كما قال الرُّواة، صهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد.

في صحيح البخاري عن جماعة عن عبد الله بن عمر أنه قال:
«قال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا فرَطُكم على الحوْض. ليُرفعنّ إليَّ رجالٌ منكم حتى إذا أهْويْتُ لأناولَهم اخْتلجوا دوني. فأقول (أي ربِّ أصحابي.) فيقول (لا تدري ما أحدثوا بعدك)».

وروى زيد بن وهب قال:
«سمعت عبد الله (ابن عمر) قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنكم سترون بعدي أَثَرةً وأموراً تُنكرونها). قالوا (فما تأمرنا يا رسول الله؟) قال (أدُّوا إليهم حقهم وسلوا الله حقّكم)».

وعن عُبادة بن الصامت أنه قال:
«دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أَخذ علينا أن بايعنا على السّمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعُسرنا ويسرنا وأثَرةً

علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلّا أن تروا كُفراً بوّاحاً عندكم من الله فيه برهان».

وعن أسامة بن زيد أنه قال:
«أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أُطمُ من آطام المدينة فقال (هل ترون ما أرى؟) قالوا، لا، فقال (فإنّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقْع القَطْر)».

وعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«يتقارب الزمان، وينقصُ العمل، ويُلقى الشُّح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» قالوا يا رسول الله أيما هو؟ قال «القتل! القتل!».

وروى عبد الله بن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضُكم رقاب بعض».

وعن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:
«ستكون فتن، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السّاعي. مَنْ تشرَّف لها تسْتشرفْه. فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فلْيَعُذْ به».

وعن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حُذيفة بن اليمان في حديث طويل، أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن دعاة الشر:
«... قلت يا رسول الله صفْهم لنا. قال (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا). قلت، فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم): قلت، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال

(فاعتزلْ تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)».

وعن حذيْفة أنه قال:
«حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثيْن، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر. حدثنا أن الأمانة نزلت في جذْر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُنّة. وحدثنا عن رفعها قال: (ينام الرجل النوْمة فتُقْبضُ الأمانة من قلبه، فيظل أطرُها مثل أثر الوكْت[١١]. ثم ينام النومة فتُقبض فيبقى فيه أثرُها مثل أثر المجْل[١٢] كجمر دحرجته على رجلك فقط فتراه مُنْتبراً وليس فيه شيء. ويُصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيُقال إن في بني فلان رجلاً أميناً. ويُقال للرجل، ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان)».

وعن أبي سعيد الخدْري أنه قال:
«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يكون خير مال المسلم، غَنمٌ يتْبع بها شَعف الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتَن».

كل ذلك وقر في فؤاد عبد الله بن عمر وفي صميم وجدانه، مما جعله يسلك في الأحداث الجسام التي جدت بعد مقتل عثمان، مسلكاً حمله بعض المتأخرين من المؤرخين، على الخوف وإيثار العافية.

ما كان أبو عبد الرحمن ليُؤثر العافية إلّا في أمر آخرته. كان أكثر خوفه ألّا تزلّ قدمه، ليس في الدنيا، ولكن في الآخرة.

روى ابن سعد أن عبد الله بن عمر قال:
«كففت يدي فلم أندم، والمقاتل على الحق أفضل».

المقاتل على الحق كان واضحاً كالشمس في ذلك الصراع، فهل أسف عبد الله بن عمر رحمه الله أنه لم يؤيده صراحة، بعد ما رأى من أهوال يزيد والحجاج؟

■ ■ ■

أغلب الظن أن عبد الله بن عمر بايع الإمام علياً مع جملة الناس، لكنه لم يزدْ على ذلك. لم يندفع في نصرته وتأييده، كما كان الإمام علي يؤمل منه. ولم يلبث أن سار إلى مكة.

يروي ابن قتيبة في كتابه «الإمامة والسياسة»:
«ذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى علي فقال (يا أمير المؤمنين، إئذن لي أن آتي عبد الله بن عمر فأكلمه، لعله يخفّ معنا في هذا الأمر) فأذن له، فأتاه فقال له (يا أبا عبد الرحمن. إنه قد بايع علياً المهاجرون والأنصار، ومَنْ إنْ فضّلناه عليك لم يُسْخطْك، وإن فضّلناك عليه لم يُرْضك. وقد أنكرت السيف في أهل الصلاة، وقد علمت أن على القاتل القتل، وعلى المُحصّن الرجم. وهذا يقتل بالسيف وهذا يقتل بالحجارة، وأن علياً لم يقتل أحداً من أهل الصلاة فيلزمه حكم القاتل).

فقال ابن عمر (يا أبا اليقظان. إن أبي جمع أهل الشورى الذين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فكان عليّ أحقّهم بها. غير أنه جاء أمر فيه السيف ولا أعرفه. ولكن والله ما

أحب أن لي الدنيا وما عليها وإني أظهرت أو أضمرت عداوةً لعلي). فانصرف عنه».

هذا، وحبّ عبد الله بن عمر لعلي لا ريب فيه، فهو يعلم حق العلم موقعه من الرسول صلى الله عليه وسلم. روى الترمذي عن ابن عمر أنه قال:

«آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه فقال (يا رسول الله. آخيت بين أصحابك ولم تُؤاخ بيني وبين أحد). فقال الرسول (أنت أخي في الدنيا والآخرة)».

وعند الطبري وغيره، أن المدينة بقيت خمسة أيام وليس فيها أمير، وأن الناس عرضوا البيعة على علي فأبى، وعرضوها على الزبير وطلحة وسعد، فأبوا كلهم. ثم إنهم أتوا عبد الله بن عمر، فقالوا له قُم بهذا الأمر فقال لهم:
«إن لهذا الأمر انتقاماً. والله لا أتعرّض له فالتمسوا غيري».

ويروي الطبري كيف أنهم اضطروا الإمام علياً على البيعة فقال:
«... فقالوا لهم، دونكم يا أهل المدينة، قد أجّلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتُلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً فغشي الناس علياً فقالوا (نبايعك، فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى).

فقال علي (دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبُتُ عليه العقول) فقالوا (ننشدك الله. ألا ترى ما ترى؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟).

فقال لهم علي (قد أجبتكم لما أرى. واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم. وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلّا أني أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم...».

وروى أكثر من واحد، أن الحسن بن علي نصح أباه ألّا يقبل البيعة في تلك الظروف، وكذلك صنع عبد الله بن عباس، الذي قال له:

«أطعني وادخل دارك، أو الحق بمالك بيَنبُع وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك. فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليُحمّلنّك الناس دم عثمان غداً».

هذا، ويقول الطبري في رواية عن محمد بن طلحة وآخرين، أن علياً حين خرج عليه الزبير وطلحة ومعهم عائشة أم المؤمنين، وأخذ يستعد إلى المسير إليهم، أرسل إلى عبد الله بن عمر، فلما جاءه قال له (انهض معي) فقال له (أنا مع أهل المدينة. إنما أنا رجل منهم. وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم، فإن يخرجوا أخرج، وإن يقعدوا أقعد...).

ثم إن عبد الله بن عمر عزم على السير إلى مكة من ليْله، وأخبر أم كلثوم ابنة علي (أرملة أبيه) أنه يخرج معتمراً... مقيماً على طاعة علي ما خلا النهوض...).

ويمضي الطبري فيقول:
«وأصبح علي فقيل له (حدث البارحة حدث هو أشد عليك من

طلحة والزبير وأم المؤمنين ومعاوية). قال (وما ذلك؟) قالوا (خرج ابن عمر إلى الشام).

فأتى علي السوق ودعا بالظّهر. فحمل الرجال وأعد لكل طريق طُلّاباً وماج أهل المدينة. وسمعت أم كلثوم فدعت ببغلتها فركبتها ثم أتت علياً... فقالت له (إن الأمر بخلاف ما بلغته وأنا ضامنة له). فطابت نفسه وقال (انصرفوا. لا ووالله ما كذَبتْ ولا كذب وإنه عندي ثقة)».

هذا هو إذاً، موقف عبد الله بن عمر من الإمام علي. يُقيم على طاعته ولا ينهض معه في صراعه ضد مناوئيه. وهو موقف، إن بدا غريباً لبعض مؤرخي هذا الزمان، فقد رضي به الإمام علي، كما رضيه أهل المدينة، وهم، كما قال عبد الله بن عمر:
«أنا مع أهل المدينة... إن يخرجوا أخرجْ، وإن يقعدوا أقعدْ...».

■ ■ ■

أقام عبد الله بن عمر بالمدينة، بعد ما كان من خروج الإمام علي للقاء طلحة والزبير وانتصاره عليهما في موقعة الجمل. كان انتصاراً لم يجد فيه الإمام علي لذّة، فقد بلغ عدد القتلى فيما رووا ستة آلاف، بينهم جمهرة من كبار الصحابة وحَمَلة القرآن. كانت أول حرب يقتل فيها المسلمون بعضهم البعض.

كان رضي الله عنه بطلاً مأساوياً جاء في غير زمانه. جاء بكل ما له من شرف وسابقة وعلم وورع وبطولات، ليعيد للخلافة هيبتها وللإسلام نضارته كما كان في عهده الأول. إنما هيهات، فقد

تغيرت الدنيا حتى في ذلك الوقت، والناس ما زالوا قريبي العهد بالرسول الكريم. سوف يظل يقاتل حتى يموت شهيداً. وقد رووا أنه قال يوم الجمل «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

ذلك، وما تلاه من أهوال، كانت تصل أنباؤه إلى المدينة، وإلى ابن عمر، فتزيد من أحزانه. أراد أن يعتزل في بيته، وينأى بنفسه. لكن الأحداث ظلت تلاحقه.

ذكروا أن معاوية بن أبي سفيان، كتب إلى أهل المدينة عامة يطلب تأييدهم، وكتب رسائل خاصة إلى نفر منهم، لما كان يعلم من تأثيرهم ونفوذهم. روى ابن قتيبة أن معاوية كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول له:

«أما بعد، فإنّ أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، والذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره. وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر والشورى ونظيراك في الإسلام. وخفّت لذلك أم المؤمنين. فلا تكرهنَّ ما رضوا، ولا تردَّن ما قبلوا. فإنما نردّها شورى بين المسلمين».

قالوا، ورد عليه سعد:

«أمّا بعد، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه. غير أن علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، شاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محسنه. وكان أحقنا كلنا بالخلافة ولكن مقادير الله تعالى التي صرفتْها عنه حيث شاء لعلمه وقدَره... فدع ذا. وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمرٌ كرهنا أوله وآخره. وأما طلحة والزبير، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما. والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين».

وكتب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري يتّهمه ويتهم الأنصار بخذلان عثمان، فرد عليه قائلاً:
«أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي في يدي. وقد أُخبرت بالذي هو كائن قبل أن يكون. فلما كان، كسرتُ سيفي، ولزمتُ بيتي، واتّهمت الرأي على الدين، إذ لم يصح لي معروف آمر به، ولا منكر أَنْهى عنه.

لعمري يا معاوية، ما طلبتَ إلّا الدنيا، ولا اتّبعت إلّا الهوى. ولئن كنتَ نصرتَ عثمان ميتاً، لقد خذلته حياً. ونحن ومن قِبَلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب».

أما في رسالته إلى عبد الله بن عمر، فإن معاوية، يمزج بين الترغيب والاتهام والإغراء الصريح. يقول:

«أما بعد، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبّ إليه أن يجتمع الناس عليه بعد عثمان، منك. فذكرت خذلك إيّاه وطعنك على أنصاره، فتغيرتُ لك. وقد هوّن ذلك عليَّ خلافُك على علي وطعنك عليه. وردني إليك بعض ما كان منك. فأعنّا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم. فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك. فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين».

ويقول ابن قتيبة إن عبد الله بن عمر ردّ على معاوية يقول:
«أما بعد. فإن الرأي الذي أطمعك في هذا، هو الذي صيّرك إلى ما صيّرك. تركتُ علياً في المهاجرين والأنصار، وتركتُ طلحة والزبير وعائشة، واتّبعك فيمن تبعك؟!

وأما قولك إني طعنت على علي، فلعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن أحدث أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله عهد، ففزعت إلى الوقوف وقلت، إن كان هذا فضلاً تركتُهُ وإن كان ضلالة فشرٌّ منه نجوت. فاغْن عني نفْسك».

مهما يكن من أمر تلك الرسائل، ومدى صحّتها ـ ومن المؤرخين من لا يأنس لابن قتيبة ـ فإنها صادقة في تعبيرها عن نوايا معاوية، وموقف أولئك النفر من الصحابة منه، وموقف أهل المدينة عموماً.

كان معاوية ـ رحمه الله ـ يطلب (الشرعية) في صراعه ضد رجل يعلم حق العلم أنه ليس من أكفائه.

ذكروا أن عُبيد الله بن عمر بن الخطاب فارق الإمام علياً ولحق بمعاوية، ففرح به فرحاً شديداً، وقال لعمرو بن العاص:
«ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله؟».

فضحك عمرو وقال له:
«شبّهت غير شبيه، إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتلَه علي بقتله الهرمزان. ورأى عبد الله ألّا يكون عليك ولا لك. ولو كان معك لنفعك. أو عليك لضرّك».

■ ■ ■

الهوامش

(١) الجَلَحُ انحسارُ شعر الرأس.

وفي صفات الإمام علي رضي الله عنه أنه كان أصلع.

(٢) فسّروا أن زُجَّ الرُّمح هو الحديدة التي تُركَّب في أسفل الرمح، تركز به في الأرض، والسنان أعلا الرمح يطعن به.

(٣) عِرْق، خيط ممتد من الرمل.

(٤) عَرَّس، نزل من آخر الليل.

(٥) سَرْحة، شجرة عظيمة يُستظلّ بها.

(٦) العرْج، منحنى الوادي ولعله مكان بعينه.

(٧) رَضْم، حجارة بعضها فوق بعض.

(٨) كُراع الأرض ناحيتها، أو هو ركن ناتئ من الجبل.

(٩) فسّروا أن النَّعثل الشيخ الأحمق. وقال صاحب (اللّسان) أنه كان بمصر رجل طويل اللحية يشبّه بعثمان رضي الله عنه.

(١٠) المشقص، النّصل يكون طويلاً أو عريضاً.

(١١) الوكْت ـ الوكْتة، الأثر في الشيء مثل النُّقطة.

(١٢) المجل ـ بفتح الجيم وسكونها، من معانيها البثور التي تظهر في اليد مثلاً، من شدة العمل.

الفصل الرابع

من فيوض العارفين

الإمام جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام كان يُعرف بجعفر الصّادق، وكانت أمّه فروة ابنة القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، فهو جمع الصّلاح والشرف من أقطاره جميعاً.

وجدّه لأمه، القاسم بن محمد بن أبي بكر، كان من صُلاح قريش وفقهائها. ورُوي أن عمر بن عبد العزيز قال:
«لو كان لي من الأمر شيء لولّيتُ القاسم بن محمد الخلافة».

وقال أبو الزّناد «ما رأيت أحداً أعلم بالسُّنة من القاسم بن محمّد».

وحدّثوا أنّ رجلاً سأله «أنت أعلم أم سالم؟». يعني سالم بن عبد الله بن عمر وكان ذروة في العلم ـ فقال له القاسم «ذاك بيت سالم» لم يزد عليها. وفسّروا أنه كره أن يقول له سالم أعلم

فيكذب أو يقول هو أعلم فيزكي نفسه.

عاش القاسم حتى جاوز حفيده جعفر الصادق العشرين من عمره، فكان أحد الذين أخذ عنهم جعفر العلم.

كان جعفر الصّادق شيخ الشيوخ وإمام الأئمة. أخذ عنه العلم سفيان الثوري وأبو حنيفة ومالك ـ ومالك هو شيخ الشافعي، والشافعي شيخ أحمد ابن حنبل.

روى سفيان الثوري أنه سمع جعفر الصادق يقول:
«عزّت السّلامةُ حتى خفي مطلبُها، فإن تكنْ في شيء فيوشك أن تكون في الخمول (أي خمول الذّكر). فإن طُلبت في الخمول ولم توجد فيوشك أن تكون في التخلّي. فإن طُلبت في التخلّي ولم توجد فيوشك أن تكون في الصّمت. فإن طلبت في الصّمت ولم توجد فيوشك أن تكون في كلام السّلف الصالح. والسّعيد من وجد في نفسه خلوة يشتغل بها».

وروي عن الإمام الشافعي قوله:
«استعينوا على الكلام بالصّمت، وعلى الاستنباط بالفكر».

وذكروا أنه قال ينصح معلّم أولاد هارون الرّشيد:

«وليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين، إصلاحك نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تكرهه. علّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملّوه ولا تتركهم منه فيهجروه. ثم روّهم من الشعر أعفّه ومن

الحديث أشرفه. ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكموه. فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّةٌ للفهم».

ورُوي عنه أيضاً أنه قال:
«لو علمتُ أن الماء البارد يُنْقص من مروءتي ما شربته».

وحدّث يونس بن يزيد عن محمد بن شهاب الزُّهري أنه قال:
«إن هذا العلم إن أخذتَه بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء، ولكن خُذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به».

كان الزهري من شيوخ الإمام مالك، قال عنه:
«والله لقد أدركت ها هنا (يعني مسجد الرّسول صلى الله عليه وسلّم) سبعين رجلاً كلّهم يقول، قال فلان قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فلم آخذ عن أحد منهم حرفاً لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن. ولقد قدم علينا محمد بن شهاب الزُّهري وهو شاب فازدحمنا على بابه لأنّه كان من أهل هذا الشأن».

ووصفوا أن التابعي الجليل محمد بن سيرين يكون في سعادة وضحك بالنهار فإذا جن عليه اللّيل يتهجد ويبكي فكأنه (قتل أهل القرية) من شدّة البكاء.

في رواية أنّه كان مولى لأنس بن مالك وكانت أمه من موالي أبي بكر الصّديق.

وصفوا أنّ الناس كانوا إذا رأوه يذكرون اللّه لكثرة ما أُعطي من هيبة وسمت وخشوع. حدّث موسى بن المغيرة قال:

«رأيت ابن سيرين يدخل السّوق رابعة النهار يكبّر ويسبّح. فقال له رجل «يا أبا بكر أفي هذه الساعة؟» فقال ابن سيرين «ساعةُ غفلة».

هذا، وكان يونس بن عبيد رجلاً عابداً، وكان خزازاً، فجاءه رجلٌ من أهل الشام، يريد أن يشتري ثوباً فقال «المُطرَف في السوق بأربعمائة». فقال يونس «عندنا بمائتين» ثم نادى المؤذّن للصلاة فانطلق يونس ولمّا عاد وجد أن ابن أخيه باع الثوب للرّجل بأربعمائة. فقال له يونس:

«يا عبد اللّه. المُطرف الذي عرضتُ عليك بمائتين، فإن شئت فخذه وخذ مائتين وإن شئت فدعه. فنظر إليه الرجل مليّاً ثم قال له «من أنت؟»». قال «رجلٌ من المسلمين». قال: «بل أسألك باللّه من أنت وما اسمك؟»».

قال «يونس بن عبيد». فقال الرجل:
«أنت يونس بن عبيد؟ والله إنا لنكون في الحرب في نحر العدو فإذا اشتدَّ علينا الأمر قلنا «يا ربّ يونس بن عبيد فرّج عنا، فيفرج عنا»»، فقال يونس «سبحان اللّه».

قال أحدهم: ما كان يونس أكثرهم صلاة ولا صوماً، ولكن لا والله، ما حضر حق من حقوق الله عزّ وجل إلّا وهو متهيّئ له».

وكان يونس يقول عن نفسه، فيما روى بشر بن الحارث:
«عددتُ مائة خصلة من البر، لم أجد عندي واحدة منها».

■ ■ ■

كان أُويْس القَرَني الماديّ رجلاً عابداً زاهداً مغمور الذكر.وحدثوا أنّ من أعظم فضائله كان بره بأُمه، وقد منعه ذلك أن يلحق بالرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم بالمدينة.

وروى أبو هريرة في حديث صحيح أخرجه مسلم قال:
«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: إن اللّه عزّ وجلّ يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الشعثةَ رؤوسهم، المُغبرّة وجوههم، الخمَصة بطونهم، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المُتنقمات لم يزوَّجوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، وإن طلعوا لم يُفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يُعادوا، وإن ماتوا لم يُشهدوا».

قالوا «يا رسول اللّه كيف لنا برجل منهم؟».

قال «ذاك أُوَيْس القَرَني».
قالوا «وما أوَيْس القَرني»؟
قال:

«أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين، معتدلُ القامة، آدم شديدُ الأُدمة، ضاربٌ بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله يتلو القرآن، يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يُؤبَه له، متّزر بإزار صوف ورداء صوف، مجهولٌ في أهل الأرض معروف في السماء، لو أقسم على اللّه لأبر قسمه. ألا وإن تحت مَنْكبه الأيسر لمعةً بيضاء. ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد أدخلوا الجنّة، ويُقال لأويس قفْ فاشفعْ، فيشفعه اللّه عز وجل في مثل ربيعة ومُضر».

فكان عمر بن الخطّاب يسأل عنه عشر سنوات حتى لقيه أواخر أيّام خلافته، وهو يرعى إبل قومه الذين وفدوا على عمر. وكان مع عمر عليّ بن أبي طالب. فعرفاه من أوصاف الرسول له. وطلبا من أويس أن يدعو لهما ففعل.

وذكروا أنّ عمراً أراد أن يحبسه عنده فأبى وخرج إلى الكوفة، ولمّا اشتهر أمره بها اختفى عن الأنظار فلم يُعرف له أثر.

ذلك، وحدّثوا أن معاوية بن أبي سفيان طلب من ضرار بن ضمره وكان من أصحاب الإمام عليّ أن يصف له علياً عليه السلام فأبى ولما ألح معاوية قال له:

«أمّا إذاً، فإنه واللّه كان بعيد المدى، شديدَ القُوى، يقول فضلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه. يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس باللّيل وظُلمته. كان واللّه غزير الدّمعة، طويل الفكرة، يُقلّب كفه ويخاطب نفسه. يعجبه من اللّباس ما خشُن ومن الطعام ما جشُب (غلظ). كان واللّه كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه. ونحن واللّه مع تقريبه لنا وقُربه منّا، لا نكلّمه هيبةً ولا نبتدئه تعظيماً له. فإن تبسّم فمن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظّم أهل الدّين ويحب المساكين.

لا يطمح القوي في باطله، ولا ييأس الضّعيفُ من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللّيل سجوفه وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم (الملدوغ) ويبكي بكاء الحزين، وكأنّي أسمعه وهو يقول:

يا دنيا أبي تعرّضت؟ أم لي تشوّقت؟ هيهات! هيهات! غرّي غيري.

قد بتتُّك (طلقتك) ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق».

قالوا فبكى معاوية حتى ابتلت لحيتُه وهو يمسح الدموع بكمه ولا يكف عن البكاء. واختنق القومُ في مجلسه بالبكاء. ثم قال معاوية:

«رحم اللّه أبا الحسن. كان واللّه كما وصفت. فكيف حزنك عليه يا ضرار؟».

فقال ضرار:
«حُزن من ذُبح ولدها في حجرها فلا تجفُّ عبرتُها ولا يسكن حُزنها».

هذا، وعن عمرو بن قيس أن الإمام عليّاً عليه السلام، وهو يومئذ أمير المؤمنين، رُئي عليه إزار مرقوع فعوتب في ذلك فقال:
«يقتدي بي المؤمن ويخشع له القلب».

وحدّث مجاهد أن الإمام عليّاً قال:
«جُعتُ مرةً بالمدينة جوعاً شديداً، فخرجتُ أطلب العمل في عوالي المدينة. فإذا أنا بامرأة جمعت مدَراً (طيناً) فظننتُها تريد بلّه فأتيتُها، فقاطعتُها كلَّ ذَنوب (دلو من الماء) بتمرة. فعددت ستّة عشر ذنوباً حتى مجلت يدي. ثم أتيتُها وبسطتُ كفّي فعدّت لي ستّ عشرة تمرة، فأتيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأخبرته فأكل معي منها».

■ ■ ■

قال الشّريف الرّضي رحمه اللّه في مقدّمة شرحه لكلام الإمام علي ابن أبي طالب رضي اللّه عنه، وقد تولى جمعه وأسماه (نهج البلاغة):

«... إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مُشرَعَ الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها. ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كلُّ قائل خطيب، وبكلامه استعان كلُّ واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وتأخّروا، لأنّ كلامه عليه السلام عليه مسحةٌ من العلم الإلهي وعبقةٌ من «الكلام النبوي...»».

ومعروف أن أشهر من شرح (نهج البلاغة) بعد الشريف الرضي، من المتقدمين، كان الشيخ ابن أبي الحديد رحمه اللّه. ولا جدال أن أشهر الشرُاح للنهج في قرننا هذا، هو حجة الإسلام محمد عبده رحمه اللّه. وجاء في مقدمة شرحه:

«... فكان يُخيّل إليّ في كل مقام، أن حروباً شبّت وغارات شنّت، وأن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة وللريَب دعارة، وأن جحافل الخطابة وكتائب الذّرابة في عقود النظام وصفوف الانتظام، تنافح بالصّفيح الأبلج والقويم الأملج، وتمتلج المُهج برواضع الحجج، فتفلُّ من دعارة الوساوس، وتصيب مقاتل الخوانس. والباطل منكسر، ومرج الشك في خمود، وهرج الرّيب في ركود. وأن مدبّر تلك الدولة، وباسل تلك الصّولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب...».

هذا، ومن أمثلة فصاحته ونصاعة بيانه خطبته الشهيرة التي يقرع فيها أتباعه على تقاعسهم عن نصرته، ومنها قوله:

«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزي قومٌ في عقر دارهم إلا ذَلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت الغارات عليكم ومُلكت عليكم الأوطان (...) وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقَلْبَها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع عليه إلّا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلمٌ ولا أريق له دم.

فلو أن أمرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان عندي جديراً. فيا عجباً واللّه يُميت القلب ويجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقّكم. فقبحاً لكم وترحاً حين صرتُم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويُعصى اللّه وترضون.

إذا أمرتكم بالسّير إليهم في أيام الحر، قلتم هذه حمّارة القيظ أمهلنا يُسبخ عنّا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم هذه صبّارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد.

(...) فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم واللّه من السيف أفر(...).

قاتلكم اللّه. لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش إن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب (...).

ومن قوله في الخليفة عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه:
«للّه درّه، فقد قوم الأود وداوى العمَد. خلف الفتنة وأقام السنّة. ذهب نقي الثوب قليل العيب. أصاب خيرها وسبق شرها. رحل وتركهم في طرق متشعبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي».

وقال في محبّيه وأعدائه:
«هلك في رجلان. محب غال، ومبغضٌ قال».
عنى محبّاً متطرّفاً في حُبّه أو عدواً متطرفاً في عداوته وكلاهما على ضلال.
ومن حكَمه قوله:
«إذا هبتَ أمراً فقع فيه فإن شدَّة توّقيه أعظم مما تخاف منه».

وقال في المعنى نفسه:
«قُرنت الهيبة بالخيبة، والحياءُ بالحرمان. والفُرصة تمر مرّ السحاب، فانتهزوا فرص الخير».

وقال رضي الله عنه:
«أهل الدنيا كرَكْب يُسار بهم وهم نيام».

وقال:
«بكثرة الصّمت تكون الهيبة. وبالنصَفة يكثر المواصلون. وبالأفضال تعظم الأقدار. وبالتواضع تتم النعمة. وباحتمال المؤن يجب السؤدد. وبالسيرة العادلة يُقهر المناوئ. وبالحلم عن السفيه تكثُر الأنصار عليه».

هذا والإمام عليّ كان أوّل من قال العبارة الذائعة «كلمة حق أريد بها باطل»، وذلك حين رفع الخوارجُ شعارهم «لا حكم إلا للّه».

ومن وصيّته عليه السلام لكمْيل بن زناد النخعي:

«يا كُميل. مُرْ أهلَك أن يروحوا في كسب المكارم، ويُدلجوا في حاجة من هو نائم. فوالذي وسع سمعُه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً، إلا وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبةٌ جرى إليها (أي اللّطف) كالماء في انحداره حتى يطردها عنه (أي النائبة) كما تُطرد غريبةُ الإبل».

وقال رضي الله عنه:
«إن للّه عباداً يختصهم بالنّعم لمنافع العباد فيُقرّها في أيديهم ما بذلوها. فإن منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم».

■ ■ ■

الرسول الكريم عليه صلوات الله، أُوتي مجامع الكَلم، ولم يكن ينطق عن الهوى. وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، اقتبس من ذلك الفيض النبوي. لا جرم، فقد نشأ في بيت النبوة ولازم الرسول ملازمةً منذ هو صبي. وبنو هاشم أهل فصاحة سجيّةً، كما وصف الإمام علي حين سُئل عن قريش:

«أما بنو مخزوم فريحانةُ قريش... وأما بنو عبد شمس فأبعدها رأياً وأمنعها لما وراء ظهورها. وأمّا نحن فأبذل لما في أيدينا، وأسمحُ عند الموت بنفوسنا. وهم أكثر وأمكر، ونحن أفصح وأنصح وأصبح».

ومن حكمه عليه السلام قوله:
«خذ الحكمة أنى كانت، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلجُ في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن».

ومن عجيب كلامه قوله:
«المؤمن بشرُه في وجهه وحُزنُه في قلبه. أوسع شيء صدراً، وأذلُّ شيء نفساً. يكره الرّفعة ويشنأ السمعة (أي يكره الشهرة). طويلٌ غمّه، بعيدٌ همّه، كثير صمتُه، مشغول وقتُه. شكور صبور، مغمورٌ بفكرته، ضنين بخلّته (أي لا يظهر فقره للنّاس). سهلُ الخليقة، ليّن العريكة، نفسُه أصلب من الصلد، وهو أذل من العبد».

وقال في المعنى نفسه، وكأنه ـ رضي الله عنه ـ كان يصف نفسه:
«كان لي فيما مضى أخٌ في الله وكان يعظمه في عيني صغرُ الدّنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد. وكان أكثر دهره صامتاً فإنْ قال بذّ القائلين ونقع غليلٍ السائلين. ويبدو ضعيفاً مستضعفاً فإن جد الجد فهو ليثُ غاب وصلّ واد...

لا يلوم أحداً على ما يجدُ العذر في مثله حتى يسمع اعتذاره. يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل. وكان لأن يسمع أحرص منه على أن يتكلّم. وكان إذا بدهَهُ أمران نظر، أيّهما أقرب إلى الهوى فخالفه.

فعليكم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها. فإن لم تستطيعوا فأعلموا أن أخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير».

ومن عجيب بلاغته في قول ما قل ودل:

«بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولداً».

وقال الشيخ محمد عبده رحمه الله في شرح ذلك:
«بقيّة السيف هم الذين يبقون بعد الذين قاتلوا في حفظ شرفهم ودفع الضيم عنهم، وفضّلوا الموت على الذّل، فيكون الباقون بعدهم شرفاء نجداء، فعددهم أبقى وولدهم يكون أكثر، بخلاف الأذلّاء، فإن مصيرهم إلى المحو والفناء».

وليس بعيداً عن ذلك قوله:
«لنا حق فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السُّرى».

وفسّر ذلك الشريف الرضي رحمه الله بقوله:
«ومعناه إنا إن لم نُعْطَ حقّنا كنا أذلاء، وذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما».

وزاد عليه الشيخ محمد عبده بقوله:
«وقد يكون المعنى، إن لم نُعطَ حقّنا، تحملنا المشقة في طلبه وإن طالت الشُّقَّة. وركوب مؤخرات الإبل مما يشقُّ احتمالهُ والصبر عليه».

وذلك هو المقصود في ظنّي. ولا أحسب أن المعنى غاب عن الشريف الرضي وهو من هو. ولكن لعلّه في شرحه قدّر ظروف زمنه واحتاط حتى لا يظهر كأنّه يحثُّ على الثورة، وقد كان كما نعلم نقيب الأشراف في عصره.

وقبلاً قال تأبط شراً يصف ممدوحه:
قليلُ التشكّي للمُهم يُصيبُه

كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظلّ بموماة ويُمسي بغيرها
جحيشاً ويعْروري ظهور المهالك.

ومعنى (يعروري) أن تركب البعير أو الفرس دون سرج. أو كما نقول بدارجتنا (عريّ) وهي فصيحة. ولا يخفي أن السرج لا يوضع أبداً على عجز الدابة. وقد يروون صدر البيت الثاني:
«يبيت بموماة ويضحى بغيرها».

هذا، ومن حكم الإمام علي أيضاً قوله:
«قدْر الرجل على قدر همته. وصدقه على قدر مروءته. وشجاعته على قدر أنفته؟ وعفته على قدر غيرته».

وقال أيضاً:
«الحلم والأناةُ توأمان ينتهجهما عُلوّ الهمة».

وقال:
«صدر العاقل صندوق سره. والبشاشة حبالة المودة. والاحتمال قبر العيوب. ومن رضي عن نفسه كثُر الساخطُ عليه».

وقال عليه السلام:
«إذا وصلت إليكم أطرافُ النِّعم فلا تُنفِّروا أقصاها بقلّة الشكر».

وقال:
«إن هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحِكم».

■ ■ ■

روى الأصمعي أن محمد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام قال يوصي ابنه:

«يا بُني إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر. إنك إن كسلت لم تؤد حقّاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق».

ومن حكم أبي الحسن علي بن محمّد المزيّن، وكان من العارفين قولُه:
«الذنب بعد الذنب عقوبةُ الذنب، والحسنةُ بعد الحسنة ثواب الحسنة».

هذا، وكان بشر بن الحارث الشهير ببشر الحاني من أعلام العُبّاد الزاهدين. وقد حكى محمد بن قُدامة أن رجلاً سكران لقيه في الطريق، فاعتنقه وانكب عليه يقبله ويبكي ويقول «يا سيدي يا أبا نصر. يا سيدي يا أبا نصر». وبشر لا يدفعه عنه. فاغرورقت عينا بشر، ولمّا انصرف الرجل قال بشر:

«رجلٌ أحبّ رجلاً على خير توهّمه فيه. لعلّ المحب نجا والمحبوب لا يدري ما حالُه».

وكان بشر يقول:
«حادثوا الآمال بقرب الآجال».

وحدّث الفتح بن شخرف قال:
«كنت عند بشر إذْ جاءه رجلٌ فسأله عن مسألة، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه، ثم أطرق، ثم رفع رأسه فقال (اللّهم إنك تعلم أني

أخاف أن أتكلم. اللّهم إنك تعلم أني أخاف أن أسكت. اللهم إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني بين السكوت والكلام).

وذكروا أن الإمام أحمد بن حنبل سُئل عن الورَع، فقال: «أنا؟ استغفر اللّه. لا يحل لي أن أتكلّم في مسألة عن الورع فأنا آكل من غلة بغداد. لو كان بشر بن الحارث لصلح أن يجيبك، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد».

وقال ابن مهدي عن أحمد بن حنبل:
«ما نظرت إليه إلّا ذكرت سفيان الثوري. ولقد كاد هذا الفتى أن يكون إمامنا في بطن أمه».

وروى النيسابوري «قال لي الأمير، إذا جاء إفطار أحمد بن حنبل فأرنيه. فجاءوا برغيفي خبز وخيارة. فقال «هذا لا يحضر إلينا إذا طلبناه إذا كان هذا يقنعه».

ولما عاده الطبيب في مرضه قال «هذا رجل قد فتّت الغمّ والحزن كبده».

وقال أبو داود النيسابوري «لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذُكر العلم تكلّم».

هذا وقد كان سَريُّ السقطي ذا قدم راسخة، وكان خال أبي القاسم الجُنيد وأستاذه، وناهيك بالجنيد. قال الجنيد:

«سمعت السريّ يقول (ما أرى لي فضلاً على أحد). قيل له (ولا

على المخنثين؟) قال (ولا على المخنثين)».

وسألوه عن أهل الحقائق من العباد فقال:
«أكْلُهم أكلُ المرضى، ونومُهم نومُ الغرقى».

وكان يقول:
«من الناس قومٌ لو مات نصفُ أحدهم لما اتعظ النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم».

وعن أحمد بن محمد الصّوفي قال:
سمعت السريّ يقول:
«انقطع من انقطع عن اللّه بخصلتين، واتصل من اتّصل باللّه بأربع خصال. فأمّا من انقطع عن اللّه فإنه يتخطّى إلى نافلة بتضييع فرض، ثم عملٌ بظاهر الجوارح لم يواطئ عليه صدقُ القلوب. وأما الذي اتصل به المتصلون، فبلزوم الباب، والتشمير في الخدمة، والصبر على المكاره، وصيانة الكرامات».

وذكروا أن الجنيد قال عن أبي سعيد الخرّاز:
«لو طالبَنا اللّه بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخرّاز لهلكنا». فسئل عن ذلك فقال «أقام كذا وكذا سنة يخرز ما فاته الحقُّ بين الخَرَزتين».

ومن أقوال أبي سعيد الخرّاز:
«إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا اللّه بدموعهم».

وكان محمد بن علي بن جعفر الكنانيّ من أصحاب الخرّاز، كما صحب الجنيد. كانوا يسمّونه (سراج الحرم)، ووصفوا أنه ختم

القرآن في الطّواف اثنتي عشرة ألف ختمة. من أقواله:
«إن اللّه تعالى نظر إلى بعض عباده فلم يرهم أهلاً لمعرفته، فشغلهم بخدمته».

وكان أبو بكر الشّبلي من أئمة الزّهاد، وكان قبلاً ذا جاه وترف، فحضر مجلساً لخير النساج فتاب على يديه. ومن أقواله:

«إذا وجدتَ قلبك مع اللّه فاحذرْ من نفسك. وإذا وجدت قلبك مع نفسك فأحذر من اللّه».

وقال بنّان الحمال:
«البريء جريء، والمذنب خائف، ومن أساء استوحش».

■ ■ ■

كان أبو حازم سلَمة بن دينار الأعرج مولى في بني ليث بن بكر. وكان ورعاً عظيم التقوى. وصفه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فقال: «ما رأيت أحداً الحكمةُ أقرب إلى فمه من أبي حازم». ذُكر عنه أنه قال:

«إذا رأيت اللّه عزّ وجلّ يتابع نعمه عليك وأنت تعصاه فاحذره».

ووصفوا أن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث إليه، فلمّا جاءه، قال له:
«يا أبا حازم. ما لنا نكره الموت؟».

فقال «لأنكم خربتُم آخرتكم وعمّرتُم دنياكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب».

فقال سليمان «صدقت. فكيف القدوم على اللّه عزّ وجلّ؟».

فقال أبو حازم «أما المحسن فكالغائب يقدُم على أهله. وأما المسيء فكالآبق يقدم على سيّده».

فبكى سليمان وقال «ليت شعري مالنا عند اللّه؟».

فقال أبو حازم «اعرض نفسك على كتاب اللّه عزّ وجل، فإنك تعلم مالك عند اللّه».

وأراد سليمان أن يمسكه معه ليستفيد من نصحه فأبى وقال «أخاف أن أركن إليكم فيذيقني اللّه ضعف الحياة وضعف الممات».

هذا، وقد كان في سليمان بن عبد الملك نزوعٌ إلى الصلاح، وكان أهل الورع يقولون «لعل الله يغفر لسليمان بن عبد الملك لأنه استخلف الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز».

وكان عطاء بن أبي رباح مملوكاً أسود لآل أبي ميسرة الفهري. وكان إماماً في الفقه. ذكروا أن عبد الله بن عمر قدم مكة فاجتمع إليه الناس ليسألوه، فقال «اتجتمعون لي يا أهل مكة وفيكم ابن أبي رباح؟».

وروى إسماعيل بن إبراهيم الحربي قال:

«جاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ومعه ولدان له إلى عطاء فجلسوا إليه وهو يصلّي. فلما فرغ من صلاته التفت إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وهو يجيبهم وقد أدار ظهره لهم. ثم قاموا فقال سليمان لولديه «يا بنيّ لا تقصّرا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود».

وذكروا أن ولداً لسليمان بن عبد الملك جاء فجلس بجنب طاوس ابن كيسان الفقيه فلم يلتفت إليه، فقيل له «.. يجلس إليك ابن أمير المؤمنين ولا تأبه به؟» فقال «أردت أن يعلم أن للّه عباداً لا يبالون بما لديهم».

وحكى طاوس فقال: «بينا أنا بمكة بعث إليّ الحجاج، فلما جئته أجلسني إلى جنبه. فسمعنا أحداً يلبيّ حول الكعبة رافعاً صوته، فقال الحجّاج «عليّ بالرجل». ولما جيء به قال له الحجاج «ممن الرجل؟» قال «من المسلمين» قال «ليس عن الإسلام سألت؟». قال الرجل «فعمّ سألت؟» قال «سألتك عن بلدك». قال «من أهل اليمن».

فقال الحجّاج «كيف تركت محمّد بن يوسف؟» يعني أخاه، وكان والياً على اليمن. فقال الرجل «تركته عظيماً جسيماً لبّاساً خرّاجاً ولّاجاً». قال الحجاج «إنّما أسألك عن سيرته». فقال الرجل «تركتهُ غشوماً ظلوماً عاصياً للخالق».

قال طاوس «فظهر الغضب على وجه الحجّاج وقال للرجل (ما حملك أن تتكلم بهذا الكلام وأنت تعرف مكانه مني؟) فقال الرجل (يا سبحان اللّه أتراه بمكانه منك أعز مني بمكاني من اللّه عزّ

وجلّ، وأنا وافدُ بيته، ومصدّق نبيّه، وقاضي دَينه؟» قال، فسكت الحجّاج ولم يحر جواباً وقام الرجل من غير أن يؤذن له فانصرف.

هذا، وكان في المدينة رجلٌ عابدٌ ذاهلٌ عن نفسه يُدعى أبا نصر المُصاب. وكان يلزم مسجد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ويجلس مع أهل الصُفَّة. فقدم هارون الرشيد وهو خليفة إلى المدينة وقال «قفوا بي على أهل الصُفَّة». فلم وقف عليهم، نبّهوا أبا نصر وقالوا له «هذا أمير المؤمنين». فرفع رأسه وقال للرشيد:

«أيها الرجل. إنّه ليس بين عباد اللّه من أمّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وسائر رعيّتك وبين اللّه من يُسأل غيرك. وإن اللّه سائلك عنهم فأعدّ للمسألة جواباً. وقد قال عمر بن الخطاب (لو ضاعت سَخْلةٌ على شاطئ الفرات لخاف عمر أن يسأله اللّه عنها)».

قالوا، فبكى هارون الرشيد وقال:
«يا أبا نصر، إن رعيتي ودهري بخلاف رعيّة عمر ودهره».

فقال له «هذا واللّه غير مُغْن عنك، فانظر لنفسك فإن اللّه سائلك عمّا حوَّلك».

ثم إن الرشيد دعا بصُرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال «ادفعوها إلى أبي نصر». فقال «ما أنا إلّا رجل من أهل الصُّفّة. ادفعوها إلى فلان يفرّقها عليهم ويجعلني واحداً منهم».

هذا وقد ذكروا أن هارون الرشيد كان يخشى لقاء عبد اللّه بن عبد العزيز العمري من ذُريّة عمر بن الخطّاب، فقد كان يوسعه وعظاً

حتى يُبكيه. ورووا أنه لقيه ذات مرّة في المسعى فأخذ بلجام دابته فأهوى عليه الجند فمنعهم الرشيد عنه، فكلّمه فإذا دموع الرشيد تسيل على عرف دابته، وهو يقول «نعم يا عمّاه. مقبول منك يا عمّاه. على الرأس والعين يا عمّاه».»

■ ■ ■

وصفوا أن أبا محمّد سفيان بن عُيَيْنة كان مولى لبني عبد الله بن رويبة. وُلد بالكوفة عام سبعة بعد المائة، وسكن مكّة وتُوفّي بها عام ثمانية وتسعين ومائة. وذكروا أن سبب تحوُّله إلى مكّة أن أباه كان عاملاً لخالد بن عبد الله القسريّ. فلمّا عُزل عن العراق ووُلّي يوسف بن عمر الثقفي لاحق عمّال خالد فهرب عيينة، أبو سفيان، إلى مكّة.

كان سفيان من الفقهاء الثّقات الأجلاء، وكان محدّث الحرم المكّي في زمانه، وهو من شيوخ الإمام الشافعي، قال عنه «لولا مالك وسفيان لذهب علم أهل الحجاز». ومن جميل كلامه قولُه:

«إذا وافقت السريرةُ العَلانية فذلك العدْل. وإذا كانت السريرة خيراً من العلانية فذلك الفضل. وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجوْر».

وقال أيضاً «مَن كانت معصيتُه في الشهوة فارْجُ له التّوبة، فإن آدم عصى بالشهوة فغُفر له. فإذا كانت في الكبْر فاخْش على صاحبه، فإن إبليس عصى مستكبراً». وأُثر عنه أيضاً قولُه:

«كان يُقال، الأيام ثلاثة، فأمس حكيم مؤدِّب ترك حكمته لك وذهب. واليوم صديق مودِّع كان عنك طوي الغيْبة حتى أتاك وهو عنك سريعُ الظّعن. وغداً لا تدري أتكون من أهله أو لا تكون».

وذكروا في قصة وفاته كما روى ابن أخيه الحسن بن عمران بن عُيَينة قال:

«حججت مع عمي سفيان آخر حجّة له سنة سبع وتسعين ومائة. فلمّا كنّا بجمع وصلّى، استلقى على فراشه ثم قال (قد وافيت هذا الموضع سبعين عاماً، أقول كلّ عام، اللّهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان. وإني قد استحييتُ من اللّه من كثرة ما أسأله ذلك».

فرجع فتوفّي في السنة الدّاخلة، يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ودُفن بالحجون وهو ابن إحدى وتسعين سنة».

هذا، وذكروا أن سفيان جلس إلى الفُضيل بن عياض، فقال له الفضيل:

«كنتم معشر العلماء مصابيحَ البلاد يُستضاء بكم، فصرتُم ظلاماً. وكنتم نجوماً يُهتدى بكم، فصرتُم حَيْرة. ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظَلَمة ثم يُسند ظهره إلى الجدار ويقول (حدّثنا فلان عن فلان) فقال سفيان (لئن كنّا لسنا بصالحين فإنا نحّب الصالحين).

والفضيل بن عياض من تميم، ولد بخراسان بكورة أبيَوْرد، وقدم الكوفة وهو كبير فتفقه بها وسمع الحديث ثم تعبّد وزهد وهاجر إلى مكة ومات بها.

وذكروا أن الفضيل أخذ بيد سفيان بن عيينة، وناهيك بهما ـ وقال له «إن كنت تظنّ أنه بقي على وجه الأرض شر منّي ومنك فبئس ما تظن».

هذا ومن عجيب ما حكوه عن الفضيل ما رووه عن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد أنه قال: «حج أمير المؤمنين هارون الرشيد فأتاني ذات ليلة، فخرجت مسرعاً فقلت (يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إليّ فأتيتك). قال (ويحك. قد حاك في نفسي شيء، فانظر لي فقيهاً أسأله) فقلت (ها هنا سفيان بن عيينة) قال (امض بنا إليه).

فأتيناه، فقرعت الباب، فقال من هذا؟ قلت: أجبْ أمير المؤمنين. فخرج إلينا مسرعاً وقال (يا أمير المؤمنين. لو أرسلت إليّ لجئتك). فقال الرشيد (خذ لما جئناك له رحمك اللّه). فحدّثه ساعة ثم قال له (عليك دين؟) قال، نعم، فقال الرشيد، (أبا عبّاس. اقض دينه).

ولما انصرفنا عنه قال الرشيد (ما أغنى عني صاحبك). فقلت (ها هنا عبد الرزّاق بن همام). ولما طرقنا بابه وعلم من جاءه، خرج مسرعاً وقال (يا أمير المؤمنين. هلا أرسلت إليّ فأتيتك)؟ فحادثه ساعة ثم قال له (عليك دين؟) قال، نعم، فأمرني أن أقضي حاجته.

ولما تركناه قال لي الرشيد (ما أغنى عنّي صاحبك) فقلت له (ها هنا الفضيل بن عياض) فانطلقنا إليه. ولمّا قرعنا بابه إذا هو قائم يصلّي. فلمّا فرغ من صلاته قال (من هذا؟) قلت (أجب أمير المؤمنين). قال (ما شأني بأمير المؤمنين؟) قلت (سبحان الله، أما عليك طاعة؟) فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ

المصباح، ثم انزوى في ركن منها.

فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا في الظلام، فسبقت يد هارون الرشيد إليه فقال (ما ألينَ هذه الكف إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل). فقال له الرشيد (خذ لما جئناك له رحمك الله).

فحدّثه حديثاً أبكاه حتّى غُشي عليه. فقلت له (ارفق بأمير المؤمنين). فقال (يا ابن أُم الربيع. تقتله أنت وأصحابك وتريدني أن أرفق به؟) ثم أفاق الرشيد، فقال له (زدني رحمك الله) فقال له:

«يا حسن الوجه. أنت الّذي يسألك اللّه عزّ وجلّ عن هذا الخلق يوم القيامة. فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل».

فبكى الرشيد، ثم قال له (عليك دين؟) فقال الفضيل (نعم. دينٌ لربي يحاسبني عليه. فالويل لي إن سألني. والويل لي إن حاسبني، والويل لي إن لم أُلتهم حجتي). فقال الرشيد (إنما عنيت دين العباد). قال (إن ربّي لم يأمرني بهذا). فقال له الرشيد (هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك). فقال الفضيل (سبحان اللّه. أدلّك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟).

ثم صمت فلم يكلّمنا، فانصرفنا عنه. ولمّا خرجنا قال الرشيد (أبا عبّاس. إن دللتني على أحد، فدُلّني على مثل هذا. هذا سيد من سادات المسلمين)».

■ ■ ■

أبو القاسم الجُنيد بن محمّد من المبرِّزين في حَوْمة الزهد. وهو ابن أخت السري السقطي، وحسبك به، أخذ عنه وعن جماعة منهم أبو ثور والحارث المحاسبي.

أصله من نهاوند ووُلد ونشأ ببغداد. كان عمله خزّازاً، وقد روى الخالديّ قال:

«بلغني عن الجُنيد أنه كان في سوقه (أي في تجارته) وكان ورْده في كل يوم ثلاثمائة ركعة».

وعن الخالدي أيضاً:
«لم نر في شيوخنا من اجتمع له علمٌ وحالٌ غير أبي القاسم الجنيد. أكثرهم يكون له علمٌ كثير ولا يكون له حال. وآخر يكون له حال كثير وعلم يسير. والجنيد كانت له حال خطيرة وعلوم غزيرة. فإذا رأيت حالَه رجحته على علمه. وإذا رأيت علمه رجحته على حاله».

كان في زمانه إمام مدرسة العراق في التصوّف إذ كان أبو يزيد البسطامي إمام مدرسة فارس. وقد قال له - فيما رووا - تلك القولة العظيمة حين جاءه باحثاً عن الحقيقة:
«الذي تبحث عنه قد تركتَه وراءك ببسطام».

رُوي عن الجنيد أنه قال:
«لقد مشى رجال على الماء باليقين. ومات بالعطش رجالٌ أكثر منهم يقيناً».

وقال أيضاً «فَتْحُ كل باب وكل علم نفيس بذل المجهود».

وقال: «احذرْ أن تكون ثناءً منشوراً وعيباً مستوراً».

وسأل رجلٌ الجنيدَ علامَ يتأسّف المحب فقال:
«على زمان بَسْط أوْرث قبْضاً، أو زمان أُنس أورث وحشة».

وقال أبو العبّاس بن مسروق:
«مررت مع الجنيد في بعض دروب بغداد، وإذا رجل يغني:
منازل كنتَ تهواها وتألفُها
أيام أنت على الأيام منصورُ.

فبكى الجنيد بكاء شديداً، ثم قال:

يا أبا العباس، ما أطيب منازل الألفة والأنس، وأوحش مقامات المخالفات».

ووصفوا وفاته حين أحس دنوَّ الأجل، ظلّ راكعاً ساجداً حتى فاضت روحه. وقال الخالدي إنه رآه في المنام فقال له (ما فعل اللّه بك؟). فقال الجنيد:
«طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيَت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم ما نفعنا إلا ركيعات كنّا نركعها في السحَر».

وذكروا أنهم أحصوا النّاس الّذين صلّوا على جنازته فكانوا نحو ستين ألفاً.

هذا، وحدّثوا أن الإمام أحمد بن حنبل حين توفي، رأى رجل في

منامه أن على كلٍّ قبر قنديلاً. فسأل عن ذلك فقيل له «أما علمت أنه نُوِّر لأهل القبور قبورهم لنزول هذا الرجل بينهم».

وقال موسى بن هارون «لمّا مات أحمد بن حنبل، مُسحت الأمكنة المبسوطة التي وقف عليها الناس للصلاة، فحَرز مقادير الناس بالمساحة على التقدير، ستمائة ألف وأكثر، سوى ما كان في الأطراف والسطوح والمواضع المتفرّقة أكثر من ألف ألف».

هذا، ومن عجيب ما رُوي عن وفاة أبي بكر الشبلي ـ ما رواه صاحبه بكير قال:
«وجد الشبليّ في يوم جمعة خفّةً من وجع كان به، فقال لي (تنشط نمضي إلى الجامع؟) قلت نعم. فاتكأ على يدي حتى انتهينا إلى الورّاقين في الجانب الشرقي. فتلقّانا رجل قادم من الرّصافة. فقال الشبلي (بكير. غداً يكون لنا شأن مع هذا الشيخ).

ثم مضينا فصلّينا ثم عدنا فتناول شيئاً يسيراً من الغذاء. فلما كان الليل وافته منيّته. فقيل لي، في درب السقائين رجل شيخ صالح يغسل الموتى، فدلوني عليه في سحر تلك اللّيلة. فنقرتُ الباب، فسمعت صوتاً من جوف الدار يقول (مات الشبلي؟).

ولما فتح الباب، إذا ذلك الشيخ، فقلت لا إله إلّا اللّه من شدّة تعجُّبي. فقال الشيخ (لا إله إلّا اللّه).

قلت له (قال لي الشبليّ أمس لمّا التقينا في الورّاقين، غداً يكون لي شأنٌ مع هذا الشيخ. بحق معبودك، من أين لك أن الشبليّ قد مات؟).

فقال الشيخ (يا أبله. فمن أين للشبليّ أن يعرف أن سيكون له معي شأنٌ في هذا اليوم؟)».

سمع أحدهم الشبليّ يتأوّه ويقول:

«أفلا شجيٌ بحنين؟ أفلا رنّةٌ من قلب قريح حزين؟ أفلا شاربٌ بكأس العارفين؟ أفلا مستيقظ من رقدة الغافلين؟».

■ ■ ■

كان محمد بن المنكدر من ولد حارثة بن سعد بن تيم. وكان من قرابة أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنه، إذ كان أبو بكر من ولد كعب بن سعد بن تيم. كان آل المنكدر كلّهم من الأتقياء الصالحين.

قيل له «أيُّ العمل أحبُّ إليك؟» فقال «إدخالُ السرور على المؤمن». وسألوه «فما بقي لك من لذتك؟» فقال «الإفضال على الإخوان».

كان تابعياً جليلاً، أسند عن ابن عمر وجابر وأبي هريرة وابن عبّاس وأنَس وغيرهم. وكان شديد البر بأمّه. قال:

«بات عمر ـ يعني أخاه ـ يصلّي ليلَه ـ وبتُّ أُمسّد رجل أُمي ـ أي يكبّسها بيديه ـ وما أحب أن ليلتي بليلته».

وذكروا أنه صلّى على جنازة رجل لم يكن حسن السيرة، فلاموه

في ذلك، فقال «إني أستحي من الله عزّ وجلّ أن يعلم منّي أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه».

وكان ربيعة بن أبي عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي، من موالي آل المنكدر. قال عنه يونس بن زيد «رأيت أبا حنيفة عند ربيعة وغايةُ جهده أن يفهم ما يقول ربيعة».

روى عنه كبار الأئمة أمثال مالك والثوري واللّيث بن سعد وقال أحمد بن حنبل «ربيعة بن أبي عبد الرحمن ثقة».

وقد حدثوا عنه أنه قال:
«رأيت شيوخ المدينة وأن لهم لغدائر وعليهم الثياب الممصرة والموردة وفي أيديهم المخاصر، وفي أيديهم آثار الحنّاء، في هيئة الفتيان، ودينُ أحدهم أبعد من الثريّا إذا أريد على دينه».

قصد أنهم كانوا أهل نعمة وترف في الظاهر، ولكنهم كانوا أهل تقوى وورع في الباطن.

ومن الّذين كانوا يهتمّون بمظهرهم ـ كما وصفوا ـ الإمام مالك ـ قال مطرف بن عبد الله.
«كان مالك بن أنس طويلاً عظيم الهامة أصلع، أبيض شعر الرأس واللّحية، شديد البياض إلى الشُّقرة. لباسُه الثياب العدنية الجياد».

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل «مالك سيد من سادات أهل العلم. ومن مثلُ مالك؟ مُتبّعٌ لآثار من تقدّم مع عقل وأدب».

ورُوي عن مالك أنه قال «ليس العلم بكثرة الرواية وإنّما هو نور يضعه الله في القلب».

هذا، وكان عبد العزيز بن أبي رواد، مولى في بني المهلّب بن أبي صفرة. ذكروا أنه مكث أربعين سنة لم يرفع رأسه إلى السماء. وقالوا، إنه كان يطوف حول الكعبة، فطعنه أبو جعفر المنصور في خاصرته بإصبعه. فالتفت إليه، ولما عرفه قال «قد علمتُ أنها طعنة جبّار».

ورووا عن الإمام الشافعي أنه قال: «ما ناظرت أحداً قط إلّا أحببت أن يوفّق ويسدّد ويُعان. وما ناظرت أحداً إلّا ولم أبال بيّن الله الحقَّ على لسانه أو لساني».

ومن أقواله أيضاً «أشدُّ الأعمال ثلاثة. الجود من قلّة، والورع في خَلوة، وكلمةُ الحق عند من يُرجى ويُخشى».

وذكروا أن أعرابياً وقف على حلقة الشافعي بعد وفاته فقال «أين قمرُ هذه الحلقة وشمسها؟» فقالوا له إنه قد مات. فبكى بكاء شديداً ثم قال:
«رحمه الله وغفر له. كان يفتح ببيانه مُنغلق الحُجّة، ويسدُّ على خصمه واضح المحجةَ. ويغسل من العارِ وجوهاً مُسودّة، ويوسع بالرأي أبواباً منسدّة». ثم انصرف.

هذا وكان إبراهيم بن إسحاق الحربيّ عالماً زاهداً. وذكروا أن رجلاً من حاشية الخليفة المعتضد حمل إليه عشرة آلاف درهم وقال له، إنها من الخليفة، فأبى أن يأخذها. ثم عاد إليه وقال له «إن أمير

المؤمنين يسألك أن تفرّقها في جيرانك». فقال له «هذا مالٌ لم نشغل أنفسنا بجمعه، فلا نشغلها بتفريقه. قل لأمير المؤمنين، أنْ تركتنا وإلّا تحوّلنا من جوارك».

ذلك، وكان أبو محمد عبد اللّه النيسابوري من أصحاب الجُنيد. وكان يُلقّب بالمرتعش. وكانوا يقولون «عجائب بغداد ثلاث. إشارات الشبلي وطرائف المرتعش وحكايات جعفر الخوّاص». قال رجل في مجلسه «قد طال اللّيل وطاب الهواء». فأطرق المرتعش زمناً ثم أنشد:

لست أدري أطال ليليَ أم لا
كيف يدري بذاك من يتقلّى
لو تفرغتُ لاستطالة ليلي
ولراعي النجوم كنتُ مُخلاًّ

قالوا «فبكى جميع من بالمجلس واستدلوا بذلك على عمارة أوقاته».

الفصل الخامس

المضيئون كالنجوم

يُطلّ علينا ذلك الرجل الماجد، من خلال غيب الماضي، مكسواً بالوقار، مكللاً بالحكمة والحزم. كان من أولئك الرجال الأفذاذ الذين أضاءوا كالنجوم في ظلمات الفوضى التي عمّت حياة العرب في الجاهلية. منهم ممدوحا زهير، الحارث بن عوف وخارجة ابن سنان. ومنهم حاتم الطائي الذي ظل ذكره على كل لسان حتى اليوم، ومنهم قيس بن عاصم المِنْقريّ، الذي أكرمه الله، فأدرك الإسلام وأسلم، ورَثاه عبْدةُ بن الطّبيب، ببيته الشهير:

وما كان قيسٌ هُلكُه هلك واحدٍ
ولكنّه بُنيانُ قوم تهدّما

لا جرم أن موقف الحارث بن عُباد في حرب البسوس، تردّدت له أصداء عند الشعراء على مرّ العصور. من ذلك قول الفرزدق:

أَراهـا نجـومَ الـلّـيـل والـشـمـسُ حَـيَّـةٌ
زحـــامُ بـــنـــات الحارث بـــن عُـــبـــادِ
نـــســـاءٌ أبـــوهـــن الأَغـــرُّ ولم تـــكُـــن
مـــن الحُتِّ فـــي أجْـــبـــالـــهـــا وهَـــدادِ
أبـوهـا الـذي أدنـى الـنّـعـامـةَ بـعـدمـا
أبـــتْ وائـــلٌ فـــي الحرب غـــيـــرَ تمـــادِ

هذا والفرزدق لم يكن من بكر ولا تغلب، بل من تميم. وهو يصف زواجه من امرأة من ذريّة الحارث بن عُباد، إغاظةً لزوجته الأولى وابنة عمه، النُّوَار. والحُتُّ (بضم الحاء) وهَداد (بفتح الهاء) قبيلتان لا وزن لهما في نظر الشاعر.

وحتى الحسن بن هانىء ـ على بُعد ما بينه وبين الحارث بن عُباد ـ لم يجد بُداً من أن يرفع كأسه تحية له، فقال:

فـــمُـــهِّـــدتْ فـــي دنـــانٍ
سَـــقْـــيـــاً لـــهـــا مـــن مِـــهـــاد
حـــتّـــى إذا مـــرّ دهـــرٌ
لـــهـــا أتـــاهـــا عِـــبـــادي
وقـــد تـــنـــاهـــتْ وصـــارتْ
كـــمـــثـــل قَـــبْـــس الـــزّنـــادِ
فـــجـــاءهـــا مـــســـتـــعـــداً
كـــالحارث بـــن عُـــبـــادِ
قـــد لـــفّـــف الـــكُـــمّ مـــنـــه
كـــنـــازعٍ لـــلـــقَـــتـــادِ

ولعله أراد (كخارط للقتاد)، فيكون مرادُه، المثل الشهير، وحرب

وائل. وتكون الإشارة ليست عبثاً، بل هي فن متعمد. وما ذلك ببعيد على هذا الشاعر (المثقف). ولا يخفى أن المجون عند أبي نواس، كان ضرْباً من الحرب، كما قال صراحة:

فـهـذي الحربُ لا حـربٌ
تـغـم الـنـاسَ عُـدوانـا
بـهـا نـقـتـلُـهـم ثـم بـهـا
نـنـشـرُ قـتـلانـا

عفا الله عنه وعنّا وعن أبي عبد الرحمن!

هذا وقد فسّروا، أن العِباديين (بكسر العين) رهطٌ من قبائل عربية شتى، هجروا الأوثان واعتنقوا النصرانية، وقالوا (نحن عباد الله). فيكون صاحب الحان في قصيدة الشاعر الحكميّ نصرانياً.

كان أبطال حرب البسوس (إن صح أنهم أبطال) كلهم فوارس وشعراء. فالحارث بن عُباد، وهو بطلٌ لا مراء، كان ابن عم سعد بن مالك، الشاعر المقاتل. وسعد كان أبا المرقّش الأكبر، وجدّ طرفة بن العبد. وكان المهلهل بن ربيعة جد عمرو بن كلثوم لأُمه، فأم عمرو هي ليلى ابنة المهلهل التي أثارت الفتنة لدى عمرو بن هند، وإلى ذلك يشير ابنها في معلّقته:

بـأيّ مـشـيـئـة عـمـرو بـن هـنـدٍ
تـطـيـع بـنـا الـوشـاةَ وتـزدريـنـا؟
تـهـدّدنـا وتـوعـدنـا، رُويـداً!
مـتـى كـنّـا لأُمـك مَـقْـتـويـنـا؟

يا لها من جُرأة على صاحب التاج! إنما تغلب كانت كما وصفوا،

«لولا الإسلام لأكلت تغلب الناس».

وفوق ذلك، كان المهلهلُ ـ وكليب ـ خالَ امرىء القيس، الذي عدّه معظم القدماء أنه أشعر شعراء الجاهلية. ولعله كذلك في مجموع شعره. فهذا بيت، كما ترى، أنجب شعراء ومحاربين ومغامرين ودعاة شقاق.

أبى الحارث بن عُباد أن يدخل في الحرب، وقال لقومه حين أتوه «قتلتم سيدكم وهدمتم عزّكم ونزعتم مُلكَكم، فوالله لا نساعدكم». ونزع سنان رمحه، ووترَ قوسه، وربط فرسه الشهيرة (النّعامة). واعتزل معه جمع من بطون وائل.

إلّا أن ابن عمه سعد بن مالك، خالفه الرأي، ولم يرض إلّا بالحرب. وكان مُرّة، والدُ جسّاس، أراد أن يجنّبهم ويلات القتال، بأن يدفع بابنه إلى تغلب لتقتله قوداً عن كليب، فأبى سعد بن مالك، وحملهم على الحرب. وفي ذلك يقول معرّضاً بموقف الحارث بن عُباد:

من صدّ عن نيرانها
فأنا ابنُ قيْسٍ لا بَراحُ
صبراً بني قيْسٍ لها
حتى تُريحوا أو تُراحوا
إن الموائلَ خوفَها
يعتاقُه الأجلُ المتاحُ

وهي قصيدة بليغة عدا أن آخرها لا يستقيم مع أولها. فبعد أن احتفى بالحرب وأطنب في وصفها، تذكّر تكاليفها وأهوالها، وأنه

إنما يحارب أهله وعشيرته، فقال كالمستدرك:

كـــيـــف الحيـــاةُ إذا خــلــتْ
مـــنّـــا الـــظـــواهـــرُ والـــبِـــطـــاحُ؟
أيـــن الأَعـــزَّةُ والأســـنّـــةُ
عـــنـــد ذلـــك والـــسَّـــمـــاحُ؟

■ ■ ■

اتفق أكثر الرواة أن السبب في تسمية عدي بن ربيعة، أخي كليب بـ (المهلْهِل) أنه كان أول من هلهل الشعر، أي رقّقه وجعله سلساً. إلّا أن الشيخ الجليل أبا العلاء المعري، يرى غير ذلك، فيقول في بعض محاوراته مع الشعراء في رسالة الغفران:

«يا عدي بن ربيعة. أعْزِزْ عليَّ بولوجك هذا المولج. لو لم آسف عليك إلاّ لأجل قصيدتك التي أولها:

ألـــيـــلـــتَنا بـــذي حُـــسَـــمٍ أنـــيـــري
إذا أنـــتِ انـــقـــضـــيْـــتِ فـــلا تحـــوري

لكانت جديرة بأن تطيلَ الأسف عليك. وقد كنت إذا أنشدتُ أبياتك في ابنتك المزوجة في (جنْب)، تغروْرق من الحزن عيناي. فاخبرْني لم سُميت (مهلهلاً)، فقد قيل إنك سُمّيت بذلك، لأنك أول مَنْ هلهل الشعر، أي رقّقه؟

فيقول: إن الكذب لكثير. وإنما كان لي أخ يقال له (امرؤ القيس)، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبي، فتبعه أخي في زرافة من قومنا، فقال في ذلك:

لـمّـا تـوقَّـل فـي الـكـراع هـجـينُهـم
هـلـهـلـتُ أثـأرُ مـالـكـاً أو صِـنْـبـلا

(هلهلت) أي (قاربتُ)، ويُقال (توقّفتُ). يَعني بـ (الهجين)، زهير بن جناب، فسمي (مهلهلاً). فلما هلك شُبّهتُ به فقيل لي (مهلهل).

فيقول: الآن شفيتَ صدري بحقيقة اليقين».
انتهى كلام أبي العلاء.

وأبيات المهلهل التي أبكت ابا العلاء، هي قوله:
أنـكـحـهـا فـقـدهـا الأراقـمَ فـي
(جـنـبٍ) وكـان الحبـاءُ مـن أَدَمِ
لـو بـ (أبـانـين) جـاء يـخـطـبُـهـا
ضـرج مـا أنـفُ خـاطـبٍ بـدمِ
أصـبـحـتُ لا مُـنْـفـسـاً أصـبـتُ ولا
أُبْـتُ كـريمـاً حُـراً مـن الـنّـدم
هـان عـلـى تـغـلـب بمـا لـقـيـتْ
أخـتُ بـنـي المالـكـي مـن جُـشَـم
لـيـسـوا بـأكـفـائـنـا الـكـرام ولا
يُـغـنـون مـن عَـيْـلـة ولا عـدم

هذا، وفسروا أن (أبانان) جبلان، هنا أبان الأبيض وأبان الأسود. والأراقم، هم بطون تغلب ابن وائل، وقيل حي من تغلب. و(جنب) حي من مذحج باليمن. والمُنْفس المال الكثير. ولعله أراد بقوله (وكان الحباء من آدم) أن المهر كان ضئيلاً مُحتقراً.

أبو العلاء رحمه الله، أدرك في هذه الأبيات بحسه العالي - ومن أقدر منه على فهم الشعر؟ ـ أدرك مأساة (المهلهل)، البطل التراجيدي لحرب البسوس، الذي لم يقدر له أن يموت ميتة الأبطال التراجيديين. مات ميتة الصعاليك. حين تطاولت الحرب، أرسل الحارث بن عُباد البكري ابنه بُجيْرا ـ وفي رواية ضعيفة أنه ابن أخيه ـ إلى تغلب ساعياً باسمه للصّلح. فقتله المهلهل، وقال له قولته الشهيرة (بُؤْ بشسْع نعل كليْب). والشسْع من سيور النّعل. وكان بُجير غلاماً حدثاً. قاتل وهو يجود بأنفاسه «رضيتُ بها أن رضيتْ بكر».

لمّا علم الحارث بمقتل ابنه، أغضبه أكثر شيء أن المهلهل قتله فداء لسيْر من نعل كليب. حينئذٍ لم يجد بداً من الحرب. وإلى ذلك يشير في قصيدته المدوية التي يبدو فيها الغضب المكبوت مثل سماء توشك أن تنهد:

يا بُجيرَ الخيرات لا صلح حتّى
نملأ البيد من رؤوس الرّجال
وتقرّ العيونُ بعد بكاها
حين تسقي الدّما صدورَ العوالي
لم أكُن من جُناتها علم اللّهُ
وإني لحرِّها اليومَ صالي
قد تجنَّبتُ وائلاً ليُفيقوا
فأبتْ تغلبُ عليَّ اعتزالي

وفيها يقول بيته الشهير:

قتلوه بشِسع نعل كليب
إن قتل الكريم بالشسع غالي

هذا ويذكر المهلهل قتله لبُجير، في قصيدته التي أعجبت أبا العلاء، حيث يقول:

علـى أنـي تـركـت بـواردات
بُـجـيْـراً فـي دمٍ مـثـل الـعـبـيـر
هـتـكـتُ بـه بـيـوتَ بـنـي عُـبـاد
وبـعـض الـظّـلـم أشـفـى لـلـصّـدورِ

وقد اختلف الرواة، هل قتله في الحرب، أم قتله غيْلة. ورجّحوا أنه قتله (لتوه) أي بمفرده. و(واردات) من مواقع حرب البسوس، التي كان أولها يوم (عُنيزة) وآخرها يوم (قضة) ـ بكسر القاف وفتح الضّاد ـ يوم حمل لواء بَكر، الحارثُ بن عُباد. وكان من فرسانها الشاعر سعد بن مالك، والشاعر الفنْد الزمانيّ. لذلك كثر الشعر في تلك الحرب الفادحة. حتى الشاعر زهير بن جناب ـ صاحب موقعة (السُلان) ـ أطلّ عليها من علياء شيخوخته المتهدمة!

ذلك، وقصيدة المهلهل التي استحسنها أبو العلاء، إن لم تكن من الشعر العظيم، ففيها نفحات منه، فهي عذبةُ المطلع، لا تخلو من ذلك الطابع المأساوي، الذي أحسه زهير إحساساً عميقاً في معلقته العظيمة. من ذلك قول المهلهل:

غـداةَ كـأنـنـا وبـنـي أبـينا
بـجـنـب عُـنـيْـزة رحْـيـا مُـديـر
فـلـولا الـرّيـحُ أسْـمـع مـنْ بـحَـجْـرٍ
صَـلـيـلَ الـبـيـض تُـقـرع بـالـذُّكـور
وكـانـوا قـومَـنـا فـبـغـوْا عـلـينا
فـقـد لاقـاهـمُ لـفـحُ الـسـعـيـر

عجب القدماء أن صليل السيوف بجنْب عنيزة، يصل إلى (حَجْر)، وقالوا إن ذلك أول العهد. ولا يخفى أن صليل سيوف المهلهل، تجاوبت أصداؤها بعد ذلك بزمن، في شعر حفيده عمرو بن كلثوم.

■ ■ ■

حامي مواقع السحاب

كان كليب بن ربيعة شاعراً، وإن لم يرْقَ إلى منزلة أخيه عديّ، الملقّب بـ (المهلهل)، لأنه (هلهل الشعر)، أي رقّقَه وقاله سجيّة دون تكلف. ولكليب بيت وجد بعض الاستحسان فترة، لكنه لم يصمد لتقلبات الزمان، كما يصمد الشعر العظيم، فأُهمل. قال:

إنْ تـلـمْـنـي عـجـائـزٌ مـن نـزارٍ
فـأرانـي فـيـمـا فـعـلـتُ مُـصـيـبـا

يشير إلى قتلة لبيد بن عنّبسه. وكان لبيد عاملاً لملوك حِمير عليهم، فاستبدَّ فقتله كليب. وكان ذلك سبباً في نشوب الحرب بين الحميرين وبين القبائل من ربيعة ومضر، التي انتهت بهزيمة الحميرين في معركة (خزازى) أو (خزاز)، وهو جبل في تهامة. ولكليب في ذلك أبيات لا قيمة لها من حيث هي شعر، ولكن يغفر لها أن كليباً صدق فيما وصف، فقد كان هو المسعر لنار تلك الحرب. قال:

لقد عرفتْ قحطانُ صبري ونجدتي
غـداةَ خـزازٍ والحقـوقُ دوانِ
غداةَ شفيتُ النفس من ذُلِ حميرٍ
وأورثـتُـهـا ذُلاً بـصـدْقِ طِـعـانـي

بعد ذلك النصر، اجتمعت عليه القبائل من مَعدْ ودانوا له بالطاعة. فكان ينزلهم منازلهم، وينهى ويأمر فيهم. وبلغ من جبروته أنه كان يحمي مواقع السحاب، فلا يرعى أحد ما تحته إلّا بإذنه. ولم تكن توقد نار مع ناره، أو ترعى إبلٌ مع إبله. وضربوا به المثل في العزة والمنعة، فقالوا «أعزّ من كليب وائل».

رووا أنه طاف بحماه يوماً فوجد (قُبّرة) أو (حُمّرة)، قد اتّخذت لها عشاً جعلت ترفّ عليه. فقال لها:
«أنت وفراخك في ذمتي وجواري».
وأنشد:

يا لك من حُمّرة بمعمرِ؟
خلا لك الجو فبيضي وأصفِري
ونقِّري ما شئتِ أن تنقّري

فذلك مصدر المثل. وكانت تلك (الحُمّرة) سبباً في اشتعال نار حرب دامت أربعين عاماً بين بكر وتغلب، أبناء وائل.

قالوا إن كليباً طاف بحماه بعد فترة، ومعه جسّاس بن مرة، أخو زوجته جليلة، وكان قد أذن لإبل جسّاس أن ترعى مع إبله، فوجد أثر جمل قد وطىء العش وكسر البيض. فغضب وقال لجسّاس:

«ما وطىء هذا العش جمل من جمال وائل، وما فعل ذلك إلّا ناقة هذا الجرمي التي ترعى مع إبلك، فلا أراها في الحمى بعد اليوم».

فقال جسّاس:
«أقسمت لا رعت إبلي في موضع إلّا رعت هذه الناقة معها».

فقال كليب:
«لئن وجدتها في الحمى لأضعن سهمي في ضرعها».

فتوعّده جسّاس أيضاً، وكانت الناقة، واسمها (سراب)، لرجل نزل ضيفاً على (البسوس)، خالة جسّاس، ثم إن كليباً سأل، فقيل له إن الناقة ترعى في حماه، فخرج من توه ورماها بسهم في ضرعها. وقال:

سيعلم آل مُرّة حيث كانوا
بأنّ حماي ليس بمستباح

وأقبلت الناقة ترغو وضرعها يسيل لبناً ودماً، فلما رأتها البسوس خالة جسّاس، كشفت عن رأسها وأخذت تلطم وجهها وتولول «وا ذلّاه! وا ذلّ جاراه!» فخرج جسّاس لصراخها، وقال لها:
«اسكتي أيتها المرأة فوالله ليقتلنّ غداً فحلٌ هو أعزّ على وائل من ناقة ضيفك».

وكان لكليب فحل في إبله يفخر به اسمه (عُليّان)، فظن أن جسّاساً يعني الجمل، فقال:
«دون عُليّان خرطُ القتاد» ـ فذهبت مثلاً.

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

إذا أنا عاليتُ القَتود لرحلة
دون عُليّانَ القتادةُ والخرطُ

وهو كعادته يلعب بالكلمات، ويجنس بين (القتود) و(القتاد). وقد فسّروا أن (القتود) من أدوات الرّحل، أو هو الرّحل كله. والرحل للجمل بمثابة السرج للدابة.

وقالوا إن (القتاد) شجرٌ كثير الشوك، لذلك فإن خرطه باليد أمر عسير.

■ ■ ■

المستجير من الرمضاء بالنار

من الأمثلة السائرة حتى اليوم، قولهم:

المستغيث بعمرو عند كُربته
كالمستجير من الرمضاء بالنار

ويُروى أيضاً (المستجير بعمرو). وهو مثلٌ انحدر إلينا من أيام حرب البسوس. وهي حرب لم يقيض الله لها، كما قيّض لحرب عبس وذبيان، شاعراً فحلاً من طراز زهير بن أبي سُلمى، فينتزع من أحشائها الحس المأساوي، في قصيدة هي عندي أعظم المعلّقات لهذا السبب. هذا على كثرة ما قيل في حرب وائل من شعر.

السبب يبدو لنا تافهاً. كليب بن ربيعة أجار (قُبّرة) وفراخها وجعلها في حماه. وجساس بن مرّة، أجار ضيف خالته وناقته. فأي الجارين أحق أن يُرعى؟ إنما جسّاس لم يكن مثل كليب، فقد كان كليب كما وصفوا، يحرّم مواقع القطْر وأماكن المرعى.

عمرو المشار إليه، هو عمرو بن المزدلف. قالوا إن جسّاس بن مرّة، بعد أن أصاب كليبٌ الناقة، تحيّن غفلة من كليب، فرآه وحده وليس معه سلاح، فطعنه برمح بين كتفيه، ولكنه لم يُجهز عليه. فقال له كليب:

«لا تثريب عليك، قد بررت بقسمك، فاسقني شربة ماء». فلم

يستجب له، ولكنه لم يقوَ على قتله، لما كان لكليب من مهابة، فتركه ومضى. فلقي عمرو بن المزدلف، فأخبره. فقال له عمرو «أي شرّ جلبت لنا». وسار من توّه إلى كليب فقال له «يا عمرو اسقني ماء». فقال له عمرو «تجاوزت الأحَصّ وماءه»، وأجهز عليه. فأصبح ذلك أيضاً مثلاً.

و(الأحصُّ) موضع بتهامة كان به ماء معروف عندهم. وهو مثل يذكّر بالمثل الأوروبي «قد عبر نهر روبكْن» إشارة إلى عبور يوليوس قيصر ذلك النهر إلى روما بجيشه واحتلالها، وكانوا يحرّمون على قوادهم حين يعودون من الحروب، أن يدخلوا روما بجيوشهم.

هكذا جاء المثل. «كالمستجير من الرمضاء بالنار». لم يكن كليب شرّاً خالصاً. كان فارساً بطلاً أخا نجدة وأريحية. إلّا أن (الشرخ المأساوي) فيه ـ كما يقولون ـ كانت خيلاءه وإدلاله بنفسه.

وكما في تراجيديا شكسبير، فقد كان حتماً أن يودي به ذلك في نهاية الأمر، كما أودى التردُّد بهاملت والطموح الزائد بماكبث والحماقة بلير. في حرب البسوس عناصر المأساة الشكسبيرية كلُّها لو قُدّر لها شكسبير عربي.

وهذا كليب يفتخر بانتصاره على الحميريين بزعامة زهير بن جناب، في موقعة (السُلاّن)، التي سبقت موقعة (خزاز). وكان زهير بن جناب عاملاً لملوك اليمن على القبائل النزارية، وكان شاعراً ردحاً حتى ملّ الحياة، كما ملّها لبيد صاحب المعلّقة. قال كليب:

دعـانـي داعـيـا مـضـرٍ جـمـيـعـاً
وأنــفــسُــهــم تــدانــت لاخــتــناقِ

فــكــانــت دعــوةً جــمــعــت نــزاراً
ولمّت شــعــثــهــا بــعــد افــتــراقِ
أجــبنا داعــيَــيْ مــضــر وســرْنــا
إلـى الأمــلاك بــالــقُــبِّ الــعِــتــاق
عــلــيــهــا كــلُّ أروعَ مــن نــزار
يُـســاقـي الموت كُـرهـاً مـن يُـسـاقـي
أمــامــهــمُ عــقــابُ الموت يــهــوي
هــويَّ الــدَّلــو أســلــمــه الــعــراقــي

عنى بـ (الأملاك)، ملوك حمير. وفسّروا أن (القُبّ)، بضم القاف، هي الخيل العتاق. وقصد بـ (عقاب الموت) الراية التي كانوا يحملونها في الحرب. ولا أدري إن كانت عليها صورة العقاب كما في رايات هذا الزمان. وذلك ليس ببعيد فقد كانوا أبناء حروب، كما قال صديقنا الدكتور منصور خالد متمثلاً ببيت الشعر القديم:

وأنّـي ابـنُ حـرب مـا تـزال تـهـرُّنـي
كـلابُ عـدوّي أو تـهـرُّ كـلابـي

لكنْ متى يشرق ثبير «فقد غدا هذا الشروق الغولَ والعنقاء»!

هذا، وفسروا أن (العراقي) بفتح العين، هي العوارض من الخشب التي توضع على فم البئر، يستند إليها حبلُ الدلو.

لم يقدر الله لحرب البسوس رجلاً نبيلاً شريفاً على شاكلة الحارث ابن عوف وخارجة بن سنان اللذين حملا ديات القتلى في حرب عبس وذُبيان، فخلدهما زهير في قصيدته العظيمة التي يقول فيها:

تـداركـتـمـا عـبـسـاً وذُبـيـانَ بـعـدمـا
تـفـانـوْا ودقّـوا بـينهم عـطـرَ مـنـشـمِ

وكاد يحدث في شخص الحارث بن عُباد، لولا أن التغلبيين أحبطوا مسعاه للسلم، فألقى بجماع ثقله في الحرب وحسمها آخر الأمر، كما سنذكر إن شاء الله.

ذلك، وجسّاس بن مرّة، صهر كليب، الذي كان سبباً في إشعال نار الحرب، هو من ذُهْل بن شيبان الذي أشار إليهم الشاعر بقوله:

لو كنتُ من مازن لم تَسْتَبِحْ إبلي
بنو اللقيطة من ذهلِ بن شيبانا

■ ■ ■

القتل العبثي

أسمْوا ذلك اليوم أيضاً (يوم التحالق) لأن بني بكر حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضاً في غمرة الحرب. إلّا رجلاً منهم هو قيس بن جَحْدر ابن ضُبيعة، الذي قال لهم:

«لا تحلقوا رأسي فإني رجلٌ قصير، ولكني أشتريه منكم بأول فارس يطلع عليكم من القوم». وكذلك كان.

وفي ذلك اليوم اكتسب عوف بن مالك أخو سعد بن مالك لقب (البُرَك)، لأنه قاتل باركاً، وكان من فرسانهم المَصاعبْ (جمع مُصعَبْ) وقال مرتجزاً «أنا البُرَك. أبرُكَ حيث أدرِك». وإلى يوم (التحالُق) يشير طرفة بن العبد حفيد سعد بن مالك في قوله:

سائلوا عنّا الذي يعرفنا
بقوانا يوم تَحْلاق اللِّمَمْ

هذا وكان المهلهل بن ربيعة التغلبي قد أصابه ما يُشبه الهوَس حين قُتل أخوه كليب، وكأنما وراء ذلك إحساس بالذنب، فقد كان قبل (ضلّيلاً)، كما صار ابن أخته امرؤ القيس بعد ذلك. انهمك انهماكاً في اللهو، حتى لقّبه أخوه كليبٌ بـ (الزّير)، لكثرة تردده على النساء.

ثم أيقظته الصدمة، فتطرّف في الخصومة، كما تطرّف من قبل في اللهو. وإلى ذلك يشير في قوله:

ولـو نُـبِـش المقـابـرُ عـن كُـلـيْـبٍ
فـيـعـلـم بـالـذّنـائـب أيُ زيـرا!

في شعره الذي يرثي فيه أخاه شيءٌ كالذي تجده في بكاء الخنساء على أخيها صخر. وفي قصيدته التي نوّه بها أبو العلاء، نحو من عشرين بيتاً يندب فيها كما تندب المرأة على فقيدها. وكلها تبدأ بشطر واحد (على أنْ ليس عدلاً من كليب):

عـلـى أَنْ لـيـس عَـدْلاً مـن كُـلـيـبٍ
إذا طُـرد الـيـتـيـمُ عـن الـجَـزور
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كُـلـيْـب
إذا هـبَّـت ريـاحُ الـزمـهـريـر
عـلـى أن لـيـس عـدلاً مـن كـلـيـب
إذا بـرزتْ مُـخـبَّـأةُ الخُدور

وهي صيغة تُغري بالانتحال، فبوسعك أن تُضيف إليها إلى ما شاء الله. إلّا أنه لا يُنكَر أن هذا التكرار، يُحدث تأثيراً كما في الشعر الملحميّ عند اليونان.

ذلك، وقال المفسّرون أنه قصد أن الذين قتلهم في الحرب، كلهم لا

يعْدلون مُصابه في كليب. حتى صاحب (اللسان) ذَهب ذلك المذهب. ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن ثمة حذفَ إيجاز في السياق، كأنه يقول لكليب «ليس عدلاً منك أن تذهب وتدع اليتيم يُطرد عن الوليمة، وليس عدلاً منك ألا تكون موجوداً لتجيرَ الضعيف إلخ».

هذا ما تقوله النساء النادبات إلى اليوم. وقد حام حول المعنى نفسه في قوله:

أتـغـدو يـا كـليـبُ مـعـي إذا مـا
جـبـانُ الـقـوم أنجـاه الـفـرارُ؟
أتـغـدو يـا كـليـبُ مـعـي إذا مـا
حُـلـوقُ الـقـوم يـشْـحـذُهـا الـشِّـفـارُ؟

رووا أن المهلهل حين أراد قتل بُجيْر بن الحارث بن عُباد، قال له: «مَنْ خالُك يا غُلام؟».

فقال امرؤ القيس بنُ أَبَان، وكان من فرسان تغلب المعدودين:

«مهلاً يا مهلهل ـ إنّ أبا هذا وأهلَ بيته قد اعتزلوا حربَنا ولم يدخلوا في شيء مما نكْرِه. والله لئن قتلتَه ليُقتَلَنَّ به رجلٌ لا يُسأَلُ عن نسَبه».

فيما بعد ظفر الحارث بن عباد بالمهلهل بعد هزيمة التغلبيين في معركة (قِضَة). ولم يكن يعرفه. فقال له «دُلَّني على المهلهل» قال: «ولي دَمي؟» قال: «ولك دمُك». قال: «ولي ذمّتُك وذمّةُ أبيك؟» فقال الحارث «نعم». فقال: «أنا المهلهل».

لم يجد الحارث بدّاً من إطلاق سراحه، فجزَّ ناصيته، وكانت تلك

عادتُهم حين يطلقون شريفاً من أعدائهم ظفروا به.

وقال له:
«دُلّني على كُفْء لبُجيْر».

فأشار المهلهل إلى امرىء القيس بن أَبان، فحمل عليه الحارث فقتله. وهكذا يكون المهلهل قد فدى نفسه بمقتل الرجل الذي كان قد نهاه عن قتل الصبي!

وإلى ذلك يُشير الحارث في قوله:

لـهـف نـفـسـي عـلـى عـديّ ولم أعْـ
ـرفْ عـديّـاً إذا أمـكـنـتْني الـيـدانِ
طُـلّ مـن طُـلّ فـي الحروب ولم أو
تـرْ بُـجـيـراً أَبـاتُـه ابـن أبـان
فـارسٌ يـضـرب الـكـتـيـبـة بـالـسَّـيـف
وتـسـمـو أمـامَـه الـعـينان

وهذا البيت الأخير، يلزم أن يكون مدحاً لامرىء القيس بن أبان وحسرةً على قتله. ولو كان الحارث أعرض عنه لأضاف إلى أمجاده. لكنهم كانوا أسرى عُرْف صارم، أن دم القتيل لا يُظلّ، أي يذهب دون ثأر.

هذا، وحربُ البسوس كلها قتلٌ عبثيٌّ لا معنى له. ناقةٌ تُقتل بسبب قُبّرة. ورجل سيّدٌ يقتل فداء للنّاقة. وغلام يُقتل بلا سبب. ورجلٌ شريف يُقتل عِوضاً عن القاتل الحقيقي!

■ ■ ■

نهايةُ الـمُهلهِل

تضاربت الروايات في مصير المهلهل بن ربيعة بعد هزيمة (تغلب) في معركة (قِضَة). بعضها يشير أن الحارث بن عُباد البكري، اكتفى بجزٍّ ناصيته إهانة له ثم أطلق سراحه. وعند بعضهم أنهم حبسوه ردحاً. والمهلهل نفسه يذكر في شعره أنه حُبس وضُيّق عليه حبسه، كقوله:

لستُ أرجز لذّةَ العيش ما
أزَمتْ أجْلادُ قِدّ بساقي
جلّلوني جِلدَ حوْبٍ فقد
جعلوا نفسيَ عند التّراقي

لكنه لا يخبرنا متى كان ذلك. وقوله (أزَمت أجلادُ قدّ بساقي)، أي أن الجلد ضغط وانضم على ساقه، و(الحوْب) الجمل الضخم، فيكون أنهم أدخلوه في جلد غضّ من جلود الإبل وتركوه ييبس ويعض على جسده وكان ذلك من ضروب التعذيب عندهم، خاصة تعذيب الرقيق الآبق ـ فأي إذلالٍ لسيد من سادات تغلب ابن وائل!

مهما يكن فإن المهلهل قد عاد إلى قومه على أقبح حال. وبوسعنا أن نتخيّل ما حاق به من الخزي والكمَدْ. وخبّروا أن النسوة والولدان تجمعوا حوله يسألونه عن مصائر ذويهم، فزاده ذلك كمداً. وإلى هذا يشير في قوله:

ليس مثلي يُخبّر الناسَ عن
آبائهم قُتّلوا وينسى القتالا
لم أرِمْ عَرْصةَ الكتيبة حتّى
أنْتعل الوَرْدُ من دماءٍ نعالا

عـــرفـــتـــه رمـــاحُ بـــكْـــر فـــمـــا
يـــأخُـــذْنَ إلاّ لـــبـــانَـــهُ الـــقَـــذالا
غـــلـــبـــونـــا ولا مـــحـــالـــةَ يـــومـــاً
يـــقـــلِـــبُ الـــدّهـــرُ وذاك حـــالاً فـــحـــالا

عنى بقوله (لم أرمْ عَرْصة الكتيبة) أنه لم يهرب من المعركة، و(الورد) إشارة إلى حصانه. و(اللبان) الصّدر، كما حدث لحصان عنترة العبسي في قوله:

مـــا زلـــتُ أرمـــيـــهـــم بـــثـــغـــرة نـــحـــره
ولـــبـــانـــه حـــتّـــى تـــســـرْبـــل بـــالـــدّمِ
فـــأزْوَرَّ مـــن وقـــعْ الـــقـــنـــا بـــلـــبـــانـــه
وشـــكـــا إلـــيَّ بـــعـــبـــرةٍ وتحَـــمْـــحُـــمِ

هذا وكانت القبائل العربية تتشاءم من الرجال الذين يجرونهم جراً إلى الحرب بلا مبرر، رغم أنهم كانوا يضطرون إلى مناصرتهم بدافع العصبية والأعراف والأحلاف بينهم، وكذلك كان المهلهل فعاش مُطَرَّداً بين القبائل.

وحدّث الرّواة أنه خرج حتى لحق بأرض اليمن، فأقام في (جنْب) من بطون (مذحج)، وهذا في حدّ ذاته يدل على أن السبُل أغلقت في وجهه، وأنه لم يجد قبيلة من القبائل النزاريّة تحميه وترضى بجواره، ومعلوم أن (مذحج) من قبائل اليمن التي حاربها كليب أخو المهلهل، في موقعة (السُلاّن) وموقعة (خزازى).

لعلّ الفِنْد الزّماني البكري يشير إلى متاهة المهلهل في تلك

الآونة، في قوله:

وترى (الزّير) يمْعجُ القولَ فينا
بعد ما صار مُفْرداً مُسْتَباحا

والفنْد هذا، كان فارساً قرماً وشاعراً مجيداً، على قلّة ما وصل إلينا من شعره. و(الفند) تعني القطعة الكبيرة من الجبل، سُمّي بذلك لضخامته. وذكروا أنه حارب يوم (قِضة) وقد جاوز المائة من العمر، فأبلى بلاءً عظيماً ذكره في شعره. وله بيتان ذاعا وجريا مجرى المثل، قال:

وبعضُ الحلم عند الجهل
للذِّلة إذْعانُ
وفي الشرّ نجاةٌ حين
لا يُنْجيك إحسانُ

ذلك، وفي (جنْب)، لاقى المهلهل أمرَّ إهانة لحقت به، فقد خطبوا إليه إحدى بناته، ولم يكن يراهم أكفاء، فرفض أن يزوّجهم، لكنهم أكرهوه على ذلك، ولم تكن له حيلة، فخضع لهم. فذلك مبعث أبياته التي أبلت الشيخ الوقور أبا العلاء، ومنها ذلك البيت:

هان على تغلب بما لقيتْ
أختُ بني المالكين من جُشمِ

جُشِم، أهلُ بيته، فهو ابن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم من تغلب من وائل. وكانت أمه من يشكر من بكر، فانحدر إليهم ومات عندهم على الأرجح. وهنالك قال قصيدته التي لا تقل أسى عن أبياته في تزويج ابنته، وفيها يقول:

مـا أُرجِّـي فـي الـعـيـش بـعـد نَـدا
مـا لـيَ أراهـم سُـقـوا بـكـأْسِ حَـلاقِ

■ ■ ■

نهاية جسّاس

حياة كل من المهلهل بن ربيعة وجسّاس بن مُرّة، شِقّيْ الرّحى في حرب البسوس، انتهت نهاية لا بطولية. لكنها نهاية تليق بتلك الحرب العبثية، التي لعب دور البطولة فيها رجالٌ جُرُّوا إليها جراً ولم يكن لهم فيها (ناقة ولا جمل)، كما قال الحارث بن عباد.

ربما يشفع للمهلهل أنه كان شاعراً، صنع من تجربته على علاّتها شعراً لقي استحساناً، حتى من أبي العلاء المعري أحد حُذّاق نقْد الشعر العربي.

أما جسّاس، فنحن لا نكاد نجد له ذكراً بعد فعلته التي أشعلت نار الحرب.

روَوا، أن مرة بن ذُهل بن شيبان بن ثعلبة كان له عشرة أبناء، أصغرهم جسّاس وأكبرهم همام. وكانت أختهم جليلة زوجة لكليب بن ربيعة. وكان همام صديقاً للمهلهل، تآخيا على السراءِ والضرّاء. فبينما هما جالسان ذات يوم، إذْ مرَّ جسّاس مسرعاً على فرس له، وقد كشف عن فخذَيْه. فقال همّام:

«لا بد أن وراءه أمراً جللًا، فإني لم أره قط من قبل كاشفاً فخذيه في ركض».

ولم يلبث أن جاء من يخبرهما بنبأ مقتل كليب، فافترق الصديقان كلٌّ إلى معسكر. وسوف نرى وشيكاً أن الصديق سوف يقتل صديقه.

قالوا إن جسّاساً حين جاء إلى أبيه مُرّة، أدرك حالاً أن وراءه شرّاً، فسأله، فقال جسّاس:
«طعنتُ طعنةً سوف تشغل شيوخ وائل زمناً».

قال له: «أقتلت كليباً؟» قال «نعم».
فقال مُرّة «ويلاه! وددت أنك وأخوتك كنتم مِتُّم قبل هذا. ما بي إلّا أن يتشاءم بي أبناء وائل».

وزعموا أن جسّاساً قال حينئذٍ:

وإنـي قـد جـنـيْـت عـلـيـك حـربـاً
تُـفِـضُّ الـشـيـخَ بـالماء الـقَـراح
تُـنـكِّـل عـن ذُبـابِ الـفَـيّ قـومـاً
وتـدعـو آخـريـن إلـى الـصّـلاح

يشير المهلهل عَرضاً إلى فعلة جسّاس، كأنه لا يعبأ به في قوله:

قـتـيـلٌ مـا قـتـيـل المرء عـمـرو
وجـسّـاسُ بـنُ مُـرّةَ ذو ضـريـرِ

يقصد أن الذي قتل كليباً لم يكن عمرو المزدلف، إنما جسّاس بن مرّة. وقوله (ذو ضرير) أي مقبلٌ على الشر.

لكن المهلهل يصف قتلهم ـ أو قتله ـ لصديقه همّام أخي جسّاس، وصفاً كالحاً، ليس فيه ما نجده في شعر عنترة مثلاً، من رثاء وعطف

على الخصم ـ ناهيك بالصديق وابن العم:

وهـمّـامَ بـنَ مُـرّة قـد تـركـنـا
عـلـيـه الـقُـشْـعُـمـان مـن الـنُّسـورِ
يـنـوءُ بـصـدره والـرُّمـحُ فـيـه
ويَـخْـلـجُـه خِـدَبٌ كـالـبـعـيـرِ

يعني، أن همّام بن مرة يحاول أن ينهض وينزع الرمح من صدره، فيهوي مثل البعير الضخم، جثة تتناوشها النُّسور.

إلّا أن جسّاساً قاتلَ كُليْب، لم تُقدّر له مثل تلك الميتة الشريفة، رغم بشاعتها. مات ميتة عبثية، كما مات المهلهل قاتل بُجير.

أجمع الرواة أنه لم يُقتل في الحرب. تقول رواية طريفة مهما بدا فيها من الافتعال، فإنها تصلح نهاية لحياة شخصية (لا بطولية) مثل جسّاس ـ تقول إن جليلة ابنة مرّة، كانت حاملاً حين قُتل زوجها كُليب. وحين لحقت بأهلها ضمّها أخوها جسّاس إليه إلى أن وضعت غلاماً سماه (الهجرس)، وكفله ورعاه كأنه ابنه. ولم يُعلموه بشيء عن مقتل أبيه. ولما كبر زوّجه ابنته.

وتمضي الرواية فتقول، إن الهجرس تعارك ذات يوم مع رجل من بكر، فقال له:
«إما أن تنتهي وإما أن نلحقك بأبيك كُليْب».

عاد غاضباً إلى أمه جليلة وأخبرها، فأخبرت أخاها. ولما أصبحوا دعاه جسّاس وقال له:
«يا بُني. إنك تعلم أنك عندي بمنزلة الابن، وقد زوجتك ابنتي.

وقد تحارب قومنا زمناً طويلًا بسبب مقتل أبيك، حتى كان يُفني بعضُنا بعضاً. ثم ثُبنا إلى الصلح. وكل ذلك مضى وانقضى. أما وقد علمت، من أمرك ما علمت. فإني أرى أن تدخل في ما دخل فيه الناس، وأن تنطلق حتى نأخذ عليك ما أُخذ على قومنا».

فقال الهجرس «نعم، ولكن مثلي لا يأتي قومَه إلّا بلأمته وفرسه».

فلبس عدة حربه وركب فرسه، وسار مع جسّاس، حتى أتوا وجوه قومهما، فقال جسّاس:
«هذا ابن أختي جاء ليدخل في ما دخل فيه الناس من صلح».

ولما أحضروا قدح الدم، كما كانت عادتهم حين يحلفون، أن يغمسوا أيديهم في دم أو طيب أو رماد، أخذ الهجرس برمحه وقال:
«وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليْه، وسيفي وغراريْه، لا يترك الرجلُ قاتل أبيه وهو ينظر إليه». ثم طعن خاله جسّاساً فقتله، وانطلق لاحقاً برهط أبيه.

أليس هكذا يجب أن تكتمل حلقات تلك السلسلة الملعونة؟

بقي صوتُ المرأة في هذه المأساة. صوت جليلة ابنة مُرّة، زوج كليب وأخت جسّاس وأم الهجرس وختن المهلهل.

■ ■ ■

صوت المرأة

حدّثنا الرواة، أن نساء تغلب حين اجتمعن في مأتم كُليب، قلن لأخته أن وجود زوجته جليلة معهن لا يليق، وفيه شماتة وعار، فقالت لها:

«أنتِ أُختُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا فاخرجي عنا». فلحقت جليلة ابنة مُرّة بأهلها. وذكروا أن أخت كليب قالت:

«رحلةُ المعتدي وفراقُ الشامت. ويلٌ غداً لآل مرّة، من الكرة بعد الكرة».

وقالوا إن جليلة حين بلغها ذلك قالت:
«كيف تشمت الحرّة بهتك سترها وترقُّب وَتْرها؟».

هذا، وقد نسبت كتب الأدب إلى جليلة ابنة مرّة، قصيدة ـ على بساطتها ـ هي في ظني أبلغ من كل الشعر الذي انتهى إلينا من حرب البسوس، في التعبير عن مأساة تلك الحرب وفداحتها. ولا يضير القصيدة أن بعض الرّواة شكّكوا في نسبتها إلى جليلة زوجة كليب. وذهب أحدهم إلى أن قائلتها هي فاطمة ابنة ربيعة أخت كليب. ويُسقط تلك الرواية جملةً أن صاحبها قال إن فاطمة كانت زوجة جسّاس بن مرّة، إذْ المتواتر أن فاطمة أم امرىء القيس بن حُجر الكندي.

كذلك لا يضير القصيدة أن عميد الأدب العربيّ رحمه الله، ازدراها في كتابه عن الشعر الجاهلي، بسبب بساطتها وسلاستها، واعتبرها من انتحال الرواة في الإسلام. وقد اعتبر شعر (المهلهل)

أيضاً شعراً منحولاً. قال:

«لكننا لا نريد أن نترك مهلهلاً هذا دون أن نضيف إليه امرأة أخيه جليلة التي رثت كليباً ـ فيما يقول الرواة ـ بشعر لا ندري أيستطيع شاعر أو شاعرة في هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منه سهولة وليناً وابتذالاً».

رحم الله العميد وغفر له. فهو رغم سعة علمه ودقّة فهمه، أراد أن يثبت في كتابه ذاك، نظرة مسبقة، فتزمت أي تزمُّت، ككل أصحاب النظريات المتعسّفة.

كان يعلم بطبيعة الحال، أن البساطة والسلاسة والابتذال أحياناً، تجري في أوصال شعر الإنسانية قاطبة منذ أن قيل الشعر. وإلاّ فما هو الطريف في مثل هذا القول للشاعر اليوناني القديم (بِنْدار) ـ من القرن الخامس بعد الميلاد ـ الذي أسموه (أمير الشعراء وشاعر الأمراء):

«ما حياةُ الإنسان إلّا بعض يوم،
ماذا يكون الإنسان؟ وماذا لا يكون؟
إنه لا أكثر من سمادير حلُم،
حينئذٍ تعمّ البهجة وتصير الحياة حلوة مثل العسل».

أليس أجمل من هذا قول لبيد؟:

فإن تسألينا: فيمَ نحن؟ فإننا
عصافيرُ من هذا الأنام المسُحَّرِ
نحلُّ بلاداً كلُّها حُلَّ قبلنا
ونرجو الفلاحَ بعد عادٍ وحميرِ

كان العميد رحمه الله، حفِياً بالأدب اليوناني القديم، ولم نقرأ له أنه شك في وجود (بندار) أو (هوميروس) أو (سوفوكليس) أو (يوربديس).

لم تكن جليلة ابنة مرّة شاعرة احترفت صناعة الشعر، بل كانت امرأة عادية، إلّا أنها ورثت كسائر العرب، وعلى الأخص في ذلك الزمان سليقةً شاعرية. والعواطف الإنسانية لم تتغيّر - عواطف الأمومة والأبوة والرجاء والخوف والفرح والحزن. فلما رماها الدهر بأفظع ما يرمي به امرأة، عبّرت عن نفسها ببساطة وعفوية، فلماذا لا نقبل الشعر على أنه شعرها؟

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به
سقفَ بيْتي جميعاً من علِ
هدم البيتَ الذي استحدثتهُ
وانثنى في هدم بيتي الأولِ
ورماني قتلُه من كثب
رميةَ المصُمى به المستأصلِ

هذه الأبيات على بساطتها، تُعرب في اعتقادي عن موقف إنساني لا يقلّ تأثيراً وعمقاً، عما نجده في مواقف مماثلة في تراجيديا اليونان، وحتى عند شكسبير. وها هوذا شكسبير، يقول على لسان (كليوبترا) وهي تندب عشيقها (أنتوني):

«يا أنبلَ الرجال! هل تموت؟
ألا يهمّك أمري؟
هل ترحل وتتركني وحيدةً في هذا العالم، الذي

سوف يكون بعدك مثل القذى في العين.
يا نسائي! انظرْن إلى تاج الدنيا يذوب،
وإلى إكليل الغار يذوي
وإلى رمح البطولة يهوي.
الأطفال سوف يتطاولون على الرّجال،
ولن يبقى شيءٌ عجيب ومدهش
تحت ضوء القمر».

هذا والنص في أصله الإنجليزي، مكتوب بسلاسة وبساطة تقرب من الابتذال. وليس فيه كلمة واحدة ليست متداولة هذه الأيام.

قارنْ بين أبيات شكسبير، وأبيات جليلة ابنة مرّة، وهي تندب حالها وحال قبيلة وائل بشقّيْها، وتختصر مأساة الحرب كلها:

يا نسائي دونكنّ اليومَ قد
خصّني الدهرُ برزءٍ مُعْضِلِ
خصّني قتلُ كليب بلظى
من ورائي ولظى مُسْتَقْبِلي
ليته كان دمي فاحتلبوا
بدلاً منه دماً من أكْحلي
إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ
ولعلّ اللّهَ أن يرتاح لي

هذا صوت المرأة الثّكْلى في كل الحروب، وفي كل العصور. وإذا كان الشعر مُنْتَحلاً، فللّه درُّ الذي انتحله!

■ ■ ■

دبت الفتن

كان من أمر سعيد بن العاص حين دخل الكوفة، بعد أن ولّاه عثمان رضي الله عنه خلفاً للوليد بن عقبة، أنه صعد المنبر وخطب خطبة قصيرة، تُذكِّر بخطبة زياد بن أبيه في البصرة فيما بعد، وخطبة الحجاج في الكوفة، كأنما في تيْنك المدينتيْن شيء يحرك الفظاظة في الوُلاة، ويستصرخ العنف. لن يطول الزمن بالكوفة حتى تشهد أحداثاً دامية، سوف تعكّر صفوها، وتملؤها بالأسى والغضب والإحساس بالذنب أمداً طويلاً.

قال سعيد بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«والله لقد بُعثتُ إليكم وإني لكاره، ولكنيِ لم أجد بداً إذا أُمرت أن أُطيع. ألا إن الفتنة قد أطْلعتْ خُطَمَها وعينيْها، ووالله لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تُعييني، وإني لرائد نفسي اليوم».

لم يلبث أن أعياه الأمر، لأن طبعه لم يساعده على الخوض في الدماء، كما فعل زياد والحجاج بعد ذلك. كتب إلى الخليفة يقول:

«إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف والبيوتات والسابقة والقُدمة. غلب على البلاد روادف ردَفتْ، وأعراب لحقت، حتى ما يُنظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازِلتِها ولا نابتتها».

كذلك حال المدن على مر الزمان. لم تعد الكوفة هي الكوفة التي اختطّها عمر رضي الله عنه. اتّسعت ووفدت عليها أخلاطٌ من الناس، وكثر المال، وتفاوت الناس في الغنى والفقر. وتجد أصداء

لهذه الفوضى في أبيات عَبْدة بن الطبيب، في قصيدته العصماء، التي قالها في ذاك الوقت، أو نحوه بقليل:

إن الـتـي ضـربـت داراً مُـهـاجـرةً
بـكـوفـة الجنـد غـالـبـت وُدَّهـا غـولُ
حـلَّـت خُـولـيـةُ فـي دارِ مُـجـاورةٍ
أَمـهـل المدائـن فـيـهـا الـدِّيـكُ والـفـيـلُ

ردّ عليه الخليفة الرضي رداً هيّناً ليّناً، كأنه صرخة في واد:

«أما بعد، ففضّل أهل السابقة والقدمة، ممّن فتح الله عليه تلك البلاد. وليكن من نزلها بسببهم تَبعاً لهم، إلّا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزلتَه، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس بها يُصاب العدل».

خطاب مُهذَّب، لزمان مهذّب، إنما الزمان كان قد تغيّر، خاصة في الكوفة.

عمل سعيد بنصيحة عثمان، فقرّب إليه وجوه الناس والذين حاربوا في القادسية وحملة القرآن وأهل الرأي. كل ذلك لم يُجدْه نفعاً. صارت المدينة كما وصفوا «كانت الكوفة كأنها كانت يبساً اشتعلت فيه النار، وفشت القالةُ والإذاعة».

سرعان ما انطلق النّفر أنفسهم الذين كادوا للوليد من قبل، إلى الخليفة في المدينة يطالبون بعزل سعيد. وكان فيهم الأشتر مالك بن الحارث. ولحق بهم سعيد. إلّا أن الخليفة لم يستجب لهم هذه المرة، وأبى أن يعزل سعيداً وأمره أن يعود إلى عمله. لكن الأشتر جمع

حوله جيشاً وسبق سعيداً إلى الكوفة واستولى عليها. وخطب على المنبر فقال:

«هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لصبْية من قريش. السواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيؤكم وفيء آبائكم. فمن كان يرى لله عليه حقاً فلْينْهض إلى الجرعة».

لخّص الأشتر في تلك الكلمات القليلة، التيارات الجديدة التي ظهرت في المجتمع الإسلامي، وهي تيارات سوف تتسع، وتدمر دولاً وراء دول. والخليفة الرّضي في المدينة يحاول أن يصدّ الطوفان بيديه اللّتين أوهنهما الكبر. ولكن هيهات.

خرجوا مع الأشتر إلى الجَرعة، بين الكوفة والحيرة، ومنعوا سعيداً من دخول الكوفة، فعاد أدراجه إلى المدينة.

ثم إن الأشتر طلب من أبي موسى الأشعري أن يتقلّد الولاية، فقال:

«ما كنتُ لأفعل، ولكن هلمّوا فبايعوا أمير المؤمنين عثمان وجدّدوا له البيعة في أعناقكم». فأجابوه، وكتب بذلك إلى عثمان فأقره على ولاية الكوفة.

وجدير بالذكر أن أهل العراق كانوا قد تسبّبوا من قبل في عزل أبي موسى الأشعري عن ولاية البصرة، بعد أن لبث فيها ست سنوات في خلافة عثمان. ذكروا أن رجلاً يُدعى غيلان بن خَرَشة الضبّي، سافر إلى المدينة وقال لعثمان على ملأ من قريش:

«يا معشر قريش! أما منكم خسيسٌ فترفعوه؟ أما منكم فقير

فتجبروه؟ حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟».

ولعمري ما أراد أخو بني ضبّة بكلماته وجْهَ الحق، فما لضبّة وصلاح قريش. وما كان الصحابي الجليل عبد الله بن قيس متّهماً. لكن عثمان عزله فاستقر بالكوفة، حتى وليها يومئذٍ، تحت ظلال سيوف الغوغاء بزعامة الأشتر.

كانت تلك من بدايات الاستهتار بهيبة الدولة، وما هي إلّا خطوة، حتى يحاصروا المدينة، ويقتلوا الخليفة.

خطب عثمان في تلك الأيام فقال:
«يا أهل المدينة، استعدّوا واستمسكوا، فقد دبّت إليكم الفِتن».

■ ■ ■

جبرا إبراهيم جبرا

أحزنني نبأ وفاة جبرا إبراهيم جبرا حزناً مضاعفاً، فقد تذكرت يوسف الخال وتوفيق صايغ. ظلوا مرتبطين في خيالي منذ تعرفت بهم في بيروت أوائل الستينيات، مرتبطين بالضوء والبهجة والأحلام التي بدت يومئذٍ قريبة المنال.

يوسف الخال كان واسطة العقد، أريحياً (شيخ عرب). كان سعيداً بمشروعه الثقافي، يريد أن يحدث ثورة في الثقافة العربية بواسطة دار مجلة «شعر». كان أكثرهم خبرة بالحياة وأقدرهم على التحمل، فالتفوا حوله. شجع أصحاب المواهب وهيّأ لهم أسباب النشر والذيوع، وكثيرون يدينون له بالفضل، وكان يسعده أن يُشبَّه

بالشاعر الأميركي (أزرا باوند) والدور الذي قام به في رعاية الشعراء.

توفيق صايغ كان شاعراً صرفاً، وكان أقلهم قدرة على مصابرة الحياة، لذلك لم يلبث أن مات مغترباً كسير القلب في أميركا. مات قبل أن يبلغ الخمسين وكان يحلم أن يموت ميتة الشعراء الرومانسيين، أمثال شلي وكيتس وبايرون.

كانوا يُتّهمون بأنهم موالون للغرب ـ وبعض الناس اتهمهم بالعمالة صراحة. يوسف الخال كان يحمل الجنسية الأميركية مع جنسيته اللبنانية، وكان شديد الثقة بالنفس وفيه ميل للسخرية فلم يأخذ ذلك مأخذ الجد، ولم يتأثر كثيراً ـ في الظاهر على الأقل. كان مخلصاً في قناعته بالتعاون الثقافي، ولم يجد غضاضة في الاستعانة بالمؤسسات الثقافية الأميركية في إقامة مشروعه الثقافي.

توفيق صايغ بحكم تعليمه، كان متعاطفاً مع الفكر الليبرالي الغربي، فقد تعلم في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي هارفارد وأوكسفورد وكيمبردج. وحتى بعد ضياع فلسطين، لم يفقد الأمل في إقامة الجسور مع الغرب، ولم يكن اعتباطاً أنه سمى مجلته «حوار».

لذلك فإن فشل تلك التجربة، والظروف التي أحاطت بصدور مجلة «حوار» وتوقفها وما صاحب ذلك من هجوم شخصي على توفيق صايغ، بلغ أحياناً مبلغاً عظيماً من الشراسة والتجني، كل ذلك أصابه بصدمة عنيفة وخيبة أمل لا حدود لها، مات في أميركا ميتة طبيعية أشبه بالانتحار. كانت مأساته مثلاً صارخاً على خيبة الأمل،

التي أصابت عدداً من المفكرين العرب، وخاصة من بلاد الشام، الذين حاولوا مخلصين إقامة جسور مع الغرب.

كان توفيق صايغ إنساناً متفرداً بحق في نزاهته العقلية، وإنسانيته الغامرة، وقدراته الفكرية التي لم يمهله الزمن ليعبر عنها تعبيراً أوسع. هذا بالإضافة إلى أنه كان من أهم الشعراء المجددين. وقد جعل من مجلة «حوار»، صوتاً ثقافياً بعيد المدى. لأجل ذلك، ظل هذان الشاعران الكبيران والإنسانان الممتازان، يوسف الخال وتوفيق صايغ، ظلّا مغموطي الحق زمناً، إلى أن جاء صديقهما الوفي، رياض نجيب الريّس فاحتفى بهما كما يليق بهما ويليق به. احتفى بيوسف الخال في حياته وبعد وفاته واحتفى بتوفيق صايغ وأعاد طباعة أعماله الكاملة.

أما جبرا، فقد كان أحسن الثلاثة حظاً. هو أيضاً لم يسلم من بعض التجني، فلم يلق الاعتراف الواسع بمواهبه، خاصة في مجال النقد، إلّا في السنوات الأخيرة. لكنه استطاع بجلد ودأب، أن يكمل مشروعه الثقافي، أو كاد. وقد ترك تراثاً ضخماً متنوعاً، يحمل كله سمات موهبته الكبيرة.

كان هو أيضاً نتاج تعليم غربي راقٍ متحرر، في مدارس فلسطين أيام الانتداب، ثم في جامعة كيمبردج في إنجلترا. كان مثله في ذلك جمال محمد أحمد، فقد كان بين مدارس السودان على عهد الإنجليز، وبين مدارس فلسطين وجوه شبه. ثم درس جمال محمد أحمد في جامعة أوكسفورد. كانا أيضاً متشابهين في بوهيميتهما الرصينة، لذلك توثّقت الصلات بينهما خاصة حين كان جمال محمد أحمد سفيراً للسودان في بغداد.

كان جبرا علماً من معالم بغداد. أيام أسواق المربد العامرة، كان دائماً واضحاً يشار إليه في الزحام. كان مؤثراً أبلغ التأثير إذا حاجج وإذا حاور وإذا حاضر. كان ناصع البيان باللغتين العربية والإنجليزية. وقد أسدى خدمة عظيمة للأمة العربية بواسطة المحاضرات التي ظل يعطيها في أوروبا وأميركا بلغته الإنجليزية العالية. كان صوتاً من هذه الأصوات العربية المبينة التي لم تزل تحاول أن تضيء الظلام الذي ران على عقول الأوروبيين والأميركان، عن العرب وحضارتهم.

لم يكد يترك باباً من أبواب الفن إلّا طرقه، وقد نجح في كل شيء حاوله.

لكنه في رأيي كان أعظم ما يكون ناقداً. كان واحداً من أهم النقاد العرب. امتاز نقده بخلوه من التقعر الأكاديمي، والالتزام الإيديولوجي المبيت الذي يعمي البصيرة. كان ناقداً حراً عميق الثقافة ذا بصيرة نافذة وذوق جمالي سليم. ولم يكن يهاب أن يتحمس لعمل وينوه به إذا أحبه، ولا يخفي حماسته وراء ستار الموضوعية المصطنعة.

سوف أذكره كما رأيته آخر مرة في عمان، كان رغم إحساسه العميق بمأساوية كل ما حدث، متوهجاً كثير الضحك يحيط به المعجبون، وأغلبهم من النساء. كان يطربه أن تحيط به النساء الجميلات. لم يكن يبدو عليه أنه جاوز السبعين، ولم يكن يبدو عليه أنه يضحك، قاب قوسين من الرحيل.

القسم الثاني

من أعلام الفرنجة

اللورد بتلر

حين تعيد قراءة كتاب تمتَّعت به في حينه، فكأنك لقيت صديقاً غاب عنك زمناً. هذا ما حدث لي منذ أيام، مع كتاب عنوانه «فن التذكر» لذلك السياسي البريطاني العتيد (لورد بتْلر)، وكنت قد قرأته أول صدوره عام ١٩٨٢.

ألّف (لورد بتلر) هذا الكتاب وهو منزوٍ في جامعة أكسفورد، بعد أن خاب أمله في السياسة، وحرمته الأقدار أن يحقق طموحه في رئاسة الوزارة، وكان على قاب قوسين من المنصب، فتركها وفي نفسه بعض الحسرة. وكما يفعل الإنجليز، وتلك من الأشياء المحبَّبة عندهم، فقد حيّاه خصمه السياسي اللدود (هارولد ولسن) وكان يومئذٍ رئيساً للوزارة في حكومة العمال، فجعله رئيساً لإحدى كليات جامعة أكسفورد.

لذلك تجد في الكتاب طيفاً بعيداً من المرارة، أقول بعيداً، لأن الكاتب كان من تلك الطبقة من الإنجليز الذين عُودوا أن يملكوا زمام عواطفهم، فلا تكاد تبين، ولكن روح السخرية أوضح، فقد كان (لورد بتلر) معروفاً بذلك، يحكي في كتابه الأول (فن السياسة) أن المهاتما غاندي حين جاء إلى مؤتمر المائدة المستديرة، ورفعوا الجلسة للغداء، أحضروا للمهاتما غاندي، لأنه كان نباتياً، طعاماً خاصاً من محلات (فورْتْنَم آند ميسْنْ)، وهي محلات غالية تتسوق منها الطبقات العليا. أحضروا له عنباً وجبناً ولبناً رائباً وغير ذلك. يقول بتلر «قلت للمهاتما إن طعامه الفقير ذاك، قد كلّف أكثر بكثير مما لو تغدّى معنا».

ويجد القارىء بين سطور الكتاب، غير قليل من الحزن، لأن بريطانيا في أوائل الثمانينيات، بدأت تسير في طريق مختلف تماماً عن الطريق الذي أراده لها (لورد بتلر) وأمثاله من الزعماء.

ولا بد أنه عجب، وهو في منفاه في أكسفورد، كيف أن حزب المحافظين الذي ضنَّ عليه هو بالزعامة، أسلم قياده لزعيمة، هي على النقيض تماماً مما يجب أن يكون عليه الزعيم المحافظ في نظره.

كان (بتلر) من هؤلاء الإنجليز المستنيرين المتحضرين، الذين لا يملك الإنسان ـ مهما كان رأيه ـ إلّا أن يعجب بهم. كان سياسياً على درجة عالية من الخبرة والذكاء والكفاءة.

ورغم ذلك، فكنت حين تراه يتحدث على التلفزيون، تحسّ أنه لا يأخذ نفسه مأخذ الجد، وكأنه ليس مقتنعاً بالدور الذي يؤديه، تمام الاقتناع.

تقلّد كل الوزارات الكبرى في الدولة، فكان وزيراً للتعليم، ووزيراً للداخلية ووزيراً للخارجية، ووزيراً للمالية. وقد انخرط في العمل السياسي قبل الحرب العالمية الثانية، وعمل في حكومة (تشيمبرلين). ثم صار وزيراً للتعليم في الوزارة الإئتلافية خلال سنوات الحرب برئاسة (تشيرشل)، ويرجع له الفضل، أنه في عام ١٩٤٤ حصل على موافقة البرلمان على مشروعه الذي كان بمثابة ثورة، وأرسى القواعد التي يقوم عليها التعليم في بريطانيا إلى اليوم.

يقول الزعيم العمالي (دنيس هيلي) إن (بتلر) هو الذي «أدخل حزب المحافظين إلى القرن العشرين». وواقع الأمر، أن (بتلر) استطاع أن يقنع ذلك الحزب، خاصة في تلك الأيام، منذ قرابة خمسين عاماً، حين كان الحزب يعتمد على طبقة النبلاء، وكبار الملّاك، أن يقبل الإصلاحات التي أدخلتها حكومة العمال بزعامة (كلمنت أتلي) لمصلحة الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة، وعدم المساس بما أسموه (دولة الرفاه العام) واعتبارها مؤسسة ثابتة، بصرف النظر عن الحزب الذي يحكم.

كان يؤمن بـ (الوفاق) و(الإجماع)، وقد استطاع مع عدد من المعتدلين في حزب العمال أمثال (هيو قيتسكل)، أن يضعوا الأسس التي قام عليها الحكم في بريطانيا، منذ الحرب العالمية الثانية، إلى أن ظهرت (مسز ثاتشر) أوائل الثمانينيات. وقد ساد في تلك الأيام، تعبير (بتْشكِلسْم) للتدليل على مناخ الوفاق بين الحزبين.

كانت (مسز ثاتشر) طرازاً جديداً من الزعماء لم يألفه الإنجليز منذ قرون إلّا في حالات الحرب. وقد وصفها أحد الزعماء المحافظين «أنها تقود ثورة مستمرة مثل الثورة الثقافية للزعيم الصيني الشيوعي

ماو تسي تونغ». أعلنت صراحة أنها لا تؤمن بـ (الإجماع) وتعتبره سبباً لتخلف بريطانيا، وأن لديها برنامجاً سياسياً محدداً تهدف إلى تنفيذه بأي ثمن. وبالفعل أخذت في تقليص دور الدولة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وترك الفرد يواجه الحياة حسب قدراته. وأطلقت العنان لقوانين العرض والطلب، على هدي النظريات الاقتصادية المتطرفة عن (حرية السوق) للأكاديمي الأميركي (ملْتن فريدْمان).

إلاّ أن النزوع إلى الوفاق والإجماع، عميق الجذور لدى البريطانيين، ولعله من أكثر الأمور جاذبية في فكرهم وفلسفتهم. ولعل الطريقة التي خرجت بها (مسز ثاتشر) من الحكم، دليل على أن (بتلر) وأمثاله كانوا أكثر حكمة.

لم تكن لديه فرصة لخلافة (ونستون تشيرشل) على زعامة حزب المحافظين ورئاسة الحكومة، فقد كان (أنتوني إيدن) يستعد لذلك منذ زمن، وكان محبوباً عند أهل الحل والربط. كان حزب المحافظين يحترم (بتلر)، ويقبل أفكاره على مضض، ولكنه لم يكن يطمئن إليه كل الاطمئنان. وفي تقاليدهم عدم اللجوء إلى متفوقي الذكاء، إلّا في الحالات الطارئة.

كان يظن أن الأوضاع التي جدّت. بعد حرب السويس، واستقالة إيدن ولم يكمل عامه الثالث في الحكم، أن تلك الأوضاع تحتم اللجوء إلى رجل مثل (بتلر). لكنهم أغفلوه واختاروا بدلاً منه، سياسياً ثعلباً هو (هارولد ماكملان). وكان (ماكملان) متزوجاً من ابنة دوق، وأمتن صلة بالقوى الفاعلة في الحزب.

تعرضت حكومة (ماكملان) إلى هزات عنيفة أواخر أيامها. وحين استقال، كان يوجد ما يشبه الإجماع، على أن حزب المحافظين سوف يلجأ أخيراً، إلى الرجل الذي يتفوق على كل منافسيه، خبرة وذكاء وحصافة. لكنهم اختاروا بدلاً من (بتلر) أحد اللوردات الإسكتلنديين (لورد هيوم) الذي اضطر إلى التنازل عن لقبه، وترشيح نفسه في دائرة برلمانية وجدوها له للدخول في مجلس العموم، ليكون رئيساً للوزارة.

حينئذٍ أحس (بتلر) أنه قد وصل إلى نهاية الطريق، فنفض يده من الأمر برمته. وقد أطلق قولة ظلت تُذكر له في نهاية مؤتمر حزب المحافظين، إثر استقالة (ماكملان):

«كان المؤتمر شيئاً مؤسفاً، خرجنا منه، أنا وزوجتي، دون أضرار تُذكر».

■ ■ ■

اختار (لورد بتلر)، أو (راب بتْلر)، كما كان يُعرف قبل أن يُمنح لقب لورد تتويجاً لحياته السياسية ـ كما جرت العادة ـ اختار تسعة أصدقاء للحديث في كتابه (فن التذكّر). والاختيار في حد ذاته، يدل على أن (بتلر) كان سياسياً من طراز غير عادي. كان، كما يظهر من تنوّع هؤلاء الأصدقاء، متعدد الاهتمامات، ينظر إلى القضايا من منطلق قومي عريض، متجاوزاً الولاءات الحزبية الضيقة.

أول ما يلفت النظر، أن (بتلر) اختار زعيمين من حزب العمال، لا يبدو لأول وهلة أنه يوجد بينه وبينهما شيء مشترك. لو أنه اختار

(سير ستافورد كربْس) أو (هيو قيتْسكل) أو حتى (مايكل فوت)، لكان الأمر طبيعياً. فهؤلاء جميعاً ينتمون إلى الطبقة العليا التي ينتمي إليها (بتلر)، وتعلموا في المدارس والجامعات التي تعلم هو فيها. أما أن يعدّ (أنوارين بيفان) من الرجال الأثيرين عنده، فذلك هو الغريب.

جاء (بيفان) من بيئة عُمال المناجم في ويلز ـ وكان متوقّد الذكاء، فصيح اللّسان، من الخطباء المعدودين في تاريخ البرلمان البريطاني. وكان شديد الخصومة لحزب الحافظين، فحمل عليهم حَملات ما تزال تتردّد أصداؤها إلى اليوم.

من بين أصدقاء (بتلر) الذين يضمهم هذا الكتاب، الزعيم الهندي (جواهر لال نهرو)، الذي يرجع إليه الفضل ـ بعد غاندي ـ أنه انتزع الهند من السيطرة البريطانية. ولكن لعل هذا الاختيار ليس غريباً كما يتبادر إلى الذهن، فقد كان (نهرو) رغم عدائه السياسي لبريطانيا شديد التأثر بالحضارة الإنجليزية، وعظيم الإعجاب بثقافتهم. وكان يتحدث ويكتب بلغة إنجليزية فاخرة.

ومنهم رجل دين، كان كبيراً لأساقفة (كانتربري) هو (وليم تمِبلْ). وهذا أيضاً اختيار لا يخلو من الغرابة، إذ إن (تمبل) لم يكن كبقية زعماء الكنيسة. كان يسارياً يؤمن بمبادىء حزب العمال. ويذكر (بتلر) أنه لولا دعْم (تمبل)، لما استطاع أن يضم التعليم الكنسي إلى سلطة الدولة.

اختار الكاتب شاعراً هو (شارلز سورْلي) الذي قتل عام ١٩١٥ في الحرب العالمية الأولى، وهو في سن العشرين. وكان ابن خالته. وقد

كان شاعراً موهوباً من الشعراء الإنجليز الذين عرفوا بـ (شعراء الحرب).

يركّز (بتلر) أن الشاعر، الذي درس وعاش فترة في ألمانيا، كان يعبّر في قصائده ورسائله، عن حب عميق للشعب الألماني. ويقتطف من رسالة بعث بها (سورلي) من الجبهة، يقول فيها إنه حين سمع مجموعة من الجنود الألمان ينشدون نشيداً حماسياً... «طربت طرباً شديداً، وأحسستُ أنني مستعد لأن أموت فداء لألمانيا... هذا خطأ بالطبع، ولكن لو أنك سمعت ذلك النشيد كما سمعته أنا، لعلك كنت تحس بما أحسستُ به».

ويقول (بتلر) إن حياة (سورلي) في ألمانيا «جعلته يرى خصالاً طيبة كثيرة في العدو».

روح الإنصاف، والقدرة على النظر من جانبين، التي يتميّز بها هذا السياسي الفذ، تتضح أكثر مما تتضح في الفصل الذي كتبه (بتلر) عن الزعيم العمالي الضخم (إيرنست بفن). وهو فصل من أروع ما يقرأ الإنسان من شهادات الإنصاف في التاريخ المعاصر.

كان (أرنست بفن) أسطورة بحق. وُلد لقيطاً لا يُعرف له أب. ولم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى توفيت أمه. واضطر أن يترك الدراسة وهو في سن الحادية عشرة. عمل أجيراً في مزرعة لقاء ستة بنسات في الأسبوع، ثم عمل حمّالاً في الميناء. لكنه سرعان ما أصبح أحد الأعضاء البارزين في نقابة عمال الشحن.

يصف (لورد بتلر)، كيف أن (بفن) لفت إليه الأنظار وهو في الخامسة

والثلاثين من العمر، حين تولى بمفرده الدفاع عن قضية عمال الشحن. كانوا قد طالبوا برفع أجورهم، فكوّنت الحكومة لجنة تحكيم من كبار القانونيين والمختصين برئاسة (لورد شو). ترافع (بفن) أمام اللجنة قرابة ثلاثة أيام متواصلة. وفي نهاية مرافعته قال له رئيس اللجنة:

«إنني أشكرك نيابة عن أعضاء اللجنة كلهم، لدقتك ووضوحك في الدفاع عن قضية عمال الشحن. وأود أن أؤكد لك أن اللجنة تقدر تقديراً بالغاً، أسلوبك الرصين في الدفاع».

ويضيف (بتلر):

«في اليوم الأول، كان أعضاء اللجنة وحدهم يصغون لـ (بفن). بعد ذلك صار الشعب البريطاني كله يصغي إليه، فقد نقلت لهم الصحافة دفاعه البليغ. أصبح بين عشية وضحاها بطلاً قومياً».

يقول (بتلر) إن (بفن) حين أخذ بعد ذلك في إعادة تنظيم الحركة النقابية وربطها بحزب العمال، حتى يكون لها تأثير في صنع القرار «كان أكثر عزماً وتصميماً من ونستون تشيرشل».

هذا ثناء لا نظير له، خاصة أنه يجيء من زعيم محافظ، وحين نتذكر أن (ونستون تشيرشل) الذي قاد بريطانيا في حربها ضد ألمانيا النازية، ما يزال يُعتبر مثلاً أعلى في العزم والتصميم.

وأعجب من هذا أن (بتلر) يعتبر أن (بفن) كان نداً في قدراته العقلية للاقتصادي البريطاني الشهير (جون مينارد كينز) الذي أحدث انقلاباً في المفاهيم الاقتصادية، وما تزال نظرياته هي الغالبة إلى اليوم. يقول (بتلر):

«كانت قدرات (بفن) التنظيمية معروفة، ونفوذه النقابي وأنه زعيم قوي كفء، كل هذا لم يكن موضع شك. ولكنه حين صار عضواً في لجنة ماكملان عن تمويل الصناعة، أظهر قدرات عقلية تضارع قدرات جون مينارد كينز».

في عام ١٩٤٠ صار (بفن) وزيراً للعمل في الوزارة الإئتلافية برئاسة تشيرشل، التي قادت بريطانيا في سنوات الحرب. يصف (بتلر) إنجاز (بفن) في تلك الفترة بأنه كان «أمراً خارقاً لا مثيل له»...

عبأ (بفن) للجهد الحربي، اثنين وعشرين مليوناً، من مجموع السكان البالغ عددهم خمسة وثلاثين مليوناً، بين الرابعة عشرة، والرابعة والستين. تمَّ ذلك دون قهر أو ضغط، ولكن كما قال (بفن):
«إنها إرادة أمة حرة تذعن للضبط والنظام بمحض إرادتها».

يصف (بتلر) أسلوب (بفن) في وزارة العمل فيقول:
«كان (بفن) حريصاً أن يكون منصفاً للفريقين. كان يشتد على أصحاب العمل للاستجابة لمطالب العمال، وفي الوقت نفسه كان يطلب من العمال ألا يشتطّوا في مطالبهم وأن يضعوا نصب أعينهم المصلحة العامة التي قد تقتضي منهم التنازل عن بعض حقوقهم (...) ولكن (بفن) كان يؤمن إيماناً عميقاً أن نقابات العمال يجب أن يكون لها دور مؤثر على المستوى الوطني».

أراد (تشيرشل) أن يكرّم (بفن) تقديراً للدور الذي قام به في وزارة العمل خلال سنوات الحرب، وكان يعرف موقفه من الأوسمة والألقاب، فقال له:

«إنني فكّرت أن أرشحك لوسام خفيف جداً يمكنك أن تلبسه بسهولة. أريد أن أرشحك لوسام (رفيق الشرف)».

فقال (بفن):
«أنت تعلم أنني لا أقبل الألقاب».

حين جاءت وزارة العمال برئاسة (أتلي) بعد الحرب، كان (بفن) بمثابة الرجل الثاني فيها، ولعله كان أقوى عضو في الوزارة. وقد تقلد عدة مناصب إلى أن صار وزيراً للخارجية، كانت وزارة الخارجية حكراً على أبناء الطبقات العليا، خريجي جامعتي أكسفورد وكيمبردج. لذلك كان تعيين عامل ترك المدرسة في سن الحادية عشرة وزيراً لها، مدعاة لدهشة عظيمة.

يصف (بتلر) العمل الذي قام به (بفن) في وزارة الخارجية، أنه أثّر تأثيراً بالغاً على مجرى الأحداث في العالم إلى اليوم، ويقول:

«كان (بفن) أعظم وزير للخارجية البريطانية في هذا القرن، ومن أعظم وزراء الخارجية البريطانية إطلاقاً».

هذا الإنصاف في الحكم على خصم سياسي، دليل على عظمة (بتلر) نفسه. والإنسان، إذ يقرأ هذا، يحس بالأسف أن حزب المحافظين لم يجعل (بتلر) رئيساً له. لو أنه خلف (تشيرشل) بدلاً من (إيدن) لما حدثت حرب السويس. ولو أنه خلف (إيدن بدلاً من (ماكملان) لاتخذت السياسات الاقتصادية والاجتماعية، منحى مختلفاً تماماً.

وأغلب الظن أن (مارغريت ثاتشر) ما كانت لتصبح رئيسة للوزراء.

ساميول بيبز

مدينة لندن أكثر حفاوة بـ (سامويل بيبز - Samuel Pepys)، منها بوليم شكسبير. ذلك لأنه مثل شارلز دكنز، من أبنائها المخلصين، ولد فيها عام ١٦٣٣، ومات فيها عام ١٧٠٣. شهد الأحداث الجسام التي عصفت بالمدينة في القرن السابع عشر، مثل الطاعون الشهير عام ١٦٦٥، والحريق الواسع الذي أعقبه عام ١٦٦٦.

رأى انهيار ثورة (كرومول)، وعودة النظام الملكي، وتقلد عدة مناصب، فكان عضواً في البرلمان، ووزيراً للبحرية وعضواً في الجمعية الملكية.

إلّا أن شهرة (بيبز)، وأهميته في سياق الأدب الإنجليزي، تجيئان من اليوميات الوافية التي تركها، وقد عكف على كتابتها بين عام ١٦٦٠ وعام ١٦٦٩. سجل فيها تسجيلاً دقيقاً، بأسلوب مفعم

بالطرافة والسخرية وغير قليل من الحكمة ـ أحداث حياته وحياة المدينة، وتقلبات أحوال السياسة في لندن وما وراءها.

تعود إلى قراءتها مراراً، وتزداد متعتك بها كلما قرأتها. يدهشك أن الدنيا لم تتغير كثيراً، وأن بعض ما حدث في لندن في القرن السابع عشر، ليس بعيداً عما يحدث في عالمنا هذه الأيام.

وفيما يلي مقتطفات من يومياته في شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٦٦١:

٧ كانون الثاني/ يناير

أيقظوني هذا الصباح بأخبار الأعمال الفظيعة التي قام بها (المتطرفون الدينيون) أثناء الليل. قالوا إنهم قتلوا ستة أو سبعة أشخاص ولاذوا بالفرار. عمدة لندن وسلطات المدينة استنفروا الناس، وحملوا السلاح وجمعوا جيشاً من أربعة آلاف مقاتل.

قضيت بعض الوقت في مكتبي وعدت للعشاء في بيتي. أخي (توم) جاء للعشاء معنا. ذهبنا إلى المسرح توم وزوجتي وأنا. شاهدنا مسرحية (المرأة الصامتة). الصبي (كناستن) قام بأداء ثلاثة أدوار. مثّل أولاً دور امرأة فقيرة تلبس ثياباً رثة، وكان مقنعاً جداً. ثم ظهر في دور امرأة شابة جميلة. كان بلا شك أجمل امرأة بين النساء الموجودات تلك الليلة. وأخيراً، ظهر في زي شاب وسيم، وكان أيضاً أكثر الشبان الموجودين وسامة.

٩ كانون الثاني/ يناير

استيقظت نحو الساعة السادسة صباحاً على صراخ الناس أن

(المتطرفين الدينيين) قد أغاروا على المدينة. لبست ثيابي على عجل وأسرعت إلى الشارع، فوجدت الناس في حالة هرج عظيم. كل واحد يحمل سلاحاً وكل واحد يحرس باب بيته.

عدت إلى الدار وحملت سيفي ومسدسي. كنت خائفاً في الواقع، ولكنني لم أرد أن أظهر للناس أنني جبان. على أي حال كان المسدس عديم الفائدة، فإنني لم أعثر على البارود.

وجدت عند الباب (سير آر. فورد) مشينا معاً حتى مبنى بورصة المال. قابلنا في الطريق عصابات من هؤلاء الأوغاد، وسمعنا قصصاً كثيرة عن الخراب الذي سببوه. قالوا إن أكثر من اثني عشر شخصاً من الفريقين قد قتلوا.

كانت المحلات التجارية مغلقة والشوارع مهجورة إلّا من هؤلاء الرعاع، والمدينة في حالة عظيمة من الفوضى.

عدت إلى داري. تعشينا في الدار، وانضم والدي إلينا. رغم اضطراب الأمن، أصرَّ أن نذهب لزيارة عمي، الذي كان عاتباً عليَّ لأنني لم أزرهم منذ وقت طويل. اصطلحنا وخرج أبي وعمي، وبقيت مع زوجة عمي التي كانت خائفة، ولا تطيق أن تبقى وحدها.

في الطريق إلى بيتي رأيت الحرس منتشرين في الشوارع. علمت منهم أن أغلب (المتطرفين) قد قتلوا أو وقعوا في الأسر.

١٠ كانون الثاني/ يناير

علمنا من (مستر ديفس)، مدى الخراب الذي أوقعه هؤلاء

(المتطرفون الدينيون). شتتوا جموع الأهالي الذين خرجوا للتصدي لهم، وهزموا الحرس الملكي، وجعلوهم يلوذون بالفرار. قتلوا نحو عشرين رجلاً.

استطاعوا أن يكسروا أبواب المدينة مرتين وينفذوا إلى داخل المدينة. كل هذا حدث في وضح النهار، ورغم أن سكان المدينة قاطبة كانوا مسلحين على أتمّ الاستعداد.

اتضح أن عدد (المتطرفين) لم يكن يزيد على الثلاثين، وكنا نحسبهم أكثر بكثير. كنا نظنهم أقرب إلى الخمسمائة، لأنهم كانوا يظهرون للناس ـ في أماكن متعددة. في ضاحية (هاي قيت)، وداخل أسوار المدينة، وهنا وهناك.

هذا أمر عجيب لم يحدث من قبل. كيف تستطيع حفنة من هؤلاء المعتوهين، أن تثير كل هذا الذعر، وتسبب كل هذه الفوضى؟

شعارهم الذي يرددونه (يسوع الملك في الأعالي، ورؤوس الكفرة معلقة على الأسوار). لا يستسلمون. يقاتلون حتى الموت. يقولون إنهم يموتون شهداء. القليلون منهم الذين أخذوا أحياء، كانوا يرددون أن المسيح سوف يأتي لينقذهم ويخلص العالم ويقيم العدل. ليس لديهم أدنى شك أن رسالتهم سوف تتحقق، وأنهم إن ماتوا فسوف يموتون شهداء.

■ ■ ■

كان (ساموبل بيبز) مولعاً بارتياد المقاهي والمسارح، وشديد الولع بالنساء. ولم يتورع عن وصف زياراته لدور البغاء. وكان يذهب

إلى الكنيسة، ليس بوازع التدين، ولكن من قبيل التمسك بالمظاهر الاجتماعية.

كتب يومياته، ليس بنيّة نشرها، ولكن لمتعته الخاصة. وقد ظلّت غير معروفة وقتاً طويلاً، حتى اكتُشفت في مكتبة كليّة (ماجدلين) في جامعة (كيمبردج) عام ١٨١٨. ونشرت لأول مرة بطريقة مختصرة عام ١٨٢٥. وفي عام ١٨٩٣، نشرت كلية (ماجدلين) أغلب اليوميات وحذفت منها أجزاء اعتبرت أنها لا تصلح للنشر. ثم نشرت كاملة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨٣.

في هذه المرحلة الأولى من اليوميات، كان النظام الملكي الذي عاد لتوّه، لم يستتب له الأمر بعد، فقد عاد الملك شارلز الثاني إلى لندن في ٢٩ أيار/ مايو عام ١٦٦٠. وكانت ثمة جيوب من المقاومة من قبل أنصار النظام الجمهوري الذي أقامه (أولفر كرمولْ). أما (بيبز) نفسه، فقد كان في بداية الطريق الذي انتهى به إلى البرلمان والوزارة، يعمل سكرتيراً للرجل الذي كان أعظم سند له (لورد إدوارد منتاقيو).

١٣ كانون الثاني/ يناير

ذهبنا كلنا في الصباح للصلاة، وجلسنا في المقاعد المخصصة لنا. موعظة فاترة خالية من الحياة من قسيس حدَث ليست له دراية بالوعظ. واضح أنه لم يخطب في كنيسة من قبل. بين الحضور المتصَرِّف (بِتْ) وزوجته وبناته. البنت الكبرى ابنة زوجته من زوج سابق. سوداء، عظيمة الجمال.

تغدينا في مقهى الـ (قلوب)، ثم أخذنا عربة إلى كنيسة (قرنتش).

كنيسة جميلة وموعظة مؤثرة. بين المصلين عدد من النساء الحسناوات.

١٩ كانون الثاني/ يناير

بعد العشاء ذهبت وحدي إلى المسرح. شاهدت مسرحية (المرأة الضالة). لم تعجبني. شعرت بالحرج لأن اثنين من الكتبة عندنا، كانا يجلسان في مقاعد ثمنها نصف كراون، بينما كنت أنا أجلس في مقاعد أرخص. مقاعد الشلن وست بنسات.

٢١ كانون الثاني/ يناير

غريب أننا لم نتعرض لأي برد هذا الشتاء. على العكس، الحرارة مرتفعة والشوارع مُتربة والذباب يتطاير ويطن في كل مكان. مثل هذا لم يحدث من قبل. اليوم شُنق عدد آخر من رجال العهد البائد.

٢٧ كانون الثاني/ يناير

بعد العشاء ذهبت إلى المسرح، وشاهدت مرة أخرى مسرحية (المرأة الضالة). أعجبتني هذه المرة. كنت أجلس في مكان مظلم من المسرح. سيدة كانت تجلس أمامي التفتت خلفها وبصقت عليَّ دون قصد. حين رأيت أنها امرأة مفرطة الجمال، ذهب غضبي تماماً.

٣٠ كانون الثاني/ يناير

مستر (ملْز) أعطانا موعظة غاية في البلاغة والتأثير. وكان موضوعها العبارة الإنجيلية «يا إلهي. اغفر لنا ما سلف من خطايانا». كان كلامه بليغاً عن العدل الإلهي، وأن الله يعاقب الإنسان، حتى على ذنوب أسلافه.

وصلتني رسالة من أخي، يقترح فيها أن يجيء إلى لندن لحضور الاحتفال بتتويج الملك.

زرت (ليدي باتن)، التي عادت لتوها من رحلة إلى الخارج، وكانت زوجتي برفقتها. قالتا إنهما رأتا جثث (كرمول) و(ايرتون) و(برادشو) تُحرق وتُدفن في (تبورن).

٨ شباط/ فبراير

لبثنا نتحدث في مقهى (فليس) حتى الرابعة بعد الظهر، تحدثنا عن حياة الرِّق في الجزائر. حديث (كابتن موثام) و(مستر دوز) كان أخّاذاً غاية في الطرافة، لأنهما شخصياً، جرّبا حياة الرق في الجزائر. قالا إن سيدهما الجزائري لم يكن يطعمهما غير الخبز والماء. وحين أعتقهما طالبهما بثمن الماء الذي كانا يشربانه طول سنوات عبوديتهما. كان لا يكف عن جلدهما بالسياط على باطن أقدامهما، ولا يريحهما من الخدمة ليلاً أو نهاراً. وقالا إن الفقراء أكثر رأفة بالرقيق من الأغنياء، وإن بعض الرقيق الشطّار يعيشون عيشة مريحة ناعمة، لأنهم يجلبون لسادتهم دخلاً عن طريق الخداع والسرقة. وقالا إن السرقة لا تعتبر جريمة عند أهل الجزائر.

من ثم، رحتُ إلى دار مستر (رولنسن)، حيث وجدت صديقي القديم (دك سوبل). تسامرنا طويلاً، وعدت إلى داري آخر الليل ورأسي يكاد ينفلق من الوجع.

١٧ شباط/ فبراير

موعظة سمجة ومملة ولا تناسب المقام من واعظ إيرلندي، لم يجد موضوعاً لموعظته غير العبارة «يا إلهي. بدّد شمل هؤلاء الذين

يجدون المتعة في تأجيج نيران الحرب». لم يكن (سير وليم باتن) أقل غضباً مني على القسيس.

٢٣ شباط/ فبراير

اليوم عيد ميلادي الثامن والعشرون. بعد العشاء أخذنا مركباً على النهر إلى مسرح (بلاي هاوس). شاهدنا مسرحية (البدل) التي تعرض لأول مرة منذ عشرين عاماً. دخلها كبير من إقبال الجمهور عليها. لا عجب أن ممثلي المسرح بدأوا يحسون بالغرور والعجرفة. بعضهم صار مُترفاً جداً ويعيش حياة فخفخة وأبهة.

التقيت بمستر (تاونسند) الذي وعد أن يوظف والدي في قسم الثياب الملكية. أيضا قابلت المفتش العام، الذي قال إنه يجب علينا أن ندخل في البرلمان القادم، وأصرّ على أن أحصل على كتاب توصية من الدوق. لكنني لن أحاول، لأن ذلك سوف يكلفني نفقات باهظة.

لي الآن ثمانية وعشرون عاماً على قيد الحياة. الشكر لله، حياتي ميسّرة من جميع الوجوه، وآمالي كبيرة في مزيد من النجاح لي ولأصدقائي.

■ ■ ■

عاد الملك (تشارلز الثاني) إلى لندن من منفاه في هولندا في ٢٩ كانون الثاني/ يناير عام ١٦٦٠، بعد أن أصدر البرلمان قراراً بعودة الملكية، وأرسل بعثة برئاسة (لورد منتقيو)، وليّ نعمة (ساموئيل بيبز) لإحضاره. وكان لورد منتقيو قد قال لصديقه ساموئيل بيبز «إننا سوف نصعد السلّم معاً». وكذلك كان، إذ إن الملك إثر عودته

أسبغ لقب (دوق) على لورد منتقيو، فأصبح (دوق ساندوتش)، فوجد لصديقه منصباً رفيعاً في وزارة البحرية، وهو لم يبلغ الثلاثين.

يصف (بيبز) فيما يلي حفل تتويج الملك تشارلز الثاني في بيْعة (وستمنستر أبي):

٢٣ نيسان/ أبريل عام ١٦٦١

خرجت من فراشي في الرابعة صباحاً، وذهبت إلى (كنيسة وستمنستر)، فوجدت أن سير (دنهام) وبعض أصحابنا قد وصلوا قبلي. كان الحصول على مقعد على المنصّات الخشبية المنصوبة أمراً شاقاً جداً.

وبعد جهد كبير وجدت مكاناً في الجانب الشمالي من الكنيسة بمساعدة (مستر كوبر). جلسنا صابرين ننتظر وصول الملك. مرت الساعات بطيئة منذ بعد الرابعة بقليل حتى الساعة الحادية عشرة. وأخيراً ظهر موكب الملك.

كان مشهداً رائعاً حقاً. المنصة المرتفعة في الوسط مكسوة بقماش فاخر أحمر اللون، وعليها كرسي العرش. رجال الحرس والحاشية والنبلاء، كلهم في أزياء حُمر، حتى الفرق الموسيقية في أزياء حُمر.

أولاً، دخل أسقف وستمنستر يحيط به رجال الكنيسة، ثم دخل كبير الأساقفة في عباءاتهم الموشاة بالذهب. جاء بعدهم النبلاء في زيهم البرلماني. يا له من منظر بالغ الروعة! ثم دخل سيدي (دوق ساندوتْش) يتقدم الملك، حاملاً الصولجان، ومعه عدد من النبلاء يحملون التاج والسيف وغيرهما من شارات المُلك.

كان رأس الملك، وهو رأس نبيل، عارياً. ثم اتخذ كل واحد مكانه. بدأت مراسم التتويج بموعظة من كبير الأساقفة ختمها بالصلاة. بعد ذلك تمت مراسم في (المذبح) الكبير، لم أستطع أنا، ولا كثيرون غيري رؤيتها.

حين وضع كبير الأساقفة التاج على رأس الملك، هبّت صيحة مدوية من أنحاء الكنيسة جميعها.

ردد الملك القَسَم وراء كبير الأساقفة. وكان النبلاء قد وضعوا قبعاتهم على رؤوسهم أول ما وُضع التاج على رأس الملك. ثم جاءت أفواج الأساقفة بين يدي الملك.

مشى (حامي الذات الملكيّة) ثلاث مرات، في كل مرة يتوجه إلى ناحية من نواحي الكنيسة، وفي كل مرة ينادي بأعلى صوته «هل بينكم أحد لديه أي اعتراض أن يكون تشارلز الثاني ملكاً على إنجلترا؟ إن كان يوجد أحد فليتقدم وينطق».

تلا حاجب الملك الأكبر، عفواً ملكياً عاماً، ونثر (لورد كورنوالس) المداليات الفضية على الحاضرين، لكنني لسوء الحظ لم أستطع أن ألتقط شيئاً منها. قامت ضوضاء عظيمة طغت على الموسيقى.

شعرت بحاجة عظيمة إلى تفريغ مثانتي من البول، مما اضطرني إلى الخروج قبل أن تكتمل مراسم التتويج. دُرْتُ حول الكنيسة، فرأيت الساحات حولها مغطّاة بمفارش ذات لون أزرق، ونحو ألف شخص جالسين على المنصات. ثم دخلت قاعة الاحتفالات الكبرى، فوجدت أرضها وحيطانها قد زُيّنت بمفارش وستائر زاهية الألوان.

وكانت ملأى بسيدات غاية في الحسن، ميّزت بينهن زوجتي، جالسة في الناحية اليمنى.

لبثت أتمشى، رائحاً غادياً، أمتّع عينيَّ بمنظر النساء الجميلات، وأنتظر قدوم الملك. أخيراً دخل القاعة، يحمل صولجانه بيد، وتاجه باليد الأخرى، محاطاً بالنبلاء، وفوق رأسه مظلة تقف على ستة أعمدة فضية، يحملها (لوردات الموانىء الخمسة) وعلى أطراف المظلة أجراس صغيرة من الفضة. مضى الملك في موكبه إلى أقصى القاعدة وجلس إلى مائدته، فجلس الناس إلى موائدهم. كان مشهداً غاية في الفخامة.

ثم بدأ إحضار الطعام، كل طبق يحمله فارس من فرسان (باث)، وكان (لورد أَلْبمارْل) يدخل المطبخ ويذوق كل طبق قبل أن يُقدم إلى الملك.

وكان هؤلاء النبلاء الثلاثة (نورث أمبرلاند) و(سفولك) و(أورمند)، ممتطين خيولهم يتقدمون حاملي طعام الملك، ويظلّون واقفين، حتى يفرغ الملك من الأكل. في أثناء ذلك كان الحجّاب يسوقون الناس فرادى إلى مائدة الملك فينحنون له ويعودون إلى أماكنهم.

أخيراً جاء (حامي الذات الملكية) على صهوة فرسه، لابساً عُدّة الحرب، وأمامه فارسان، أحدهما يحمل رمحه، والآخر يحمل ترسه. وصاح المنادي بأعلى صوته «هل يوجد هنا أحد ينكر أن الملك تشارلز هو ملك إنجلترا الشرعي؟ إن كان يوجد فليخرج لمبارزة (حامي الذات الملكية)». وكان حامي الذات الملكية يرمي

قفازه كل مرة بعد هذا النداء. فعل ذلك ثلاث مرات، وهو يحني رأسه للملك.

كنت أنتقل من مائدة إلى مائدة، فوجدت القُس والنبلاء مستغرقين في الأكل. وعلى مائدة اللوردات، وجدت (لورد هاو) الذي رحب بي وأطنب في مدحي. فقد وجدت متعة عظيمة في المرور على موائد السيدات وكان بينهن من هي مفرطة في الجمال. كذلك تمتعت بالاستماع إلى الموسيقى، وخاصة عازفي الكمان.

العجيب، أن الطقس ظلَّ صحواً طوال يومي الاحتفال. وما أن انتهينا حتى أمطرت السماء مطراً لا أذكر مثله. وأبرقت وأرعدت.

وقال الناس إن ذلك فأل حسن وأن العهد سوف يكون عهد خير وبركة. لكنني أظن أن من الجهالة الالتفات إلى مثل هذه الأشياء.

■ ■ ■

يخلط (ساموِيل بيْبز) بين التفاصيل الدقيقة لشؤون حياته الخاصة وبين الشؤون العامة، مثل وصفه لإعدام (سير هنري فين). وهو وصف ينمُّ عن تعاطف ـ وإن كان بعيداً خافتاً ـ مع الجمهوريين، أنصار (ألِفَر كرُمْوِل) وتجدر الإشارة أن وليّ نعمته (دوق ساندوتش) كان مؤيداً لـ (كرمول) قبل أن تنهار دعوته، فحوّل ولاءه للملكية.

٢٦ أيار/ مايو ١٦٦٢

استيقظت في الساعة الرابعة صباحاً، وعكفت في الحال على مراجعة حسابات سيدي (الدوق)، وكنت قد واعدت (مستر مور) فلحق بي بعد مُدة. وجدنا أن (الدوق) مديون بمبلغ سبعة آلاف

جنيه، ولكنه يتوقّع دخلاً من عدة مصادر، سوف يغطّي الدين. لكن الحقيقة هي أن محفظته خالية إلاّ من شيء يسير، ووضعه المالي، على وجه العموم، ليس كما ينبغي.

ذهبت إلى (ترنتي هاوس)، حيث كانت جماعة (الإخوان)، تنتخب رئيساً لها. فاز (مستر منْز) على منافسه (مستر باتن). كانت منافسة عنيفة.

على العشاء، جلست بجوار (مستر بن) الذي قال لنا، إنه يملك وثائق دامغة على فجور الراهبات وحياتهن الماجنة، في طول إنجلترا. وأخرج من جيبه وثيقة تُثبت أن ثلاثين راهبة، طُردن من ديرهن، وأن البابا أصدر أمراً بتفريقهن على عدد من الأديرة.

لم أستطع البقاء حتى النهاية، فخرجت خلسة، وأخذت مركباً على النهر إلى دار أخي (توم) من حيث مضينا واصطحبنا زوجتي إلى المسرح.

شاهدنا مسرحية (دكتور فاوست). كان عرضاً سيئاً جداً أصابنا بالملل. عدنا إلى الدار، فأخذت قيثارتي، وظللت أعزف عليها، إلى أن نعست، فذهبت إلى فراشي.

١٤ حزيران/ يونيو

قمت من فراشي في الرابعة، وذهبت إلى مكتبي وانهمكت في العمل. في نحو الساعة الحادية عشرة، ذهبت مع مجموعة منّا إلى غرفة أُعدت لنا في (البرج) أشرفنا منها على المنصة التي أقاموها لإعدام (المتمرد الجمهوري) - (سير هنري فين). رأيناه يساق إلى

الساحة. جمع عظيم من الناس وقف على المنصة وبدأ يلقي خطبة طويلة. كان بعض موظفي الحكومة وأعوانها يقاطعونه عمداً، ليمنعوا الناس من الاستماع إليه.

أرادوا أن ينزعوا أوراقه من يده، فلم يمكّنهم منها، فلجأوا إلى إحضار عدد من الأبواق، وأخذوا ينفخون فيها، حتى يطغى زعيقها على صوته.

كان بعض الصحافيين والكتّاب، على مقربة من المنصة، يسجلون كلامه، فصادروا أوراقهم، وأزاحوهم عن أماكنهم.

بعد ذلك استغرق في الصلاة والدعاء، وهيّأ نفسه للموت، وتلقى ضربة الفأس التي طيّرت رأسه. كانت الساحة مزدحمة بالخلق، فلم نستطع أن نرى المشهد الأخير. لكن (بورمان) الذي كان قريباً من المنصة، ورأى كل شيء، أخبرنا في ما بعد، أن (سير هنري)، تحدث أولاً عن بطلان الإجراءات التي حوكم بمقتضاها. وقال إنه حُرم من حقه بمقتضى ميثاق الحقوق العامة الـ (ماقناكارتا) أن يطعن في صحة التهمة الموجهة إليه.

حاول رئيس الشرطة منعه من الاسترسال، فأخرج أوراقاً من جيبه، راح يقرأ منها. قال إنه رجل محترم (جنتلمان) بحكم مولده ونشأته، وأنه يتحلّى بصفات الـ (جنتلمان) وأن عامة الناس يشهدون له بذلك. ثم أراد الله له أن يزهد في الدنيا وينصرف إلى الدعوة لإعلاء كلمة الله. فنفض يديه من كل شيء، وسافر للدعوة في الخارج.

ثم شاء الله، أن يُطلب منه أن يعود إلى إنجلترا، وينتخب عضواً في

البرلمان. وقال إنه في البرلمان. وكان هدفه إعلاء كلمة الله، فلم يقُل أو يفعل شيئاً يتعارض مع ضميره. وكان يريد أن يشرح للجمهور مجريات الأمور في البرلمان، ولكن أعوان الحكومة منعوه من ذلك بالضجيج والمقاطعة.

حينئذٍ أخذ يهيىء نفسه للموت فراح يبتهل ويدعو. دعا بالصلاح لأهل إنجلترا قاطبة، ودعا لكنائس إنجلترا ولسكان مدينة لندن. ثم ركع ووضع رأسه وتلقّى الضربة.

كان على رقبته خُرّاج فطلب منهم ألا يمسّوه. لم يتغيّر لونه، ولم يفقد رباطة جأشه حتى آخر لحظة. مات وهو واثق من براءته، وواثق من عدالة القضية التي آمن بها.

لم أشهد إنساناً يواجه الموت بمثل تلك الشجاعة. كان شجاعاً صلباً متواضعاً.

قاطعه رجل أثناء دعائه، وقال له «لماذا لا تدعو للملك؟» فأجابه «بلى. سوف ترى أنني أستطيع أن أدعو للملك. أدعو الله أن يوفقه ويباركه»(*).

الهوامش

(*) هذا الكلام لا يخلو من المبالغة ـ أو لعله افتراء ـ بغية التشهير بالمذهب الكاثوليكي، فقد كان الصراع على أشده في هذا الوقت بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي الذي أصبح (دين الدولة). لذلك كان أنصاره أقوى نفوذاً وأكثر جرأة على التشهير بخصومهم.

الفصل الثالث

أي. ج. تيلور

يعجبني من المؤرخين الإنجليز المعاصرين، أي. جي. تيلور، أو ألن تيلور، كما يسميه أنصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك لأنه ينظر إلى التاريخ بجرأة وطرافة وغير قليل من السخرية التي تقترب من روح شكسبير التي ترثي لتفاهة مسعى الإنسان وهو يشن الحروب ويديل الدول ويرتكب الحماقات. في سمت هذا المؤرخ العتيد، تبرّم كأنما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ. هذه المعرفة تعطي بعض المؤرخين سماحة ورحابة صدر، لكن ليس ألن تيلور. تقرأ كتابه، فإذا فرغت منه فكأنما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من أقصى اليسار إلى لا قرار. كان متحمساً لحزب العمال، ثم فترت حماسته. إنه الآن في نحو الثمانين، عليل، يقف على

حافة القبر. أسأل الله أن يشفيه، فهو من هؤلاء الإنجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيراً من سيئاتهم.

قرأت كتابه «جذور نشوب الحرب العالمية الثانية»، وأنا أصارع الموت في مستشفى الدكتور بدر في بيروت، عام ستين، أو تراه واحداً وستين؟ في ذلك العام قتل داج همرشلد في الكنجو، ووقعت اتفاقية إيفيان التي أدت إلى استقلال الجزائر. قضيت ليالي وأنا أقاوم مع الجزائريين، ولو مت حينئذٍ، لعلني كنت أموت شهيداً بمعنى من المعاني. ثم بدا كما لو أن حبل العمر لم ينقطع بعد، فأخذت أطفو قليلاً قليلاً، يساعدني على التشبث بالحياة هذا الكتاب الجميل.

قامت زوبعة أول ما صدر الكتاب، أخريات الخمسينيات، لأن ألن تيلور قال، إن أدولف هتلر لم يكن «عبقرياً شيطاناً» كما يزعم، ولكنه كان رجلاً عادياً، لا يملك أية مؤهلات خارقة، وأنه لم يكن يعمل وفق «خطة جهنمية» ولكنه كان «يتخبط» كبقية الزعماء والسياسيين وأنه نجح لأن الإنجليز والفرنسيين كانوا أكثر تخبطاً منه. هذا الرأي أغضب اليهود وكثيراً من الأوروبيين. أما الأوروبيون فلأنهم لم يجدوا سبباً منطقياً لما حدث، فخلقوا أسطورة «أدولف هتلر العبقري الشيطان». كانت ألمانيا أكثر الدول الأوروبية تحضراً، وكان اليهود في ألمانيا، من أكثر الجاليات اليهودية في أوروبا رخاء واستقراراً. لماذا إذاً حدث ما حدث؟ لماذا أقام هذا الشعب المتحضر معسكرات الاعتقال التي زجّ فيها بالآدميين كما تزجّ البهائم؟ لماذا أقيمت أفران الغاز التي مات فيها فيما يقدر بستة ملايين إنسان؟ وإذا كانت ألمانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتملاً أن تفعله فرنسا أو بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابعة في أعماق

اللاوعي الأوروبي عموماً؟ أبداً، السبب هو رجل مجنون يدعى أدولف هتلر!

وأما اليهود، فإنهم بطريقتهم «المثلوجية» في النظر إلى تاريخهم، أعطوا مأساتهم، وهي مأساة لا شك فيها، أبعاداً ملحمية كما في الأساطير القديمة، فجاء ألن تيلور، ونظر إليها كما ينظر إلى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولأن اليهود لم يكونوا بمعزل تماماً عما حدث لهم، في تلك الآونة أيضاً، صدر كتاب للفيلسوفة اليهودية الشهيرة همن أرندت اسمه «إيخمان في القدس» قالت فيه إن اليهود في ألمانيا كانوا يحفرون قبورهم بأيديهم، ثم يدخلون فيها فيقتلون رمياً بالرصاص. وكانت الكاتبة تتساءل «ما داموا قد أيقنوا بالموت، فلماذا لم يفعلوا شيئاً؟ لماذا لم يثوروا؟ لماذا لم يقاوموا؟». والكتاب كله دراسة رائعة في ظاهرة الشر، وأنه ليس أمراً خارقاً، ولكنه أمر عادي، يقوم به أناس عاديون. لقد اختطف الإسرائيليون إيخمان، وكان من كبار النازيين الذين تسببوا في مصرع آلاف الناس، وجاءوا به في ضوضاء إعلامية لمحاكمته، على أنه وحش مصاص دماء مثل دراكولا. ولما أظهروه للناس في قفصه الزجاجي في المحكمة، أسقط في أيديهم. ظهر للناس رجلاً عادياً، كأنه موظف في بنك أو مسؤول صغير في دائرة حكومية. وكان دفاعه أنه كان ينفذ أوامر رؤسائه، تماماً كما يقول الموظفون في دوائر الحكومة. واتضح في المحاكمة أنه كان منظماً جداً، دقيقاً في حساباته، مثل موظفي البنوك. كذا ألف إنسان أحرقوا في داكاو، وكذا ألف إنسان أحرقوا في أوشفتز. كشوفات مفصلة بوسائل النقل، وأرقامها وأوقات مغادرتها ووصولها. ووسائل القتل وأنواعها وأسماء القائمين عليها. رجل عادي، يؤدي وظيفة عادية يأخذ عليها مرتباً. له بيت وزوجة وأطفال. يحنو على القطة، ويزرع الورود في

الحديقة. هذا أيضاً كتاب عظيم يعلق بالذاكرة، يقترب فيه التاريخ من الأدب، في ملاحقته لنوازع الخير والشر الكامنة في تلافيف روح الإنسان. وما أصدق قول أبي العتاهية:

لدواعي الخير والشر دنو ونزوح

أذكر ندوة تلفزيونية تلك الأيام، كان ألن تيلور يرد فيها عن أسئلة حول كتابه. قال له أحد المشاركين، وكان واضحاً أنه يهودي «إنك بافتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في إقامة دولة إسرائيل». فرد عليه تيلور بتبرم واضح «اسمع. لا تحدثني عن إسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. إسرائيل لا شيء. بريطانيا لا شيء. فرنسا لا شيء. أميركا لا شيء. روسيا لا شيء».

■ ■ ■

إنني لا أعرف أن مؤرخاً غيره جرُؤ على مثل هذا القول، وقد كان ذلك أمراً جللاً بحق في تلك الأيام. لقد أوصلته دراساته فيما يبدو إلى أن الكائن البشري عموماً «لا شيء» وهو رأي يشبه رأي المرحوم مصطفى صادق الرافعي حين قال: «ما الإنسان، وما خيرُه وشرُّه؟ إنه مثل حفرة برِجلْ نملة لتدفنَ فيها نملة».

حين علمت بنبأ موت المؤرخ الإنجليزي الحبْر «أي. جي. بي. تيلور» الذي توفي منذ أسبوعين، شعرت كأنني أفقد صديقاً عزيزاً، رغم أنني لم أقابل الرجل ولم أعرفه إلّا من خلال كتبه ومقالاته

ومحاضراته. ذلك لأنني كنت أعتبره واحداً من هذه الزمرة الكريمة من الرجال والنساء، الذين تجمعك بهم أواصر الروح والعقل والضمير، على بعد التيار واختلاف الأعراق والانتماءات، فكأنهم أهلك بحق.

كان بحر علوم في ميدانه، يملك إلى ذلك عقلاً نافذاً جذّاباً وبياناً ناصعاً ساحراً، وجرأة على السباحة عكس التيار، والتصريح بأفكار يعلم أنها سوف تغضب الكثيرين وتجر عليه العداوات والأحقاد، لكنه كان باحثاً عن الحقيقة أنّى وجدها، وعنده تلك النزاهة والشجاعة اللتان يمتاز بهما بعض علماء الإنجليز الخلّص. وكان يؤمن أن التاريخ يجب ألا يكون حكراً على المتخصصين، ولكن على المؤرخ أن يجعله جذاباً ومفهوماً على أوسع نطاق. فكان من أوائل المؤرخين الذين استغلوا وسائل الاتصال الجماهيرية، فكتب في الصحف، وحاضر في التلفزيون. وأكثر ما أثار عليه سخط زملائه الأكاديميين، أنه لم يحجم، رغم أنه كان أميل إلى اليسار، أن يكتب في صحف «بيفربروك» اليمينية المتطرفة، بل إنه كان صديقاً لصاحبها «لورد بيفربروك» وألّف كتاباً عن حياته.

ربما لأجل ذلك لم يعطوه كرسي أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة أوكسفورد الذي كان يحلم به، وفضلوا عليه منافسه «ترفر روبر»، وهو مؤرخ أقل منه قدراً في نظر الكثيرين، ولكن حسبه أنه كان طوال حياته مثار اهتمام واسع، من الأكاديميين وغيرهم، وأن محاضراته في التلفزيون كانت تعتبر مناسبات مهمة تظل أصداؤها تتردد زمناً طويلاً بعد عرضها، وأن فصوله في جامعة أوكسفورد التي كانت تبدأ في التاسعة صباحاً، كانت تمتلىء بمستمعين من

تلاميذه، ومن تلاميذ يتقاطرون عليه من الكليات الأخرى، وجمهور يفِدُ من أقاصي القطر خصيصاً للاستماع إليه.

نعم، هذا مؤرخ من طراز نادر، لا يجود الزمان بمثله إلّا على فترات متباعدة.

الفصل الرابع

مايكل آدمز

مايكل آدمز كان شأنه مختلفاً عن أولئك الصحافيين الأوروبيين الذين حلّوا على هذه الديار الآمنة، كما تحل عصابة من قطاع الطرق.

خلال السنوات التي قضيتها في وزارة الإعلام القطرية، رأيت أنماطاً عجيبة من البشر، مروا أمام ناظري كما تمر الأشباح. منهم أفاقون وباحثون عن الشهرة وباحثون عن أدوار يلعبونها على مسرح الحياة وهاربون من سأم الحياة التي ألفوها في بلادهم، وقليل منهم المخلص الباحث عن الحقيقة.

ذلك الصحافي الذي اتفقوا معه على نشر ملحق عن دولة قطر، اشترينا منه كذا صفحة بثمن كبير، لعراقة الصحيفة وسعة انتشارها، وساعدناه على جمع الإعلانات. ثم صدر الملحق فإذا به يتضمن

مقالات لا علم لنا بها، مليئة بالأخطاء وسوء الفهم. اعترضت على ذلك، فقال لي:

«هذه مادة تحريرية لا سيطرة لقسم الإعلانات عليها».

«أنتم تنشرون مثل هذه المقالات في صحيفتكم على أي حال. ولكن لماذا تصرون عليها الآن في هذا الملحق بالذات. علماً بأنه لم يكن ليصدر لولا الصفحات التي اشتريناها منكم والإعلانات التي ساعدناكم على جمعها؟».

«أنت تعلم بأن صحافتنا حرة، ومثل هذه المادة تعطي الصحيفة مصداقيتها. هذه هي الحقائق كما نراها فهل تريدوننا أن نغير الحقائق لمجرد أنكم اشتريتم منا بضع صفحات؟».

«اسمع. لا تحدثني عن حرية الصحافة، فأنا أفهم جيداً ماذا تعني حرية صحافتكم. أليس عندكم مثل يقول «الذي يدفع أجر المغني من حقه أن يختار الأغنية؟» هل تريد أن تقنعني أن دولة قطر تدفع لكم مبلغاً ليس قليلاً لتصدروا ملحقاً تشتمونها فيه؟ أي منطق هذا؟».

أحياناً كانوا يقتنعون بوجهة نظرنا، وأحياناً كنا نضطر إلى إيقاف التعامل معهم.

ومرة جاءني صحافي يعرض عليَّ أن ننشر ملحقاً عندهم. وخطر لي أن أعبث به قليلاً. قلت له:

«وما هي الفائدة من ذلك؟».

«أليس هذا واضحاً؟ توجد هنا حركة تنمية عظيمة. وللدولة احتياجات كثيرة. لا بد أن تعلن دولة قطر عن احتياجاتها فتعلم بها شركاتنا فتأتي إلى هنا وتساعد الدولة في إنجاز التنمية».

«شيء عجيب. تقصد أن دولة قطر تدفع كل هذا المال لصحيفتكم لتقولوا لشركاتكم «دولة قطر تريد أن تعطيكم مالاً اذهبوا وخذوه منها؟» أليس المعقول هو أن يحدث العكس؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني أن تعلن شركاتكم عن نفسها في الصحف القطرية، فيعلم القطريون بوجودها فإذا كانت لهم حاجة بها تعاملوا معها. تذكر يا مستر.. إن شركاتكم ليست الوحيدة في السوق، ودولتكم ليست الوحيدة في العالم».

بعضهم كان كأنَّه يستيقظ من نوم، وكأنه نسي أن عهداً قد انقضى، وعهداً قد أطل. وأحياناً كان الواحد منهم حين يبلغ به الضيق مبلغه وتعوزه الحجة، يتفرس في وجهي طويلاً، ثم يقول لي بصوت بارد:

«أنت لست قطرياً. أليس كذلك؟».

كنت حين أُوصِل الواحد منهم إلى هذا الحد، أحس أن يومي لم يذهب سدى، فقد كنت أعلم تمام العلم ماذا يقصد بقوله. وأنَّى له

أن يدرك أن كوني لست قطرياً ما كان ليغير من الأمر شيئاً. وأنى له أن يدرك أنه إن كان قد جاء يطلب صيداً، فقد لاقى صياداً له شباك من نوع آخر. إنه يرى أمامه رجلاً يجلس وراء مكتبه على شكل حدوة حصان منفرجة، في مكتب مصفَر الحيطان في الطابق العلوي من مبنى التلفزيون. إنه يشغل منصباً ليس ذا خطر، في حقيقة الأمر. ولكنه قد يبدو لوهلة للطامعين والمغامرين والحالمين، أنه قد يكون وسيلة لتحقيق كل ذلك. إنه وضع صعب. وأصعب منه الرجل الذي يجلس وراء ذلك الرجل، رجل لا يرونه ولكنه يراقب عبث الناس وألاعيب الحياة، كأنه بمعزل عنها. ويمتص التجاريب كما تمتص الصحراء قطرات المطر. يتركها تتجمع وتفور بعيداً في قيعان الذاكرة، ثم ينساها. يتركها تنصهر في بوتقة «الفن» ريثما تنضج، وهو يعلم أنها سوف تطفو فجأة بعد أمد، على هيئات مختلفة، وأشكال لم تكن في الحسبان.

هكذا كنت أسرِّي عن نفسي، وأُدافع الوحشة التي تخامرني، وحشة الكتاب والشعراء والمفكرين. حين أجد الوقت وخلو البال أسرّي عن نفسي بمثل تلك المواجهات والمعابثات. ولا أنكر أنني كنت أقسو على الإنجليز بصفة خاصة، فأنا أخبر بمسالكهم. وأنا في حقيقة الأمر أكثر ميلاً إليهم من بقية الأوروبيين، فقد عاشرتهم زمناً، ومارست عندهم أكثر تُرّهات حياتي، أيام كان الشباب «مطيّة الجهل، ومحسِّن الصبوات والعزْل». وقد أكلت من عيشهم وملحهم، وعلمت علم اليقين، أنهم رغم كل شيء وعلى علاتهم، قوم خيرهم أغلب من شرهم.

بلى. كان الخير وفيراً في تلك الأيام، فجذب أفواجاً إلى تلك الأرض الهادئة القصية من بلاد العرب، كما يتجمع الذباب على

صحن العسل، وكنت أقول «ليتني أجد الوقت لأسجل كل هذا. هذا يصلح شخصية في رواية وهذا لو رسمته كما هو على الورق لما صدقني أحد».

لكن مايكل آدمز كان من طراز آخر.

■ ■ ■

لا أعلم كيف بدأت صلة مايكل آدمز بالعالم العربي، ولكنني أذكره في الخمسينيات والستينيات، يكتب بانتظام في صحيفة الـ «غارديان» منذ أن كان اسمها، الـ «مانشستر غارديان». كان واحداً من الكتّاب المرموقين، من حفنة أعطوا هذه الصحيفة العتيدة، السمعة التي تتمتع بها إلى اليوم. منهم «ديفِدْ هولْدِن» الذي قُتل منذ سنوات في القاهرة في ظروف غامضة. ومنهم «جيمس مورسْ» الذي تحول إلى امرأة وهو على عتبة الأربعين بعد أن تزوج وأنجب، وما يزال يكتب باسم جان مورس.

كيف حاقت بمايكل آدمز بلوى الدفاع عن قضايا العرب، فذلك بالنسبة للكاتب الأوروبي والأميركي امتحان عسير وبلاء مستطير وعبء لا يقوى على حمله إلّا أولو العزم؟

لقد حطَّم تبنّي قضايا العرب بريطانيين سُراة منذ لورد كيرْزنْ الذي كان يبدو وكأنه سفينة لن تغرق. كان من صفوة الأرستقراطية البريطانية، إلى ثراء واقتدار وسعة نفوذ وجاذبية، جعلت من المؤكد أنه سوف يصبح رئيساً للوزارة. كان وزيراً في وزارة «لويدْ جورج» التي أصدرت وعد بلفور المشؤوم. وما كان محباً للعرب بقدر ما

كان محباً للحق. ظل يقاوم ببسالة ولا يني عن الإلحاح في مجلس الوزراء «أنتم تتحدثون عن إعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين. إنكم تقصدون قيام «دولة» يهودية في فلسطين. والأرض ليست خالية من السكان». لم يُصغِ أحد لكلامه وتبددت أحلامه في رئاسة الوزارة. ثم مستر «أرْنِست بڤِنْ» وزير الخارجية في حكومة العمال برئاسة «كلِمَنْت آتْلي». كان في شكله الجسمي، وفي قوته وسعة نفوذه في الحزب، يبدو هو الآخر مثل بارجة حربية لا يمكن إغراقها. صرخ في مجلس العموم في وجه النواب اليهود «إنني أرى هنا يهوداً ولكنني لا أرى عرباً». فقد منصبه ومات كسير القلب. ثم مستر «أنتوني نَتِنْجْ». كان وزيراً للدولة في وزارة الخارجية وكان مقرَّباً من رئيس الوزراء «أنتوني إيدن». وكانوا يتحدثون عنه كرئيس وزراء مقبل. كانت أنجمه في صعود، ومقاديره في صعود. استقال من منصبه أثناء حرب ٥٦، حين تآمرت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل على غزو مصر، وقال في خطاب استقالته الموجّه إلى أستاذه وصديقه ووليّه «يؤسفني أنني لا أستطيع أن أدافع عن سياسة حكومة صاحبة الجلالة». ماذا حدث له وأين هو الآن؟

حتى «جورج براون» المسكين. كان محتملاً أن يكون رئيساً لحزب العمال ورئيساً للوزارة بدلاً من «هارولد ولسن». لم يكن العرب في حد ذاتهم يعنونه كثيراً ولعله كان أميَل لليهود فقد كانت زوجته يهودية. ولكنه كان أرْيَحِي النفس شجاع القلب، ولعله فهم أبعاد القضية الفلسطينية بفضل مجهودات بذلها رجال أمثال إميل البستاني. في تلك الأيام الحالكة بعد هزيمة ١٩٦٧، حين عزَّ النصير، كان صوته من الأصوات القليلة التي ارتفعت في بريطانيا منادياً «الفلسطينيون لهم قضية. الفلسطينيون لهم قضية». فقد كل شيء، ومات من كثرة الشراب ووجع القلب.

من هؤلاء الناس الشرفاء، يهود أيضاً، منذ «لورد مُنْتاجْيو» الوزير اليهودي الوحيد في حكومة لويد جورج. ومنهم يهود أميركيون أمثال «حَنّا أرَنْدْت» و«ناعوم جُمْسْكي» و«ألفرد ليلْينْتَال»، بل وإسرائيليون مثل الجنرال «ماتَايُو بِلِدْ»، الذي كان قائداً للطيران الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧، ثم تغيرت حياته، وتخصص في اللغة العربية، وكان أحد أساتذته في جامعة «بيركلي» الشاعر الفلسطيني المرحوم توفيق صايغ. وهو الآن أستاذ اللغة العربية في الجامعة العبرية.

ما الذي رمى بمستر مايكل آدمز هذا المرمى، وأصابه بهذه العدوى؟

لا أدري، ولكنني أعلم أن بريطانيا بقدر ما ألحقت أضراراً جسيمة بالعرب، ظهر فيها دائماً أناس شرفاء رجالاً ونساء، سبحوا عكس التيار وتصدوا لآراء قوية معاكسة. ولم يجبُنوا عن المناداة بما رأوا أنه الحق والعدل. وتلك والحق يقال، سجية في طبعهم، الدفاع عن «القضايا الخاسرة» والتحيّز للضعيف، ولعل ذلك لا يرضي غرور العرب الذين ينهزمون وكأنهم ينتصرون، ويُخيَّل لهم مع خسرانهم أنهم رابحون.

كذلك أنا أعلم أن ديار العرب، باتساعها وتنوعها وذكائها وغبائها وسحرها وأوهامها وهداها وأباطيلها، قد جذبت إليها منذ دهر، أوروبيين كثيرين، وإنجليز بصفة خاصة، جاءوا إليها لأسباب شتى ثم وقعوا في أسرها فلم يستطيعوا منه فكاكاً. لورد ولْفرِد بلَنْت، وسير رتشارد بيرْتُن وڤيرترود بِلْ، وليدي هِسْتَرْ ستانْهوب، وداوْاتي وثِسِجَرْ، وتي أي لورنس. وليدي دَفْ قوْردُنْ وفِلْبي وغيرهم. هذا العالم الذي بدا لهم كسراب الصحراء، أغواهم وحيرهم وأربك

عليهم حياتهم، وكانوا منه كما قال المتنبي العظيم الذي يصيب كبد الحقيقة كلّ مرة:

وتـولَّـوْا بـغُـصَّـةٍ كـلُّـهـم مـنـه
وإنْ سـرَّ بـعـضَـهـم أحـيـانـاً

لكن مايكل آدمز حين تقابله لا يبدو لك كأنه يمكن أن يكون أسيراً لأية أوهام.

ترى رجلاً هادئاً واضحاً جم التواضع. ولعلك لا تدرك إلّا إذا أمعنت النظر، أن تحت ذلك الإِهاب، فؤاداً جريئاً، وعقلاً مصمِّماً إذا وقَرتْ فيه فكرة آمن بها، لا يتزحزح عنها، ويدافع عنها حتى آخر رمق.

كان، كما قلت لكم، صحافياً مرموقاً، ولو سارت به الأمور سيراً طبيعياً، لأصبح دون شك رئيساً لتحرير صحيفة كبرى. ثم قليلاً قليلاً بدأ يغطس في ذلك البحر العربي المتلاطم الأمواج. أخذت مقالاته تزداد قوة وإحساسه بالغبن الذي حاق بالفلسطينيين يزداد حدة. وكانت مقالاته شيئاً آخر، قليلون من يستطيعون أن يكتبوا مثلها حتى من العرب أنفسهم. كان صوته قوياً واضحاً مخلصاً ينفذ إلى العقل والقلب معاً. وقليلاً قليلاً بدأ نجمه يأفل وبدأت حظوظه تنعكس. ثم انقطع عن الكتابة اللهم إلّا من مقالة أو رسالة تنشرها له الـ «غارديان» أو الـ«تايمز» من حين إلى آخر على استحياء.

قابلته في باريس منذ بضع سنوات في مؤتمر من هذه المؤتمرات، دعوته إلى داري مع آخرين، منهم الديبلوماسية الذكية النشطة ليلى

فانوس، ومنهم مستر روبرت ستيفن الذي كان يعمل وقتها محرراً للشؤون السياسية في صحيفة «الأوبزرفر» ويتولى شرح قضايا العرب بأسلوبه الهادىء، مثله في ذلك مثل زوجته الدكتورة هِلْقا قِريهَمْ.
سألته ماذا يعمل فأجابني ببساطة:
«أعمل دليلاً سياحياً».

عجبت أشد العجب وقلت له:
«ماذا تقصد دليلاً سياحياً؟».

«أرافق السياح إلى البلاد العربية، وقد عدت لتوي من زيارة لعُمانْ».

ولما رأى دهشتي تزداد، قال لي، دون أي انفعال:
«عندي ولدان يدرسان في الجامعة ولا بد أن أكسب عيشي بطريقة ما». سكت، ولكنني ردَّدتُ بيني وبين نفسي قول الشاعر الإنجليزي:

«ماء ماء حيثما نظرت، ولا قطرة واحدة تُشْرب».

بعد ذلك في جولاتي في العالم العربي، كنت أقول لكل من أقابلهم من أصحاب الشأن ومن بيدهم الحل والربط:

«هل تعلمون أن مايكل آدمز.. مايكل آدمز.. يعمل دليلاً سياحياً؟».
وكانوا يتعجَّبون أشد العجب، ويَعِدون خيراً.
ثم هبَّت لنجدته دولةُ قطر.

إنه الآن، حسب علمي، يحيا حياة أكاديمية هادئة. أرجو له العافية

وراحة البال، حيثما كان، فقد حق له أن يستريح.

ثم، يا رعاك الله، أليس أهلُ مكة أدرى بشعابها؟ بلْ أليس أهلُ مكةَ أوْلى برمْضاءِ أرضِها ومَطْلِ سحابها؟

ريتشارد كمب

العداء القديم بين الإنجليز والفرنسيين، تحول على مرّ السنين إلى مرارة خافتة يشوبها إعجاب متبادل، يظهره كأنما قسراً الجانبان من وقت إلى آخر، أحدهما نحو الآخر. لم يغفر الإنجليز الأنغلوسكسون للفرنسيين أنهم غزوا بلادهم مع وليم الفاتح عام ١٠٦٦، واحتلوها ردحاً من الزمن، وغيّروها إلى الأبد. والفرنسيون لم يغفروا للإنجليز، بصفة خاصة، أنهم هزموا أمبراطورهم المحبوب، نابليون، عام ١٨١٥ في موقعة واترلو، وغيّروا بذلك مجرى التاريخ. وظل الشعبان ينظر بعضهما إلى البعض الآخر، عبر المضيق، الذي يسميه الفرنسيون «المانش» ويسميه الإنجليز «مضيق دوفر» بمزيج من الحذر والإعجاب والغيظ. ولكن ربما يكون الإنجليز أكثر غيظاً، فإنهم يجدون في الفرنسيين صفة غامضة لا يفهمون سرّها، تجعل كل عمل يأتونه يبدو أكثر جاذبية: من طعامهم إلى أزيائهم، وعطورهم، ومدنهم وثقافتهم. حتى «السترتيز» تؤديه الإنجليزية فيبدو مبتذلاً، وتؤديه

الفرنسية، فيبدو جذاباً، وقد تكون الفرنسية أقل جمالاً من الإنجليزية، ولكنها لسبب ما، تبدو أكثر منها حيوية وجاذبية ووقعاً على السمع والبصر. نشيد «المارسييز» الذي نبع ارتجالاً، وتغنى به ثوار مارسيليا وهم يسيرون للانضمام إلى الثورة في باريس، تحول بعد ذلك إلى نشيد وطني لفرنسا، لسبب ما، يبدو أصدق وأكثر إثارة للحماسة، من النشيد الوطني «يا بريطانيا تحكمي في أمواج البحر» الذي يؤديه الإنجليز على استحياء وكأنهم لا يؤمنون تماماً بما يقولون. وحين كان شارل ديجول لاجئاً في لندن يطلب النجدة من الإنجليز، يوم احتل النازيون فرنسا، كان يعامل الزعيم البريطاني ونستن تشرشل بتعال واضح، كما يقول المثل العربي «حسنة وأنا سيدك». وتقرأ الفيلسوف الإنجليزي «برتراند راسل» فإذا فكر ثاقب وأسلوب ناصع وقول ليس عسيراً على الفهم. وتقرأ الفيسلوف الفرنسي «جان بول سارتر» وهو أقل عظمة من راسل في رأي الكثيرين، فإذا آراء متضاربة، وأسلوب مفتعل وأحابيل عقلية لا تنطلي على ذي فطنة. ومع ذلك فإن شهرة «راسل» تقتصر على الخاصة، بينما شهرة «سارتر» قد طبّقت الآفاق، ومذهبه الوجودي ما يزال له أتباع وأنصار. ورغم ذلك فقد وجد في فرنسا دائماً، فرنسيون يحبون الإنجليز أو على الأقل يحترمونهم، ربما يكون منهم «الأمبراطور» نفسه الذي آثر، حين مالت به أقداره، أن يلجأ إلى رحمة الإنجليز، مؤثراً إياهم على الألمان والروس. ومنهم «شاتوبريان» العتيد، صاحب «مذكرات من القبر»، ومنهم في الآونة الأخيرة «أندريه موروا». والإنجليز كذلك، كان منهم دائماً محبون للفرنسيين أو معجبون بهم. منهم الشاعر الإنجليزي العظيم «ويردزورث» الذي تغنى في شعره بالثورة الفرنسية، ومنهم الناقد الكبير «وليم هازلت» الذي سبح ضد الشعور الوطني الطاغي في إنجلترا، بتأييده لنابليون.

سقت لكم هذا، لأنني قرأت مؤخراً مقالة للمؤرخ البريطاني المعروف «ريتشارد كمب» ينقد فيها كتاباً لشيخ المؤرخين الفرنسيين «فيرناند برودل»، وقد توفي قبل أن يخرج كتابه باللغة الإنجليزية. كان «ريتشارد كمب» أستاذاً للتاريخ الحديث في جامعة أوكسفورد حتى عام ١٩٨٤. وقد عاش في فرنسا تسع سنوات. واشتهر بدراسته عن تاريخ فرنسا، وتاريخ الثورة الفرنسية خاصة. من ذلك كتابه «الجيش الثوري في ليون» وكتابه «الموت في باريس» عن الفترة من عام ١٧٩٥ إلى عام ١٨٠١. لا عجب إذاً أنه اغتاظ أن المؤرخ الفرنسي قال في مطلع كتابه المسمى «هوية فرنسا»: «لا يستطيع المؤرخ أن يكتب بفهم تام إلّا عن تاريخ وطنه.. مثل هذا الفهم لا يتأتى له أبداً، مهما بلغ علمه، إذا نصب خيامه في أرض قوم آخرين». ويعلق المؤرخ الإنجليزي بغيط واضح «هذا الرأي الاحتكاري يناقض عمل «برودل» نفسه الذي اكتسب احتراماً كبيراً لمؤلفاته عن تاريخ إسبانيا والأمبراطورية الإسبانية وعالم البحر الأبيض المتوسط في عصر فيليب الثاني. وأنا أعجب: ماذا كنت أفعل إذاً طيلة الخمسين عاماً الماضية؟».

وفي فقرة قاسية تنم عن رأي الإنجليز في الثقافة الفرنسية، عموماً، يقول المؤرخ الإنجليزي: «يشتمل أغلب هذا الكتاب على بديهيات ترتدي أثواباً براقة، لا تثبت لضوء اللغة الإنجليزية النافذ. وفي أغلب الأحيان يقدم المؤلف أشياء واضحة كأنه اكتشف أموراً عظيمة. والهدف هو ـ كما يقول برودل ـ (أن نخرج تاريخنا من وراء الحيطان التي أقامها حوله الآخرون) أي المؤرخون الذين لا ينتمون إلى النادي». يعني المؤرخين الإنجليز.

ويتضح غيظ المؤرخ الإنجليزي «ريتشارد كمب» من احتقار المؤرخ

الفرنسي «برودل» لجهد المؤرخين الإنجليز، وضوحاً لا مراء فيه. في هذه الفقرة يخصص برودل صفحات عدة لميناء «روان» الصغير متجاهلاً ذلك التحليل المفصل لسكان البلدة الذي عمله «كلن روكاس» (الإنجليزي) في كتابه الرائع (مقومات الرعب). ويتحدث عن موجات الهجرة دون إشارة واحدة لأعمال «ألون هفتن» (الإنجليزي). ويسرد بإسهاب أصناف الطرق عبر القرون. غير مدرك فيما يبدو، أن مؤرخاً إنجليزياً (يعني نفسه) قد كتب عن الناس الذين قطعوا الطرقات مشياً أو على ظهور الدواب متجهين صوب باريس. وفي كتابه فصول طوال عن حروب وراثة العرش الإسبانية دون أن يشير ولو مرة واحدة إلى تاريخ كيمبردج الحديث الذي أشرف عليه المؤرخ النابغة «جون برملي».

ويكاد هذا المؤرخ الوقور يفقد اتزانه حين يصل إلى هذه الفقرة «حقاً إنه ليس اكتشافاً عظيماً أن تقول إن روان وليهافر ميناءان وأن مرسيليا تطل على البحر. ثم إن مؤرخين آخرين قد أشاروا إلى السخط الذي أحسه سكان البلدان الصغيرة على الضفة الشرقية لنهر الرون، تجاه مدينة ليون. حتى المؤرخون الإنجليز يستطيعون أن يفهموا شيئاً من خرائط ترودين عن أحوال الطرق والأنهار في الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر».

ويختتم الأستاذ الإنجليزي «ريتشارد كمب» عرضه لكتاب الأستاذ الفرنسي «فيرناند برودل» قائلاً «هل أوصي بقراءة هذا الكتاب؟ ربما».

كأني بهذا العالم الوقور، وهو يركب دراجته في الشارع الرئيسي في مدينة أكسفورد، وقد نفخ الهواء عباءته الجامعية السوداء، يصرخ

بأعلى صوته «بريطانيا تحكمي في أمواج البحر».

أما الحبر الفرنسي برودل، فإنه ينظر إليه بتلك الدهشة الفرنسية الجذابة على طريقة الممثل «موريس شفالييه». يهز كتفيه ويمط شفتيه ويقول «بوف. هؤلاء الإنجليز». ثم يضحك بصوت مرتفع ويقول عبارة بذيئة لا تليق بالأساتذة المحترمين.

■ ■ ■

الفصل السادس

فيرناند برودل

«حين خطف الموت بالتهاب الرئة، ذلك الإنسان الذي كان رغم رقته وهشاشته صلباً عنيداً، ذلك الإنسان المنقطع النظير في تاريخ الفن الأوروبي... حينئذٍ أطبق علينا جميعاً إحساس شامل بالكآبة والوحشة، ولم نكن قد أفقنا بعد من صدمة وفاة (شاتوبريان) ثم (بلزاك)، وتجددت أحزاننا بعدهما بموت (فينيي). مثل هذه المصائب، تحدث هبوطاً في الحيوية العامة في الوطن، وتمدّ ظلها على العقل والوجدان. إنه شعور يقاسيه أولئك الذين يتعزّون في عزلتهم الرفيعة، بأن يجمعوا حولهم أسرة وعشيرة من أخوة الفكر.

أما المواطنون العاديون، فإنهم لا يدركون إلّا بعد زمن الخسارة الفادحة التي تصيب الوطن بفقد رجل عظيم والفراغ الذي يسببه رحيله.

وحتى حينئذٍ، لا بد من تذكيرهم».

شارل بودلير، في رثاء الرسام الفرنسي (يوجين دي لاكروا) عام ١٨٦٣.

يُعدّ المؤرخ الفرنسي (فيرناند برودل - Fernand Braudel) بين عظماء المؤرخين في هذا العصر. ولد عام ١٩٠٢ في قرية من قرى منطقة الـ (لورين)، المنطقة التي أنجبت (جان دارك)، وتوفي عام ١٩٨٥. كان (خلدوني) النزعة، مثل (آرنولد توينبي) في بريطانيا، يمزج بين التاريخ وعلم الاجتماع في دراسته لماضي الإنسانية.

اشتهر أول الأمر بكتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط في عهد الملك فيليب الثاني)، ثم شغل كرسي الأستاذية في معهد الـ (الكوليج دي فرانس) المرموق. وقد كان أيضاً أستاذاً في معهد الدراسات العليا، الذي أنشى في باريس لتشجيع الدراسات التي تُزاوج بين التاريخ وعلم الاجتماع.

كتابه (هوية فرنسا)، هو آخر كتاب له، وقد نشر بعد وفاته، يحاول فيه أن يتعرّف إلى العناصر التي تكوّنت منها شخصية فرنسا. يقول فيه:

«ليسمح لي القارئ أن أقول بوضوح منذ البداية، أنني أحب فرنسا حباً قوياً عميقاً لا يقل بأي حال عن حب (جول ميشليه - Jules Michelet)[1]. لا أميّز في هذا الحب بين ما هو حسن وما هو قبيح، بين ما يعجبني في فرنسا، وما أجد من العسير عليّ تقبله. إنما هذا الحب لن يمنعني أن أقول الحقيقة كما أراها. سوف أحرص أن أضع حبي لفرنسا جانباً. سوف أراقب نفسي مراقبة صارمة. ولعل الحب يغلب عليَّ أحياناً، متخذاً شتى الحيل، حين يحدث هذا فسوف أنبه القارىء.

إنني عقدت العزم أن أكتب عن فرنسا وكأنها بلد آخر، وطن آخر،

أمة أخرى. ومهما يكن فإن صناعة كتابة التاريخ اليوم، أصبحت تقتضي منا مزيداً من ضبط النفس والسيطرة على العواطف.

على المؤرخ بصفته (مراقباً محايداً) أن يأخذ على نفسه (عهداً بالصمت)، إذا صح القول. ولعل العمل الذي أنجزته من قبل، يسهل مهمتي هذه، إذ إنني في كتابي عن البحر الأبيض المتوسط والرأسمالية، نظرت إلى فرنسا من بعيد، وأحياناً من بعيد جداً. وهكذا أعود الآن إلى أرض الوطن، ربما في وقت متأخر. إلّا أنني لا أنكر أنني أجد سعادة عظيمة في هذه العودة، إذ لا مراء في أن المؤرخ لا يقف على أرض صلبة إلّا حين يكتب عن وطنه. إنه يعرف دون جهد، تموّجات ذلك التاريخ، وصعوده وانحداره، وعناصر القوة والضعف فيه. أبداً، لن يكون بمثل هذه الثقة، مهما بلغ من العلم، إذا هو نصب خيمته في بلاد غير بلاده. لذلك يصح القول إنني أدخرت (خُبْزي الأبيض) إلى النهاية. أبقيت تلك الفضلة زاداً لشيخوختي.

هدفنا إذاً أن نتحرّر من العاطفة مهما كانت دوافعها، سواء كانت في طبيعتنا، أو وضعنا الاجتماعي، أو بسبب (معادلاتنا) الشخصية، أو أي من هذه الدوافع التي ترى بها الحياة في وجوهنا. هذا بالتأكيد لم يفعله (هبولايت تين)[٢] في كتابه (مقومات تكوين فرنسا الحديثة)، مهما خيل له عكس ذلك. لقد زعم أنه أراد أن ينظر إلى فرنسا (كأنها حشرة في مراحل نموها). كان (ألكسي دي توكْفيل)[٣] أكثر توفيقاً منه في كتابه الجميل (المعهد الملكي والثورة الفرنسية) (...).

واضح أن الأمة في أطوار نشوئها، لا تكون مخلوقاً بسيطاً. لا

تكون (شخصاً) محدداً، كما قال (ميشليه) متفزّلكاً. بل هي أنقاض تراكمات، وأشباح تصورات، ومجموعات كائنات حية، لا يستطيع أن يفيها حقها المؤرخ (السَّرْدي) الذي ينظر إلى الأحداث في تسلسلها، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وعاماً بعد عام.

يوجد في نظرنا نوع آخر من التاريخ. تاريخ يُعنى بالآماد المتطاولة، ويميّز بين العناصر المكونة للتراكمات العجيبة، ويتبين دورات الحياة البشرية في إقبالها وأدبارها. هكذا نصل إلى أسلوب في كتابة التاريخ، فاحص غوّاص في الأعماق، بالطريقة نفسها التي كشف بها التحليل النفسي في مطلع القرن العشرين، مجاهل العقل الباطن. ولعل (آرنولد توينبي قد بالغ قليلاً حين قال (إن الأربعة أو الخمسة قرون التي تصرّمت منذ كولمبس) وفاسكو داغاما، ليست أطول من إغماضة العين بالقياس إلى عمر الأرض كما حدّثنا علماء الجيولوجيا). ومع ذلك فإن في عبارته تحذيراً لأولئك الذين يقيسون التاريخ بمقاييس قصيرة (...).

إنما الذي يغيظني أكثر من أي شيء، هو ضيق الأفق الذي تفرضه هذه النظرة. النظام الملكي والثورة الفرنسية، قريبان لنا في الزمان، إذا مددنا أيدينا نكاد نلمسهما، وكأنهما معاصران لنا. ما يجب علينا عمله هو أن ننظر إلى تاريخ فرنسا في تدفقه المتصل منذ احتلال الرومان لبلاد الـ(غال). حين وصل الملك لويس الرابع عشر، كان تاريخ فرنسا قد أصبح رجلاً طعن في السن جداً، لأجل ذلك فإنه يحزنني أن الجهد الضخم الذي بذله (ثيودور زلدن)[٤] في كتابه (تاريخ الأحاسيس الفرنسية) يفاد منه أن التاريخ لديه يبدأ عام ١٨٤٨.

كأنما التاريخ لا يعود إلى تلك العهود السحيقة التي يحجبها الضباب! كأنما التاريخ القديم والحديث ليسا نهراً واحداً! كأن قرى بلادنا لم تكن قد قامت وضربت جذورها في الأرض في الألف الثالث قبل الميلاد! كأن أرض الغال لم تكن قد اتضحت معالمها، التي سوف تتشكل في إطارها شخصية فرنسا! كأن تدفق القبائل الجرمانية عبر نهر الرّين، لم يصبح سمة مهمة من سمات العالم الحديث! كأن الدماء التي تجري في عروقنا لا تحمل خصائص واضحة موروثة من تلك القبائل (البربرية) الغازية في ذلك الزمان البعيد! كأن معتقداتنا ولغاتنا لم تنحدر إلينا من عصور الظلام تلك!

هذا ما يعنيني تحديداً في كتابة التاريخ. التاريخ الغامض. الذي يجري تحت السطح مثل نهر جوفي. التاريخ الذي يرفض أن يموت».

■ ■ ■

يقول المؤرخ الفرنسي الكبير (فيرناند برودل) في كتابه (هُوية فرنسا):

«لا حاجة بالإنسان إلى القول، أن فرنسا متنوِّعة ـ وهو تنوع يصل إلى درجة الغرابة ـ وأن تنوعها الجغرافي، لا مثيل له في أي أرض في العالم. كل قرية لها طابعها المميّز، وكل إقليم، وكل مقاطعة. لا ترى ذلك فقط في طبيعة الأرض، والآثار التي تركها الإنسان، ولكن أيضاً في أسلوب العيش، وفي نمط الحياة والموت. تميّز هذا التنوع في مجموعة النّظم التي تحكم العلاقات بين البشر. بين الآباء والأبناء، بين الرجال والنساء، مع الأصدقاء والجيران.

ولعلّ هذه الظواهر كانت أكثر وضوحاً منها الآن. منذ وقت ليس

بالبعيد، كنت تجد آثاراً ظلت على حالها، لم تتغيّر منذ قرون. أعْرافاً محلّية، ولهجات، وأغاني ورقصات، وبيوتاً بُنيت على النّمط القديم من الطين والجص والتبن المخلوط بالطين، والحطب، ناهيك عن تنوّع الأزياء، والمقاييس والموازين التي تختلف اختلافات لا حصر لها من منطقة إلى أخرى.

ولك أن تتخيّل كمْ من الصعوبات كان يلاقي عمّال الدولة في حصر كميّات الحبوب وأسعارها في أي إقليم. كانوا يضطرون إلى تسجيل الأوزان والأسعار التي تُباع بها الحنطة والشعير والذرة على اختلافها في كل قرية ومدينة، ثم يحوّلونها إلى الـ Poids de marc. وقد كانت وحدة القياس الوحيدة المتاحة.

أيضاً تنوع الأزياء. كان أهل (بريتون) مثلاً يلبسون الأحمر، وأهل (كورْنويل) يلبسون الأزرق، وأهل (تريفور) يلبسون الأرجواني، وذلك في أماكن متقاربة في رقعة من الأرض ليست واسعة. وفي عام ١٨٧٨، كان زي أهل (مورفان) كما يلي: كل النساء على اختلاف أعمارهن يلبسن ثياباً من الصوف، مخططة خطوطاً عريضة، ويلبسن جوارب بيضاً من الصوف، ويضعن في أرجلهن قباقب من الخشب مغطاة بجلد الضأن، ويضعن على رؤوسهن قبّعات من قماش كثيف مصبوغ بصبغة زرقاء، وكلهن يعْقصْن شعورهن من الخلف على هيئة كعكة. كذلك طراز البيوت. في إقليم الـ(جورا Jura) كل جبل كان له الـ Immeuble(٥) الخاص به، أي الشكل المميّز للدار، كما يقولون إلى اليوم.

ولا مراء في أن بعض هذه الأشياء قد تغيّرت أو هي آخذة في التغيّر. وربما تكون الفوارق قد بهتت، ولكنها لم تختف تماماً. كان

(لوسيان فيفر Lucien Febvre)[٦] يقول عن حق (إن اسم فرنسا هو التنوع). وأنا أزيد عليه فأقول (إن فرنسا هي التنوع). ذلك لأن تنوع فرنسا، ليس مظهراً عابراً، بل هو أمر متغلغل في نسيجها الداخلي. إنه الانتصار المدهش للكثرة والتعدّد. انتصار (الذي ليس متشابهاً، الذي لا تجده في أي مكان آخر).

قد يكون أن إنجلترا أيضاً متنوعة ـ كما يقول الإنجليز ـ وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا. نعم. ولكن تنوّع هذه البلاد لا يمكن أن يبلغ تنوع فرنسا في جيَشانه وإصرار الفرنسيين عليه واعتزازهم به. إن المؤرخ الأميركي (يوجين وبَرْ) حين أخذ ينظر إلى فرنسا عام ١٩٠٠، وجد أنها تسيل بين أصابعه إلى (فرنسات) شتى، كل منها قائمة بذاتها كأنما بمعزل عن الأخرى.

الفوارق الموجودة إلى اليوم يتصور المرء أنها تكون قد انمحت، تحت وطأة شعار اليعقوبيون[٧] (فرنسا واحدة لا تتجزأ)، وهو شعار ساد قرنين من الزمان ـ ويا لهما من قرنين! ـ ومن قبلهم النظام الأبوي الذي لم يقلّ عنهم تأكيداً على المركزية. أضف إلى ذلك تطور سبل المواصلات، وغلبة اللغة الفرنسية (لغة الأيل دي فرانس) التي ظلت تزحف منذ عام ١٠٠٠ (ألف). هذا إلى التوسع الصناعي في القرن التاسع عشر، والازدهار الذي لم يسبق له مثيل من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٧٥. من حق المرء أن يتوقع أن هذه العوامل الجبّارة، إنْ لم تقضِ تماماً على الفوارق، تكون قد طلَتْ مئات الآلاف من قطع الموزاييك هذه، بطلاء كثيف من (المنوكروم). ولكن هذا لم يحدث.

الأدلة الماثلة كلها تبرهن على أن (التعدّد) يغلب على (التوحد).

فرنسا، كما قال الكاتب (إيف فولرن) مازحاً (واحدة وقابلة للقسمة). ومن السهل أن يصدق الإنسان الكاتب الروائي (جيونو Giono)[٨] حين يقول، إنه لا يستطيع أن يتخيّل شخصيات رواياته، إلّا في أماكن محددة، في بيئات واضحة المعالم، عرفوها ونشأوا فيها وتوحّدوا معها. وهذا واضح في قصصه. الأشخاص، سواء في جبال الألب في (بُرفنْسال) أم في سهول (كاماراج) حياتهم تلفُّ وتدور حول الأشجار وتلال الرمل ومنتجعات النحل، والحقول والثيران والخراف والخيول. لذلك يمكننا القول، أن الذين يتنبأون أن المجتمع الفرنسي سوف يصير شيئاً واحداً، لن يقلّوا بُعداً عن الصواب عن (ستندال - Stendhal)[٩] حين تنبّأ عام ١٨٣٨ أن (الفوارق في فرنسا تنمحي سريعاً. في غضون نحو خمسين عاماً لن يبقى بروفنساليون ولا لغة بروفنسالية).

إلّا أن الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الاقتصاد والاجتماع وكتّاب المقالات وعلماء الأنثروبولوجيا والسياسة، إذْ يجمعون كلهم على تنوع فرنسا، سرعان ما ينسون هذا التنوع، ويمضون في الحديث عن فرنسا كأنها شيء واحد، وكأنما المهم عندهم غض النظر عن التفاصيل، والتركيز على الأسس، إغفال مظاهر (التعدد) والانصراف إلى (التوحّد). لا يهمهم الشيء الماثل للعيان بقدر ما يهمهم الشيء المرغوب فيه، ليس العوامل المناهضة لباريس، ولكن المجرى الرئيسي لتاريخ فرنسا.

هكذا قال كاتب في معرض الفخر بفرنسا (إنها أرض الآباء والأجداد، واحدة لا تتجزأ. متنوعة ودائمة التحوّل. لقد جذبت إليها على مدى قرون، عناصر متباينة، وإن معجزتها أنها نسجت كل هذه العناصر في نسيج واحد، دون أن يفقد أي منها خصائصه الفردية المميّزة).

إنني لا أنكر وجود هذا الوطن الموحّد. ولكنني أقول إن العوامل التي تقاوم هذا التوحد، لا توجد في مجموعات المهاجرين الذين يُلْقى بهم في البوتقة، كما يحدث في أي قطر. إن عوامل المقاومة، هذه، تجيء بالأحرى من (فرنسات) عدة، كل منها قديمة قدم التاريخ، وكان من الضروري ربطها برباط واحد. القول بأنها أصبحت (نسيجاً واحداً) هو بالتأكيد قول فيه كثير من المبالغة.

ومهما يكن، فلا شك أن الحوار بين التنوّع والتوحّد لا يمكن أن يمضي كما يجب، إلّا إذا أعطينا (التنوّع) ما يستحقه من أهمية. وما لم نضعه في الصدارة من اهتماماتنا، فإننا أبداً لن نستطيع أن نفهم مُعضلة المعضلات في مزاج أمتنا ألا وهي التشرْذم الذي يوجد تحت السطح في تكوينها. الخلاف والتنافر والتشويات الهشة. الصراعات والعداوات المريرة وسوء الفهم المتبادل. إن البيت مهدد على الدوام باشتعال الحريق فيه. إن المؤرخ Marc Ferro كان مصيباً حين قال (موهبة فرنسا الحقيقية هي أنها دائماً على شفا حرب أهلية)».

■ ■ ■

يمضي المؤرخ الفرنسي العلاّمة (فيرناند برودل) في الحديث عن (تنوع) فرنسا، في كتابه (هوية فرنسا) فيقول:

«لا تكاد تذكر (الطقس) حتى تثب إلى ذهن السامع صورة واضحة للاختلاف الذي يعرفه كل فرنسي، بين الطبيعة في شمال البلاد وجنوبها. ينتهي الجنوب حيث ينتهي نبات الجنوب في انتشاره شمالاً ـ الكروم والزيتون والذرة والكستناء والتوت. لن أذكر

الحنطة، لأنها توطّنت في فرنسا منذ ما قبل التاريخ وأخذت وقتاً لتتكيّف مع الطقس، وتستطيع البقاء في أنحاء فرنسا كلها.

ظهر العِنب أول ما ظهر في إقليم (ناربون Narbonne) الذي غزاه الرومان وسيطروا عليه بين عامي ١٢٠ و١٠٠ (مائة) قبل الميلاد، وظل ينتشر في خطوات واسعة فوصل إلى النصف الشمالي من البلاد، شجّع على ذلك ظمأ الفقراء وبطر الأغنياء، وتشجيع الكنيسة التي تحتاج إلى (ابنة الكرْم) في طقوسها فاتّسع مداه حتى وصل إلى ضفاف نهر الـ (سوم Somme) في الشمال.

أَلم يُعوّد التجارُ الرومان سكان بلاد الغال على شرب النبيذ؟ كانوا يعطون الواحد منهم زقّاً ويأخذون مقابله رجلاً يتخذونه رقيقاً. وقد قال أحد المؤرخين وهو جادّ كالمازح، إن النبيذ فتح الطريق لجيوش الرومان لاستعمار بلاد الغال، تماماً كما استغل الإنجليز والفرنسيون المشروبات الكحولية فيما بعد للسيطرة على الهنود المساكين في القارة الأميركية.

ربما من حسن الحظ، أن نباتات الجنوب لم تنجح في الانتشار في أرض فرنسا كلها، باستثناء الذرة الهجينة المولّدة في أيامنا هذه، فكل رحّالة من الشمال، يذكر جيداً ذلك الشعور بالدهشة واللذة أول ما ظهرت له تباشير الجنوب. الإحساس بالدفء والترحاب، ربما لمرأى أول شجرة زيتون على ضفة نهر الـ (رون Rhone) جنوب (فالنْس). أو ربما منظر البيوت التي يراها وهو ينحدر في واد من أودية الـ (ألْب)، بيوت ذات سطوح مستوية، مبنية من حجر عسلي اللون، وسط حقول مدرَّجة، بين روائح النباتات الجنوبية الفوّاحة، تحت سماء صافية مضيئة. مثل هذا اللقاء، أبداً يملأ قلبي بالبهجة.

إنما يصح القول، أن من النادر أن تجد إنساناً شمالياً يستسلم من أول وهلة لإغراء الجنوب، فهو عالم مختلف جداً عن العالم الذي ينتمي إليه.

في عام ١٧٨٧، كتب الرحّالة الإنجليزي (آرثر ينج ـ Arthur Young)[١٠] يصف شعوره حين وصل إلى (مونتْلمار):

«لا تجد شجرة الزيتون وحسب، وإنما تجد أيضاً ولأول مرة شجرة الرمان و(شجرة يهوذا)[١١] والتين وشجر السنديان المخضرّ دائماً. بالإضافة إلى هذه النباتات الغريبة، لا بد أن أذكر ذلك (المخلوق) الكريه، أعني البعوض. أول ما عبرت جبال الـ (أوفيرني) وخلُصت من (فيلبية) ثم هبطت من جبال (فيفاري) ماذا لقيت في آن واحد مع شجر التوت؟ لقيت هذه الآفات الطيارة. وحين أقول (الآفات) فإنني أعني سحُباً فوق سحب من هذه البلوى التي تنفّر المرء من بلاد الجنوب. إنها تلاحقك في إسبانيا وفي إيطاليا وفي منطقة الزيتون من فرنسا، لا تكتفي بأن تعضّ وتلسع وتجرح، ولكنها فوق ذلك كله تطن وتزن، وتدخل في فمك وعينيْك وأذنيك وأنفك. تغير مثل جحافل جيوش غازية على أي طعام تضعه أمامك ـ الفاكهة والسكر والحليب. وإذا لم تجد أحداً ليس له عمل إلاّ أن يقف على رأسك ويطردها عنك، فلن تستطيع أن تأكل طعامك».

قبل قرن من هذا التاريخ في عام ١٦٦٢ وجد (جان راسين)[١٢] نفسه في وضع ليس أسعد من هذا، حين وصل إلى (أوزي) قادماً من (فالْوا). كان يؤمّل أن يجد راحة البال والطمأنينة ثمة، في رحاب الكنيسة. قال إن عذارى (لا نْقوادُك) على شيء من الجمال، ولكنه تساءل:

ألا يفسد المرء لسانه إذا أطال التحدث بتلك اللغة (الأجنبية) التي لا تقلّ بُعداً عن اللّسان الفرنسي من لغات إقليم (بريتون)؟ أمّا الحرّ! كتب إلى صديق له يقول:

«لو كنت هنا لرأيت جماعات من عمال الحصاد أنضجت الشمس جلودهم، يعملون في الحقول مثل عفاريت الجن. حين يتعبون وتتقطع أنفاسهم، يتهاوون على الأرض، تحت وهج الشمس، وينامون ملء جفونهم في ذلك البؤس. وفجأة يصحون من إغفائهم ويعودون إلى أعمالهم. أكاد لا أحتمل وأنا فقط أراقب ما يجري من وراء نافذة غرفتي. لو عرضت نفسي لحظة واحدة لهذا الجحيم، فسوف يُغمى عليَّ لا محالة. الهواء هنا يتلهّب من الحرارة كأنك في فُرن.

وجد (راسين) أنه في ورطة من جراء ذلك كله. لم يقْو على احتمال الحر، ولا طنين حشرات الـ(سيكادا)، وحتى لم يحتمل، كما وصف:

«الحفاوة الزائدة عن الحد، من هؤلاء الفلاحين الأجلاف الذين أحرقت الشمس أجسادهم، وهم يدْرسون الحنطة بأرجلهم في الجرن، يحيونك بحركات من أجسامهم تبدو مثل الرَّقص».

■ ■ ■

نواصل الاستماع إلى المؤرخ الجليل (فيرناند برودل) وهو يتحدث عن التنوّع في فرنسا في كتابه الجميل (هويَّة فرنسا). يقول:

«إذا لم تكن فرنسا موحدة جغرافياً واقتصادياً وبشرياً، ففي أي شيء إذاً تكون وحدتُها؟ أتراها موحدة وحدة ثقافية؟ ربما. لكننا نعرف بالطبع، أنك إذْ تجد في القمة (حضارة) فرنسية موحدة ـ حضارة نخبوية وهّاجة ترى نفسها مثلاً مُدْهشاً لا نظير له وتشمل بنظمها القطر كله، أو بالأحرى تفرض نظمها من فوق على القطر كله ـ بينما تجد هذه (الحضارة)، تجد في الوقت نفسه حضارتيْن على الأقل، ظلّتا موجودتين منذ قرون، تعيشان في تنافر، الواحدة إزاء الأخرى، وكل منهما لها حيّز لُغوي تسيطر عليه.

هاتان الحضارتان هما حضارة الشمال الغالبة، حضارة Oil(١٣) (أويل) وحضارة الجنوب، حضارة Oc (أُك) التي سوف يقدر لها أن تكون أشبه بمستعمرة في نطاق نفوذ الشمال وتفوّقه المادي.

إنني بالطبع أحب الحضارتين بالقدر نفسه، وأحاول جهدي أن أفهم كلاً منهما ولا أتحيز لإحداهما دون الأخرى. وذلك قد يجر عليَّ تهمة (الوسطية) الأمر الذي أحرص على تجنبه في نظرتي إلى تاريخ الفريقيْن.

نحن إذاً إزاء شرخ واسع، هوة عميقة بين الشمال والجنوب في فرنسا. وهذه الهوة هي عبارة عن الحد الفاصل بين اللغتين، وتمتد من (لا ريول ـ La Reole) على نهر (قارون ـ Garonne إلى حوض الـ (فار ـ Var) آخذة قطعة كبيرة من سلسلة الجبال الوسطى وجبال الـ (ألْب). ويُحتمل أن الحدود اللغوية تمتد أبعد من هذا شمالاً حسب التقسيم الثقافي. هذا إذا قبلنا الأدلة والمعايير والافتراضات التي يقدمها لنا (المؤرخون ـ الجغرافيون) الذين انتبهوا مؤخراً إلى أهمية أسماء الأماكن واللهجات المحلية كسند للتاريخ.

لا يستطيع أحد أن ينكر على أي حال، أن تاريخ فرنسا جنوب هذا الخط وشماله، قد سار في مساريْن مختلفيْن. وبوسعك أن تعتبر تلك قاعدة ثابتة، إن الذي حدث في الشمال، لم يحدث بالطريقة نفسها في الجنوب. والعكس صحيح. كانت توجد دائماً في الجنوب، (فرنسا) أخرى. قطر آخر، ظل الشماليون يكتشفونه بدهشة تصل أحياناً إلى درجة السخط.

لنأخذ (راسين Racine) مثلاً. لقد استمعنا إليه من قبل يلعن ويضيق بإقامته في (أوزي) لأنه لم يفهم كلمة واحدة من لغة الناس جنوب (فالنْس). هذا مع العلم أن الـ (Patois)[١٤] كانت لغة شائعة في زمانه. قال في رسالة إلى (لافونتين ـ La Fontaine)[١٥]:

«أقسم لك أن حاجتي إلى مترجم في هذه البلاد لا تقل عن حاجة رجل من موسكو إلى مترجم في باريس... شيء يبعث على الجنون».

وكتب إليَّ صديق آخر يقول:
«إنني لا أفهم لغة هؤلاء القوم ولا هم يفهمون لغتي».

بلى، كانا قطرين مختلفين بكل معنى الكلمة. وقد قال رجل إنجليزي مُعجب بالـ (كاميسار Camisards)[١٦] في كتاب نُشر في لندن عام ١٧٠٧:

«رأيت مجاذيب من بسطاء الفلاحين، ينطقون، وهُم في حالة غيبوبة، نبوءات باللغة الفرنسية... معجزة لا شك، إذ إنه ليس أقل

صعوبة على إنسان من هذه البلاد أن يتحدث الفرنسية، من الحديث بالإنجليزية على فرنسي وصل لتوه إلى إنجلترا».

إلّا أنها معجزة يسهل تعليلها، لأن الـ (كاميسار) كانوا يقرأون الإنجيل ويرتلون التراتيم الدينية باللغة الفرنسية كما ترجمها (مارو ـ Marot)[١٧].

كان (مرمي ـ Merimée) وهو باريسي من أصول نورمندية، مراقباً ذكياً فصيح العبارة يمكن أن يوثق به. كيف وجد حين حلَّ في (أفينْيون Avignon) عام ١٨٣٦، التي وصل إليها في باخرة على نهر الـ (رون Rhone)؟ قال إنه شعر أنه في بلد (أجنبي). ذلك لم يمنعه بالطبع أن يعود إلى الجنوب ويموت في (كان ـ Cannes). وقد يغفر له، أنه ضمَّ جزيرة كورسكا ابنة البحر الأبيض المتوسط إلى محيط الأدب الفرنسي، فقد نُشرت روايته (كولومبا ـ Colomba) عام ١٨٤٠.

أما (لوسيان فيفر) الذي ولد في (نانْسي) عام ١٨٧٨، ولكنه في الأصل من (فرانْش كوْمتي ـ Franche Comte) وظل هواه مع ذلك الإقليم، فقد أصيب بصدمة حضارية عنيفة، حين قام برحلة في الجنوب الغربي. حدّثني في رسالة وردتني منه بتاريخ ٢٠ تموز/ يوليو عام ١٩٣٨:

«وصلت إلى هنا متّخذاً الطريق الأطول.. في منطقة هي نموذج حسن لفرنسا، إنما هل يجوز للإنسان أن يسميها فرنسا؟ ما أغرب هذه الأصقاع، وما أبعدها عنا نحن أهل الشمال والشرق! الكاتدرائية التي تنتصب أمامك في (برقو ـ

Perigueur) كأنها كاتدرائية (أيا صوفيا).

غباء (مويْساك) التي باعت روحها لقاء سلّة من العنب! كنيسة (سان بيير) بتماثيلها وأبراج أجراسها، مقفرة تماماً ومكفهرة الوجه. أي أرواح غامضة تجول في طرقات بلدة (Auch) بقلعتها الحجرية العتيقة؟ لا شك أن تحت السطح الذي يبدو هادئاً في هذا المكان، تمور عواطف متأججة وحزازات قديمة. كل هذا يملؤني بالكآبة ويقوي لدي الإحساس أنني بعدت جداً عن موطني».

أما (المارشال ليوتي Lyautey)[١٨] أمير الـ (لورين)، فقد قال باقتضاب:
«إنني أحس بالغربة في Beziers».

هذا الإحساس بالغرابة وعدم الألفة يتكرر جيلاً بعد جيل. في عام ١٨٧٢، جاء دور (أرنست رينان) أن يقطب وجهه. قال وهو يتصنّع الإنصاف:

«ولكن توجد نظرة أخرى مستمدة من طبيعة الأرض والسكان، وتبدو لي مقنعة تماماً. إن الشبه بين إنجلترا وشمال فرنسا يتضح لي يوماً بعد يوم. كل الرذائل جاءتنا من الجنوب. يا ليت فرنسا لم تضم إليها إقليم (لا نقوادك) وإقليم (برفانس). لكننا اليوم أمة تحب الجد وتُقبل على العمل. أمة بروتستانتية ديموقراطية برلمانية».

يا لها من قائمة من الفضائل الضائعة وأيضاً من الافتراضات الخاطئة التي لا تقوم على أي أساس، خاصة حين يذكر الإنسان، أن (باريس) وهي ليست في الجنوب، وإقليم (برتاني)، هما اللذان هبّا

لنجدة العقيدة الكاثوليكية في القرن السادس عشر. ورغم كل ذكاء (رينان)، بل لأجل ذكائه، فإنني أقول إن رأيه هذا غاية في السماجة».

■ ■ ■

يواصل (فيرناند برودل) حديثه عن التنوع والاختلاف في كتابه الشيق (هويّة فرنسا) فيقول:

«الشماليون يزعمون دون حياء، أنهم أكثر رُقياً من الجنوبيين، وينتحلون لأنفسهم فضائل بالحق أو بالباطل. وهي على أي حال فضائل ليست متأصلة في طبعهم، ولكن اكتسبوها بحكم تفوقهم السياسي والاقتصادي الذي خصّهم به التاريخ، ولا شيء غير التاريخ.

كي تستقيم الصورة، هل ننادي شاهد دفاع أكثر إنصافاً؟ يخطر على البال (ستندال) الذي أعلن بسرور بالغ:

«إنني تحوّلت إلى إنسان جنوبي، ولم يكن ذلك عسيراً كما تخيّلت».

ولكن قد يقول معترض أن (ستندال) المولود عام ١٧٨٣ في (قرينوبْل) لم يكن نموذجاً خالصاً للإنسان الشمالي، بل ولد في منتصف الطريق إذ إن (قرينوبل) ليست في الشمال تماماً. ثم إن (ستندال) هو (ستندال). كان قد أحب إيطاليا، ذلك الأفق الجنوبي الآخر، حباً جنونيّاً. أليست إيطاليا تشابه جنوب فرنسا في نواحي كثيرة؟

هل نطلب شهادة (فان غوخ)؟ نعم ولا. في عام ١٨٨٨، بعد عامين تعيسين قضاهما في باريس، وصل هذا الشمالي القُح إلى (آرل ـ Arles). سحرته طبيعة الجنوب وألوانه من أول وهلة. كتب إلى أخيه يقول:

«... صخورٌ عظيمة، وغابات مخضرّة ذوات دروب في لون القرنفل... لم أحس بالوحشة حتى الآن.. كم يدهشني ضوء الشمس القوي وتأثيره على الطبيعة والأشياء... الذين لا تبهرهم شمس الجنوب لا يبهرهم أي شيء».

حتى رياح الـ (مسترال) الجنوبية المزعجة، لم تبرّد من حماسته، فقد وجد منظرها جميلاً. أما الناس، فقد كتب عنهم إلى أخيه قائلاً:

«إنها خسارة حقيقية ألّا يعرف المرء لغة الـ (باتْوا) الجنوبية. إلى الآن لم أتقدم شبراً واحداً في كسب صداقة الأهالي، وتمر عليّ أيام لا أتحدث فيها إلى أي إنسان، اللهم إلّا أن أطلب الطعام».

علينا ألّا نفهم هذا على أنه نذير بالجنون الذي سوف يدهمه في المستقبل، ولكن كدليل على الإحساس بالارتباك العاطفي والغربة. كتب إلى أخيه في آذار/ مارس ١٨٨٨ يقول:

«هل أصدقك القول؟ إن العسكر (الزواوية)[١٩] والمواخير الصغيرة، والفتيات الآرليات الحسناوات وهن يحتفلن بالقداس في الكنيسة ربما لأول مرة، والكاهن في عباءته كأنه وحيد قرن شرس، ومعاقري شراب الـ (آبسنث) في الحانات... كل هذا يجعلني أحس كأنني في عالم آخر».

كان الإنصاف يقتضيني أن أضع إزاء أوهام الشماليين عن الجنوب، وحكاياتهم ونوادرهم القاسية، أقوالاً تعادلها من الجنوب. لكن حصادي كان قليلاً لسوء الحظ، رغم أنني استعنت بعدد من المتخصصين في ثقافات الجنوب. لم أجد شيئاً يعادل طرائف الشمال عن الجنوب في قسوته وضراوته.

لا شيء يقارب تلك الرسائل التي كان يبعث بها سفراء إسبانيا في القرن السادس عشر، حين وجدوا أنفسهم منفيين في إنجلترا أو هولندا. كانوا يكتبون باحتقار واضح، يلعنون طعام الشمال المقلي بالزبد والبيرة التي تنفخ بطونهم ومثاناتهم. وذات مرة، سجن السفير الإسباني في لندن نفسه في داره، لا يقابل أحداً ولا يقابله أحد. إنما إسبانيا (جنوب) قائم بذاته، وإنجلترا (شمال) لا مثيل له في غرابته!

ولكن هل أذعن الجنوبيون لفظاظة الشمال دون مقاومة؟ أم أنهم ما عادوا يكترثون بما يقوله عنهم أهل الشمال، قانعين بما حققوه من نجاح في ميادين السياسة والتجارة والحياة الأكاديمية؟

أغلب الظن أن نفوذ الشمال، الذي يرتكز أساساً على مدينة باريس، امتد إلى الجنوب، وغير طبيعة الحوار بين الفريقين.

في عام ١٨٤٢، أصدر (ماري ـ لافون) الذي يعدّ من أوائل المدافعين عن حضارة الجنوب، كتابه (التاريخ السياسي والديني والأدبي لجنوب فرنسا). لم يتعمد أن يسخر من (الفرنسيين)، أي الناس شمال الـ (لُوارْ). بل اكتفى بالمقارنة بين طبيعة الشعبين في القرون الوسطى. وصف الجنوبيين، بأنهم (أهل حضارة وعُشّاق حرية). ووصف ما أسماهم (البرابرة شمال اللوار) بأنهم (همج

أوباش شديدو التعصب ميّالون إلى السلب والنهب. إلّا أنهم انتصروا على الجنوب، تماماً كما انتصر إرهاب الـ (مُنتانيار)[٢٠] في عهد الثورة، على الـ (جيرونديين)[٢١] الثوار الحقيقيين، لأنهم كانوا في الغالب من الجنوب).

يحق لـ (ماري ـ لافون) أن يثور ويغضب إذْ إنه ليس سهلاً على المغلوب أن يضحك على الغالب. أليس هذا هو إحساس أهل الجنوب تجاه (الفرنساويين) أو (الفرنْسِيُو) كما يسمونهم في (طولون)؟ إحساس الغيظ نفسه الذي تشعر به الأمة المغلوبة تجاه مستعمريها؟

علينا أن نذهب إلى كاتب مثل (ستندال) يستطيع أن يسخر من فرنسا الشمال، التي يصفها بأنها (مملوءة زهواً وغروراً وحباً للمظاهر) ويقول:

«يبدو أن السعادة تختفي حين تختفي لغة الجنوب».

حين وصل إلى الجنوب في رحلته على نهر الـ (رون)، كتب معبّراً عن إحساسه بالنشوة:

«أول ما تصل (فالنْس) تجد أنك محاط بالطبيعة والبساطة... نحن الآن في الجنوب حقاً... أشعر بسعادة طاغية لا أستطيع مقاومتها... الناس هنا عكس باريس تماماً حيث لا همّ لهم إلّا أن يعطوك صوراً خادعة عن أنفسهم، ويتوقعون منك أن تصدقهم... هنا كل واحد يقول ما يحس به بصدق، دون أي محاولة للتزييف، ولا يكترث للمركز الاجتماعي لمن يتحدث معه».

واصل (ستندال) رحلته حتى وصل إلى (بوركير) حيث وجد احتفالاً شعبياً، وصفه قائلاً:

«لا أرى هنا تلك الوجوه الكالحة والسّمات المرتابة التي تراها في شوارع (ليون) و(جنيف). يلفت نظرك في (بوكير) انعدام الغطرسة والتكلف، وهما من لوازم السلوك في باريس».

■ ■ ■

يقول (فيرناند برودل) في كتابه (هويّة فرنسا):
التنوُّع هو الابن البِكر لاتّساع المكان. تلك الأبعاد الشاسعة هي التي أبْقت على كل غرابات سلوكنا منذ بداية التاريخ. إنما هذا التنوع القديم، كان هو نفسه في المقابل، عنصراً فاعلاً في مجرى التاريخ، ويقيني أن الانقسام العميق في فرنسا، الذي جعل منها وحدات منعزلة كل منها قائمة بذاتها، هو الذي هيّأ المناخ لكل المحاولات التي حدثت في المستقبل للسيطرة عليها. وإذا كان النظام الفوْقي الغالِب، قد استطاع أن ينتشر سريعاً ويمكّن لنفسه، فما ذلك إلّا لأنه لم يواجه مقاومة حقيقية شاملة.

كان النظام الملكي، في إخضاعه الأقاليم وضمها إلى الدولة المركزية، يواجه خصوماً متفرّقين، فكان يهزم كلاً منهم على حدة، واحداً بعد الآخر. ذلك حدث أيضاً في عهد الثورة. صحيح أن انتفاضة الـ (جيرونْديين) عام ١٧٩٣، شملت عدداً من الأقاليم، لكنها كانت انتفاضة سطحية، لم تصل إلى الجماهير في العمق. لا الشمال تحرّك ولا الشرق، حيث كانت تُرابطُ جيوش الحكم.

إن الصراعات السياسية والاجتماعية والدينية في فرنسا، لم تحدث

بسبب حماسة الجماهير ورُعونتها، بل على العكس، بسبب لا مبالاتها وقلّة اهتمامها.

لا تخلو أمة من الأمم، من نوازع الفُرقة والشتات، وبعض الأمم قد تنمو وتزدهر رغم ذلك. إنما الحال في فرنسا قد بلغ مبلغاً عجيباً محيّراً. البروتستانت والكاثوليك. الجانْسيُّون واليسوعيون. الزرق والحمر. الجمهوريون والملكيون. اليمين واليسار. أنصار (دريْفوس) وأعداء (دريفوس). المتعاونون والمقاومة. البيت كله منقسم على نفسه. الوحدة ليست أكثر من مظهر خارجي، هيكل مصبوب من فوق، صرخة في واد.

وحتى في زماننا هذا تجد كاتباً يقول:

«فرنسا ليست أمة متآلفة منسجمة، إنها مثل حصان تتحرك سيقانه في أوقات مختلفة».

تُعجبني هذه المبالغة في الصورة، فلا هي صحيحة تماماً ولا هي مخطئة تماماً. ومن سوء الحظ أن الخلافات تراكمت طبقة على طبقة، فزاد هذا بدوره، من العداوات والحزازات والشكوك والحروب الأهلية. وهي حروب لا تكاد تخبو، حتى تتأجّج نيرانها من جديد. وقد وصف ذلك أحد المؤرخين قائلاً:

«ليس لدى فرنسا همّة على الحرب، إنما همّتها في الحرب الأهلية. ما عدا حرب ١٩١٤ فإن فرنسا لم تخُضْ حرباً طويلة ذات صبغة قومية حقيقية. كل المعارك التي خاضتها هذه الأمة التي تفخر بأمجادها العسكرية، كان لها طابع الحروب الأهلية...».

إنني شخصياً أجد من الصعب عليَّ، فهم الحرب الأهلية، فأنا رجل من شرق فرنسا، لذلك فأنا شديد الحساسية لما تعنيه وحدة فرنسا، التي لا ضمان لحريّتي الشخصية إلّا بها. كما أنني أدرك أنه لا بد من اليقظة واتخاذ الأهبة على الدوام، من أجل الحِفاظ على هذه الوحدة.

ربما ذلك هو الذي يفسّر ما تثيره لديَّ هذه الفقرة التي سوف أقتطفها لكم فيما يلي، من عاطفة عميقة. إنها كلمات تحزنني حزناً لا حدود له، كلما قرأتها. وقد كُتبت منذ وقت طويل، كتبها رجل بروتستانتي يُدعى (فرانسوا دي لانوي)، رجل تنطبق عليه صفة النبل، إن كانت تنطبق على أحد.

الوقت شهر حزيران/ يونيو عام ١٥٦٢، الملكة (كاترين دي مديشي) وملك (نافار) والأمير (دي كوندي)، هيأوا لاجتماع بين الكاثوليك والبروتستانت بالقرب من (توري). جاء مع كل فريق جيش من صفوة المحاربين أغلبهم من النبلاء. جيش يقوده المارشال (دانْفيل)، وجيش يقوده الكونْت (دي لارُشْفوكو). وقف الجيشان، أحدهما إزاء الآخر، لا تفصل بينهما أكثر من ثمانمائة خطوة. يقول (فرانسوا دي لا نوي):

«وقفوا هكذا مدة نصف ساعة، يتفحص بعضهم وجوه بعض. هذا يرى أخاه في الجانب المعادي، وهذا يرى عمه، وهذا يرى ابن عمه، وهذا يرى صديقه، وهذا يرى جاره. ثم طلبوا من قادتهم أن يأذنوا لهم بالاتصال، وكانوا قد حرّموا عليهم ذلك، مخافة أن يؤدي إلى معارك وشجار. لكن ما حدث كان عكس ذلك. تصافحوا وتعانقوا وتباوسوا. جاشت بينهم عواطف القُربى والصداقة ونسوا أنهم جاءوا

تحت بنود متحاربة. كان جيش ملك (نافار) يرفع رايات حمراً ويلبس قبّعات من المخمل أرجوانية. وكان جيش أمير (كُنْدي) يرفع رايات بيضاً ويلبس قبعات بيضاً كذلك.

توسّل بعضهم إلى بعض، وراح كل واحد منهم يدعو أخاه إلى السلام. وكان عدد منهم قد وقفوا يتأملون ما يجري عن بعد. حين رأوا ذلك حزنوا حزناً شديداً ونقموا بينهم وبين أنفسهم على الشقاق والخلاف والحروب. وفكروا فيما قد يحدث، لو أن القادة أعطوا الإشارة ببدء المعركة. سوف توضع الخوذات على الرؤوس، وتُسَلّ السيوف، وتُشرع الرّماح. سوف تُعمي الكراهية العيون، سوف يقتل الأخ أخاه دون رحمة.

حين خطر لهم كل ذلك، سالت الدموع من أعينهم. أنني كنت حاضراً معهم، في جيش البروتستانت، وأشهد أنني عرفت في جيش الأعداء، جمعاً من أحبائي وأصدقائي يزيدون على العشرة، أحبهم كما أحب إخوتي الأشقاء، وهم مثل ذلك».

بعد ستة أشهر، في ١٩ كانون الأول كانت معركة (درو). يقول (فرانسوا دي لانوي):

«ثبت كل واحد في مكانه، وكان كل واحد منهم يفكّر أن الرجال الذين يواجهونه في الجيش المعادي، ليسوا إسباناً أو إنجليزاً أو إيطاليين، ولكنهم فرنسيون مثله، لا يقلّون عنه شجاعة وإقداماً. بينهم أصحابه وأقرباؤه وأصدقاؤه، وقفوا هكذا زمناً، ثم انتفض الجيشان وماجا، وأُخذا يتقدمان للقتال»[٢٢].

ما أصدق ما ينطبق هذا الوصف على أحداث كثيرة مؤلمة في تاريخنا. إننا كما قال أحد النبلاء حين رأى نُذر الثورة الفرنسية وعلم ما سوف تحدثه من مصائب وفوضى:

«سيدي، إننا أمة محكومٌ عليها بالكوارث».

■ ■ ■

نواصل الاستماع إلى المؤرخ الجليل (فيرناند برودل) في كتابه المليء بالحكمة (هوية فرنسا). يقول:

«كان قدر فرنسا، وما يزال، أن تعيش بين قطبين متضادين، الكثرة أو التعدد، تلك النزعة المتأصلة مثل نبات طفيلي لا خلاص منه. والتوحّد، ذلك الميل نحو الالتقاء والاجتماع، وهو ميل عفوي، وفي الوقت نفسه أمر مرغوب فيه بإرادة واعية. وهكذا ظلّت فرنسا، تتأرجح بين هذين القطبين، إلى حد أن حِبالها كادت تتقطع من شدة الجذب.

أقول من أجل ذلك، إن على المؤرخين أن يحترسوا من النظر من زاوية واحدة، ويولوا كل عامل من هذين العاملين ما يستحقه من اهتمام. وكما حدثنا (هيرفي لوبْرا) و(أمائينول تود) فإن فرنسا لم تكن تستحق أن توجد وكان لا بد من ابتداعها واختراعها.

إنما فرنسا ليست خرافة أو وهماً. إنها موجودة، اخترعت نفسها من قديم الزمان. وقد قال (جان بول سارتر) مرة، وهو جاد كالمازح «إن فرنسا غير قابلة للتوحّد». وهو قول لا يخلو من الصواب، وأيضاً لا

يخلو من الخَطَل.

لعل فرنسا كانت دائماً تجد صعوبة في أن تكون أمة (واحدة). ولكن يصح القول أيضاً، أنها أبداً لم تقبل أن تكون (مُجزأة). التوحد الفرنسي، في الثقافة وفي السياسة، كان نموذجاً رائداً للوحدة في أوروبا، وقد يكون أولها. ذلك حدث بسبب آلاف القوى الفاعلة، بعضها غامض وبعضها واضح بيّن، وهي عوامل لم يُولِها المؤرخون ما تستحقه من اهتمام.

إنني بدأت الحديث في هذا الكتاب، عن فرنسا «التي اسمها التنوّع». وأعترف أنني فعلت ذلك بمتعة عظيمة، لأنني أرى التنوع أجمل شيء في فرنسا. إنه وجهها الذي أعشقه دون سائر الوجوه. وجه شديد الجاذبية، ألهاني سحره عن اللجوء إلى اصطياد الذرائع العقلانية الكئيبة. إنما يجدر بي الآن أن أرحل من «التنوع» إلى «التوحد» وأن أعبر الجسر بحثاً عن «فرنسا الواحدة التي لا تقبل القسمة».

سوف أرتاد أسباب (الوحدة) في الواقع الماثل للعيان، وسوف أنقّب عنها في العوامل والمحركات الدفينة تحت السطح. إن فرنسا الموحدة، لم يصنعها (الملوك الأربعون الذين حكموها على مدى ألف عام). يوجد عُمّال غيرهم في حقل الكرم، وإن كان نصيب الملوك لا ينكر، على أن التاريخ أكثر بهم حفاوة.

فرنسا (الواحدة) إذاً، صنعت نفسها بنفسها. وإذا كان اتّساع المساحة يصنع الفُرقة، فإنه يصنع التوحد أيضاً، لأن الفُرقة في طبيعتها أن تخلق الحاجات والرغبات المتبادلة. مثلاً، بين الأماكن

التي تتخصص في زراعة الحبوب، والأماكن التي تتخصص في تربية الماشية. أو بين هذين وبين أماكن زراعة العنب. إن متطلبات العيش تحتّم على هذه البقاع أن يتصل بعضها ببعض. ذلك أمر ضروري لا غنى عنه. كذلك حين تحكم الظروف على مجموعات بشرية متنافرة أن تحيا جنباً إلى جنب، مجموعات تختلف لغاتُها وثقافاتُها، وتتفاوت درجات تقدمها التقني، فإن مثل هذا الاختلاط قد يُحدث تفجرات عنيفة تنسف كل العوائق والسدود.

أقول باختصار، إن المجموعات البشرية، حتى لو كانت متخاصمة متباغضة، لا يستطيع أي منها أن يحبس نفسه في قوقعة ويعتصم بأسرار تحميه من الاختلاط والتمازج. كي تضمن المجتمعات البشرية استمرار بقائها، لا بد لها أن تتواصل بالمجتمعات الأخرى، مهما كان نوع هذا التواصل وحجمه.

في تقرير رسمي عام ١٧٢١، جاء ما يلي:
«.. لم تبق في كل إقليم (بروفانس) الذي اجتاحه الطاعون القادم من مرسيليا، غير ثلاث قرى لم يصلها الوباء. لكن سكان هذه القرى أصيبوا بوباء آخر، هو المجاعة. أغلقت السلطات الطرق، ووقف الجند يمنعون الداخلين والخارجين، وإلّا نفذوا فيهم عقوبة الإعدام حالاً. لذلك لم يستطع الناس أن يحصلوا على مطالبهم من الطعام من القرى المجاورة».

ورغم ذلك فإن زحف الطاعون لم يقف: في صيف ذلك العام ـ وكانت تلك آخر مرة يصيب فيها الطاعون فرنسا ـ انتقل الوباء من (بروفانس) إلى (دوفني)، ثم إلى (لانْقوادُك). كان الجيش الفرنسي بكامل عدده في حالة استنفار. أُغلقت الطرق ووضعت الحواجز.

كانت النتيجة أن الحياة أُصيبت بالشلل.

في صيف ذلك العام أيضاً، نجد سلطات إقليم (دوفني) تشكو مرّ الشكوى أن (الحجر الصحي) قطع صلات الإقليم بالعالم الخارجي، وألحق بهم الدمار. ثم نجد بعد بضعة أشهر في إقليم (لانقوادك) أن المواطنين أصيبوا بالذعر، حيث صدر أمر ملكي بفرض حجر صحي، يعزل أعلى الإقليم عن أسفله. ثار رجال الدين وزعماء الإقليم، محتجين بخطر المجاعة الأكيد، مما اضطر الملك إلى إلغاء أمر الحجر.

ألا يحق لي أن أقول إذاً، إن أحداثاً من هذا النوع هي التي توضّح لنا حقيقة المشكلة؟ إن الحياة اليومية لعامّة الناس في فرنسا، اعتمدت دائماً على الاتصال والحركة، والتاريخ الفرنسي يحمل في جوفه شواهد لا حصر لها، لتيارات صامتة لا تتوقف، تجيش من تلقاء ذاتها عبر المسافات والأبعاد، تشد الناس بعضهم إلى بعض بعُرى متينة.

هكذا استقر على أرض الواقع، النمط الحي لاستيطان التجمعات البشرية، وهو نمط سوف يظل يتكرر في طول البلاد وعرضها إلى ما لا نهاية. القرى تتناثر في دائرة حول بلدة أم، تكون فيها السوق، مثل الكواكب حول الشمس. وكان حجم هذه المجموعة الشمسية بأكملها، في حجم الـ (كنتون Canton) في هذا العصر. تلتئم هذه الوحدات السكانية بدورها حول مدينة، تختص بصفات معينة.

إننا نتحدث عن وحدات صغيرة نسبياً - «مستوطنات Pays» - كما أسماها (لوسيان قالْوا)[٢٣]. هذه «المستوطنات» سرعان ما تدخل هي الأخرى، في فلك إقليم أو مقاطعة. ثم يكتمل المعمار،

إن عاجلاً وإن آجلاً، بقيام سوق (وطنية) وقيام (وطن).

هذا ولا بد أن تكون السوق الوطنية، في مدينة كبرى، جادت عليها الظروف ومميزات وخصائص ليست في مكان آخر. وقد صارت باريس منذ القدم مركزاً حضرياً مُفزعاً في ضخامته. ولكنها لم تنجح ضربة لازب، أن تجرّ وراءها فرنسا كلها.

■ ■ ■

يصل المؤرخ الكبير (فيرناند برودل) في حديثه عن التنوّع والوحدة في كتابه (هوية فرنسا) إلى مدينة باريس، فيقول:

ليقل علماء الاقتصاد والجغرافيا ما شاءوا، وليتكهّنوا كيف يروق لهم، ولكنني لا أعتقد أن المدينة الكبرى (المدينة ـ المدينة ـ Ville - Ville) تستطيع أن تُفلتَ من المصير الذي يفرضه عليها موقعها الجغرافي، وتفرضه عليها القوانين التي تحكم نشأة المدن ونموّها على مَدّ العصور. إن المدن الكبرى، تبدو لنا كما لو أنها تقف بمفردها، وتخضع لقوانين خاصة بها وحدها. كل مدينة كبيرة، تخاطب العالم الخارجي مباشرة، تُصغي له وتتأثر به. ورغم ذلك فإن لكل مدينة جذورها، التي لا تستطيع أن تقتلعها، وتنطلق في الحياة كما يحلو لها.

هذا أمر يصبح شديد الوضوح، حين نرى أن مدينة باريس، التي كانت دائماً بشعة في ضخامتها، كما حدّثنا المراقبون المعاصرون، خضعت رغم ذلك للقوانين العامة التي حكمت قيام المدن طوال التاريخ. كوْن باريس نشأت على ملتقى طرق، وكوْن الطبيعة حبتْها

بنُظم نهرية حسنة، أقول، إن هذه حقيقة واضحة، يمكن التأكد منها بإلقاء نظرة عابرة على أي أطْلس جغرافي.

هذا نهر الـ (يون Yonne) تطفو على سطحه الأخشاب، والمراكب المعبأة ببراميل النبيذ، وهذا نهر الـ (مارْن ـ Marne) المتقلب المزاج، يُسرع في سيره أحياناً ويُبطىء أحياناً، وهذا نهر (أواز Oise) يسير بوقار وسكينة، وهذا نهر الـ (سين Seine) نهر غير واضح النوايا، كسول مثل أفعى، ولكنه يصل إلى البحر في النهاية.

قامت باريس ونمت كسائر المدن، بفضل وجودها على تقاطع طُرق. المحور الأول ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وكان يتكىء في البداية على شارع (سان جاك) وشارع (سان مارْتان). والمحور الثاني يصبّ من الشرق إلى الغرب، مرتكزاً على شارع (سانت هونوري) منحازاً إلى الضفة الشرقية للنهر.

فيما بعد قام محوران موازيان يتمثلان في شارع (بولفار سان ميشيل) وشارع (بولفار سباستبول). وفي عام ١٨٠٠ شق طريق (رودي رفولي) الطويل، فنزل على هذين في زاوية مستقيمة. على امتداد هذه الطرق، وفي المساحات بينها، في تلك الرقعة من الأرض، ارتفعت المباني التي أصبحت علامات على نهضة باريس وعُلو شأنها.

هذا والدولة الفرنسية تراقب التوسع والعمران، بعيون مفتوحة، وتساهم فيه بسخاء أحياناً. أغدق الحظ على باريس. تدفّق عليها المال من كل الجهات، واستُثمر بشتى الوسائل، وأيضاً أنفق برعونة وبذخ. صب عليها مال الدولة بأسرها، مال سياسي بالدرجة

الأولى، فأجّج تألقها وفورانها وحياتها الطفيلية العابثة. كانت باريس في القرن الثامن عشر فردوساً للمرابين وتجار العملة، الذين وجدوا أن الحصول على النقد في سوق باريس، أسهل منه حتى في سوق البندقية. كان المال بلا حدود، وكانت وجوه الإنفاق الطفيلية أيضاً بلا حدود.

إنما باريس لم يتدفّق عليها المال وحده، ولكن أغرقها أيضاً طوفان من موجات متلاحقة من المهاجرين والنازحين. طلاب عمل، ومتسولون وصعاليك وفقراء معدمون. لم تستطع قوات الشرطة، رغم فظاظتها ووحشيتها أن توقف هذا الطوفان. كانت جيوش المتسولين والمعدمين تلجأ إلى العنف والإجرام لأقل سبب، ولم تكن الأعداد القليلة لرجال الشرطة تكفي لغرض الأمن. هذا هو الوجه المظلم لتاريخ باريس، بل للتاريخ الفرنسي كله في الواقع.

كانت باريس، مثل سائر المدن الكبرى، مدينة متخاصمة مع ذاتها، وخير دليل على ذلك، اختلاف أنماط الحياة من حي إلى آخر. مثلاً، كان يوجد تجمع لأصحاب الحرف الصغيرة والفقراء والمعدمين في حي (سان أنطوان) وحي (سان مارسيل). وكان حي (سان أنطوان) خاصة، إلى نهاية عهد نابليون الأول، موطناً لصناعات يدوية عشوائية يحركها من وراء ستار، تجار مستقلون على الطريقة القديمة.

بنهاية القرن الثامن عشر، كانت باريس قد تضخمت تضخماً جنونياً، إسوة بتضخم الدولة كلها. أضف إلى هذا أن الحركة الماسونية كانت قد انتشرت، فكان لا بد من حدوث انفجارات اجتماعية هائلة. وقد انتقل مركز الثّقل بالتدريج ناحية الغرب، مع قيام أحياء جديدة للأثرياء على ضفتي النهر.

في مواجهة تجمُّع الأغنياء والأرستقراط في الجانب الغربي، توسع الجانب الشرقي أيضاً لاستيعاب الفقراء والنازحين. وكان الناس ينزلون في أحياء حسب مواطنهم الأصلية، ويُنشئون بيئات تشبه الأماكن التي نزحوا منها. أصبحت هذه الأحياء مثل قرى، لكل منها طابعه الخاص. حيٌّ لأهل الـ (لورين) وثانٍ لأهل (برتاني) وآخر آلـ (سافوي) وهكذا. وإلى الآن يمكن أن يجد المرء ملامح لهذا التنوع.

تغوّلت المدينة بالطبع وابتلعت مساحات من الريف المحيط بها. وقد وصف رجلان هولنديان قدما إلى باريس عام ١٦٥٦، فقالا:

«... لاحظنا أننا اقتربنا من باريس، حين رأينا كثرة البيوت الجميلة الأنيقة المتناثرة في الحقول. كانت القرى تزداد عمراناً وحيوية كلما اقتربنا من باريس. هذه القرى هي بحق شريان الحياة للمدينة، فهي تمدّها بأغلب مقوّمات حياتها».

في عام ١٧٩٠، سجلت سيدة جاءت إلى باريس من الريف، سجلت إحساسها حين وصلت إلى قرية (لافيليت) في ضواحي المدينة:
«مثل هذه يسمّونها قرية هنا، رغم أنها أكبر من أي مدينة من مدننا في الأقاليم، وأحسن عمارة وأكثر سكّاناً».

■ ■ ■

في الفقرات التالية من كتاب (هويّة فرنسا) يطرح العالم الحبر، وواحد من ذوي العقول المضيئة في هذا الزمان (فيرناند برودل)،

الأسئلة الجوهرية الكبرى عن نشأة فرنسا، بل نشأة الأوطان إطلاقاً. ولا بد أن القارىء قد أدرك، مما اقتطفته له أن الكتاب كله ينهض حجة بليغة ضد أولئك الذين تدفعهم حسن النيّة أو الحماقة أو الجهل، إلى أن يتصوروا الأوطان صفحات بيضاء يكتبون فيها كيفما بدا لهم.

يقول (برودل):
هل الجغرافيا هي التي اخترعت فرنسا؟
حين يسأل المرء هذا السؤال الذي يبدو لا ضرورة له، فكأنه يعيد صياغة السؤال القديم الذي طرحه (فيدال دي لا بلانش)[٢٤] حين قال مُستفسراً «هل فرنسا وحدة جغرافية؟» وكل ذلك يجرنا مرة أخرى إلى إثارة القضية المحيّرة، قضية (الحتْمية الجغرافية).

إنني أرى، رغم ما يظنه البعض، أن هذه القضية الكبيرة لم تُقلّب بعد، على كافة جوانبها.

واضح أن الجغرافيين قد توقّفوا عن القتال في هذه المعركة منذ زمن. العنصر الحاسم في زعمهم، ليس هو الجغرافيا المادية ـ الأرض والطبيعة، أو بمعنى آخر، البيئة. الأمر الجوهري في نظرهم، هو تاريخ الإنسان، بل الإنسان نفسه وفي حد ذاته.

بلى. الإنسان أسير نفسه في الأرض، إنه الوارث. وهو المحرك وهو عنصر الوصل، وهو القيّم على كل الذكريات والمعارف والأعراف التي خلفها وراءهم البشر الذين عاشوا قبله على تلك الرقعة من الأرض. هؤلاء الأسلاف قد صاغوا (حُلماً) للأرض، وكبّلوا الذين يجيئون بعدهم بأغلال من (الحتميات) المُسْبقة. وهي حتميات

نادراً ما يكون الوارثون لها مدركين لطبيعتها وأبعادها، إدراكاً عميقاً واعياً.

يا لها من مسؤولية فادحة! إنه بحق، عبء عظيم، كلما أفكر فيه بعمق، أصاب بالذعر.

إنما هل هذا يعني أن كل العلل والتعقيد في كيان فرنسا، هو بسبب ملابسات الماضي، ويُعزى للتاريخ وحده؟

إن قبلنا بذلك، فكأننا نقتلع فرنسا من جغرافيتها ومن موضعها في الأفق، وهو أمر لا يقبله أي عاقل.

لا جدال أن فرنسا هي خلاصة تراكمات عميقة، وتفاعلات تاريخية هائلة. لكن كل ذلك لم يحدث في (لا مكان) وإنما حدث في موقع جغرافي بعينه وليس في موضع سواه. تلك حقائق غاية في الأهمية كون فرنسا وُجدت في موقع غير عادي في محيط القارة الأوروبية وصخب أمواجها. ثم إن أوروبا تطوق فرنسا من جميع جهاتها.

كان (فيدال دي لا بلانش) محقاً حين قال وهو يفكر في فرنسا:

«لا يمكن عزل تاريخ شعب من الشعوب، عن الأرض التي يقطنها. إن أردْنا أن نجتليَ الأمر بوضوح علينا أن نتصوّر الوطن مستودعاً لطاقات نائمة، مثل البذور في التُربة. لكي تستيقظ هذه الطاقات من سباتها، ثمة يكون جهد الإنسان».

هذه العبارة، تبرّر وصف (لوسيان فيفر) لفلسفة (دي بلانش) بأنها (احتمالية). توجد في نظره (فرنسا محتملة)، ويجد على الدوام، احتمال عدد من (الفرنسات).

هل أجد المغزى إذا سرت وراء هذه التصورات الجذّابة؟ أم تُراني سوف ألوذ بالتاريخ مضطراً علّني أجد فيه التفسير المقنع لصيرورة فرنسا؟ فرنسا الموحّدة كما نعرفها اليوم؟

■ ■ ■

الهوامش

(١) جول ميشليه، (١٧٩٨ - ١٨٧٤) أكبر مؤرخ فرنسي في القرن التاسع عشر. كتابه (تاريخ فرنسا) في أربعين مجلداً.

(٢) (هبولايت - تين)، ورد ذكره ضمن أصدقاء الأميرة (متلدا بونابرت).

(٣) (ألكسي دي توكفيل)، (١٨٠٥ - ١٨٥٩)، سياسي ومؤرخ.

(٤) (ثيودور زلْدن Zeldin)، مؤرخ معروف، نُشر الكتاب المشار إليه باللغة الإنجليزية أولاً، عام ١٩٧٣، ونشر بالفرنسية عام ١٩٧٨.

(٥) Immeuble، تعني في الأصل، الثابت، الذي لا يمكن نقله.

(٦) Lucien Febvre (١٨٧٨ - ١٩٥٦) مؤرخ فرنسي معروف، اهتم بالعلاقة بين التأريخ والجغرافيا. من كتبه (الأرض ونمو الإنسان) الذي ينظر فيه إلى التأريخ على أنه مزيج من عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية.

(٧) اليعقوبيون Jacobins، من التكتّلات السياسية المهمة (الأندية) التي ظهرت إبان الثورة الفرنسية. كانوا يميلون إلى التطرف في عدائهم للملكية والكنيسة، أبرز زعمائهم (روبْسبيير) الذي أصبح حاكماً بلا منازع بعد أن تخلّص من منافسه (دانتون Danton) بإعدامه بالمقصلة. لم يلبث هو أيضاً أن أُعدم مما هيّأ لحكم نابليون بونابرت.

(٨) جان جيونو Giono (١٨٩٥ - ١٩٧٠) روائي انصبت قصصه على الحياة الريفية. من أعماله (ثلاثية بان - Trilogie de Pan) ١٩٣٠.

(٩) ستنْدال - Stendhal (١٧٧٣ - ١٨٤٢) من كبار كُتّاب الرواية. وصفه ناقد بأنه (غنّى لأنبل العواطف - الحب والمجد). من أعماله (الأحمر والأسود).

(١٠) آرثر ينْج - Arthur Young، (١٧٤١ - ١٨٢٠) رحالة إنجليزي تجوّل في فرنسا من أقصاها إلى أقصاها واشتهر بكتابه (رحلات في فرنسا - ١٧٩٢). وقد وصف بلاد فرنسا قبل الثورة الفرنسية وبعدها وتحدث عن الظلم الاجتماعي الذي شهده. في عام ١٧٩٤، تُرجم الكتاب بأمر من

(الثورة) إلى اللغة الفرنسية وطبعت منه عشرون ألف نسخة وُزعت مجاناً على المواطنين.

(١١) Arbor Judae أو Judas Tree ترجمها منير البعلبكي في معجمه المفيد (المؤرد) إلى (الزَمْزَريقْ ـ شجر من الفصيلة القرنية جميل الزهر). ولعلها من أشجار بلاد الشام. وإذ إنني لا أعرف الشجرة فقد آثرتُ أن أترجمها ترجمة حرفية (شجرة يهوذا)، خاصة أن هذا يتمشى مع إحساس الدهشة والغرابة عند الرحالة الإنجليزي.

(١٢) (جان راسين Racine، ١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) من أعمدة المسرح الكلاسيكي الفرنسي. أرادت له عائلته أن يدخل خدمة الكنيسة فأرسلته إلى عمّ له قسيس في (أُوزي) في إقليم (لا نقوادك) وذلك ما يشير إليه (برودل). لكنه لم يلبث أن عاد إلى باريس حيث أصبح كاتباً شهيراً، وعيّن أواخر حياته مستشاراً للملك لوي الرابع عشر. من أعماله المعروفة (أندروماك) و(افِجني) و(فِدْرا).

(١٣) Oil تعني (نعم) في عامية شمال فرنسا، و OC تعني (نعم) في لهجة الجنوب. يعني (بلاد الأويلْ وبلاد الأكْ).

(١٤) Patois لهجة دارجة يتحدّثها العامة وبعض أهل الرّيف.

(١٥) لافونتين، (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) شاعر وقصاص اشتهر بقصصه التي تعرف بـ (خُرافات لافونتين).

(١٦) كاميسار Camisards، فرقة دينية من الهيُوقَنُو البروتستانْت المتطرفين ثاروا في بداية القرن الثامن عشر بزعامة رجل يُدعى (جان كافالْيير). والكلمة مشتقة من كلمة (كاميسا) أي (قميص) بلغة (برفنسال) لأنهم كانوا يلبسون قمصاناً بيضاً من الخَيْش.

(١٧) مارو ـ Marot (١٤٩٦ ـ ١٥٤٤) شاعر. عمل في بلاط مارغريت ملكة نافار وترجم بتشجيع منها الإنجيل والترانيم الدينية إلى الفرنسية. كانت ميوله بروتستانتية، وسافر إلى جنيف واتصل بـ (كالْفن ـ Calvin) مؤسس المذهب الكالفيني. كان شاعراً محترماً في القرن السادس عشر وامتد تأثيره إلى بعض الشعراء الإنجليز.

(١٨) المارشال ليوْتي ـ Lyautey (١٨٥٤ ـ ١٩٢٤) عسكري قضى معظم

حياته في المستعمرات ولعب دوراً كبيراً في استعمار فرنسا لبلاد المغرب العربي، عمل وزيراً للحرب (١٩١٦ - ١٩١٧) كانت آراؤه تعتبر متحررة في زمانها. من مؤلفاته (الدور الاستعماري للجيش، ١٩٠٠).

(١٩) الزواوه Zouaves في الأصل فرقة من الجزائريين في الجيش الفرنسي كوّنت عام ١٨٣٠. أصبح الاسم يُطلق على نوع من جنود المدفعية.

(٢٠) الـ (منتانيار)، أكثر الفرق تطرّفاً في الثورة الفرنسية، سُمُّوا (الجبليين) - نسبة للجبل - لأنهم كانوا يجلسون في المقاعد العليا في المجلس - Convention. قادوا حملة الإرهاب الكبرى بزعامة (روبْسْبير) نفسه، إلى أن قُضي عليهم في النهاية.

(٢١) الـ (جيروندين)، نسبة إلى منطقة الـ (جيروند Gironde) من الثوريين المعتدلين، من أشهر زعمائهم (مدام رولان). قُضي عليهم في عهد الإرهاب، وأعدم أكثر من عشرين من زعمائهم بالمقصلة.

(٢٢) لا يتّسع المجال اليوم لتفسير الأحداث التاريخية والأسماء التي أشار إليها (برودل) في مقالته. وقد يجيء ذكرها في المستقبل إن شاء الله. ولعل القارىء يجد عبْرة في مقارنة هذا الوصف المؤثّر، بقصيدة أبي الأخْيل العجْلي، التي يصف فيها موقفاً مشابهاً، ويقول فيها:

ظللْت أُساقي الموتَ إخْوَتيَ الأُلى
أبوهم أبي عند المُزاحةِ والجدّ
كلانا يُنادي يا نزارُ وبينَنا
قناً من قنا الخَطّي أو من قنا الهندِ

(٢٣) لوشيان قالْوا - Lucien Gallois، (١٨٥٧ - ١٩٤١)، جغرافي، اشتهر بكتابه (وصف طبيعة الأقاليم وأسماء القرى).

(٢٤) فيدال دي لا بلانش Vidal de la Blanche(١٨٤٣ - ١٩١٨) من رواد المدرسة الحديثة في علم الجغرافيا. من مؤلفاته (**الأرض**، عام ١٨٨٣) و(**الدول والأمم الأوروبية المجاورة لفرنسا**، عام ١٨٨٩). مكانته في علم الجغرافيا، تقارب مكانة (مشليه) في التاريخ.

الفصل السابع

مارسيل بروست

يُعدّ مارسيل بروشت بحق (١٨٧١ - ١٩٢٢) واحداً من عظماء كُتّاب الرواية في القرن العشرين، وروايته الضخمة (البحث عن الزمن الضائع) من العلامات المهمة في تاريخ الأدب. كان يعشق مدينة باريس، لا يفارقها إلّا مضطراً ولفترات قصيرة، يتحرّك بين دور أصدقائه من الطبقة الأرستقراطية التي كان مأخوذاً بها. وقد كتب مجموعة من المقالات، نشرها باسم مستعار في صحيفة الـ «Figaro». وهو هنا، في إحدى هذه المقالات يصف (صالون) الأميرة (مَتِلْدا) ابنة أخي نابليون بونابرت: -

«كان الأمير لوي نابليون يقول ذات يوم لبعض أصدقائه في صالون الأميرة (متلدا) إنه يحب أن يكون ضابطاً في الجيش - صاحت عمته الأميرة، وقد أزعجها أن ابن أخيها المفضل قد يبعد عنها: -

«يا لك من ولد أحمق. كون عائلتك أنجبت بمحض الصدفة رجلاً عسكرياً، هل هذا مبرر لك أن تدخل الجيش؟».

لا يمكن أن يتصور الإنسان استخفافاً بالمظاهر والرتب، أكثر من قولها (رجلاً عسكرياً) وهي تشير إلى نابليون بونابرت.

والحق، أن البساطة، كانت أبرز صفة في الأميرة (متلدا). كانت تتحدث عن أي شيء يتعلق بالنسب والحسب والمنصب باستخفاف واضح. سمعتُها تقول مرة لسيدة من برجوازيّي الـ «فوبور سان جرمان): -

«الثورة الفرنسية! لولا الثورة الفرنسية لكنت أنا اليوم لا أكثر من بائعة برتقال في شوارع أجاكْسيو».

هذا التواضع مع الكبرياء، هذه الصراحة التي تصل أحياناً إلى درجة السوقية، تعطي حديث الأميرة طعماً حارقاً مميّزاً. إنني لن أنسى أبداً تلك الحدّة التي أجابت بها ذات يوم على سيدة سألتْها باحترام مبالغ فيه «هل تتفضلين يا صاحبة السمو أن توضّحي لي إن كانت الأميرات أمثال سموّك، عندهن الأحاسيس نفسها التي نَحس بها نحن المسكينات بنات الطبقة البرجَوازية؟»، أجابتها الأميرة باحتقار «هذا السؤال لا يوجّه لي أنا. إنني لست من سلالة (الحق الإلهي)»[١].

هذه الخشونة الرجالية لدى الأميرة، يخفّف من حدتها، رقة عظيمة في العينين وعذوبة في الابتسامة، وحفاوة لا مثيل لدِفْئها.

لكن لماذا أحاول أن أصف لك سحر تلك الحفاوة. دعني أجعلك تذوقها بأن أصف لك كيف تستقبل الأميرة ضيوفها. تعالَ معي إلى (رو دي بِري)، وأسرعْ، فهنالك تبدأ السهرة في وقت مبكّر.

انتهى العشاء باكراً ربما ليس بمثل بكور تلك الأيام، حين جاء (ألفرد دي موسيه)[٢] للعشاء للمرة الأولى والأخيرة. وصل متأخراً جداً، فوجد أن العشاء قد انتهى. وكان لا يستطيع الكلام من شدة السكر. جلس صامتاً لم يفتح فمه بكلمة. وحين قاموا من المائدة، خرج...

بعد العشاء، تدخل الأميرة غرفة الجلوس الصغيرة، وتجلس على كرسي كبير، يكون على يمينك حين تدخل من الباب الرئيسي، ويكون على يسارك إذا دخلت من القاعة الكبيرة.

لم يصل كل الضيوف بعد، فقط النّخبة الذين دعتهم الأميرة للعشاء.. بجانبها بعض الذين تجدهم غالباً إلى مائدتها. الكونتيسة (بِنْدِتي). جميلة جداً ولطيفة جداً. مدام (رَسْبوني)، مدام (اسْبِناسْ) وصيفة الأميرة. ثم السيدة التي يحبها الجميع، مدام (ڤانْدِراكس)، زوجة محرّر الـ «رفْيو دي باري».

تجد أيضاً إلى مائدة الأميرة أغلب الأيام رجلاً صغير الحجم، ورغم أنه طاعن في السن فهو في مثل حيوية الشباب. خدّاه متورّدان وناعمان كخدَّي طفل.. شعره قصير، حسن الهندام، شديد التهذيب والذكاء، هذا هو الكونت (بِنْدتي) والد الكونت الحالي، وقد كان سفيراً لفرنسا في برلين..

يُفتح باب الصالون. تدخل الأميرة (جان بونابرت) يتبعها زوجها الماركيز (دي فيلْنوفا). يقف الجميع. حين تصل إلى نصف المسافة بينها وبين الأميرة (متلدا) تقف الأميرة وترحب بها وبدوقة (دي تريفيس) التي دخلت لتوّها مع دوقة (دالبوفيرا).

يفتح الباب، إنه دوق (قرامون) وزوجته. ثم تدخل الأسرة البونابرتية رقم واحد، العائلة المثقلة بالألقاب الضخمة، عائلة شارع (ريفولي).

الأميرة (متلدا) لم تعد جالسة. إنها تتحرك بين الضيوف، ترحب بكل قادم جديد، تتبسّط معهم في الحديث، تسْحَرُ كلّ واحد منهم بكلام يجعله يظن أنه أهم شخص بين الحاضرين.

إنني أستعمل كلمة (صالون) بالمعنى المجرد، إذ إن الصالون الفعلي كان في شارع (رو دي كورْسيل) قبل أن ينتقل إلى (رو دي بري). حين يفكر الإنسان أن ذلك (الصالون) كان ملتقى للحياة الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أن (مرِمي ـ Merimee)[٣] و(فلوبير Flaubert)[٤] و(قُنكور Goncourt)[٥] و(سانت ـ بوف Sainte - Boeuve) ـ أن هؤلاء كانوا يجيئون كل يوم بحرية مطلقة دون أية قيود، وأنهم كانوا يجدون الأميرة دائماً مستعدة لاستقبالهم، ومائدتها دائماً عامرة بالطعام.

كانت تعاملهم بصراحة وعفوية، وهم أيضاً، لا يخفون عنها شيئاً من أسرارهم. وكانت تسعى دون توقف إلى مساعدتهم وإسداء خدمات إليهم ـ ليس فقط المساعدات اليومية الصغيرة، ولكن أيضاً الخدمات الجليلة المدهشة. كانت تحميهم من القهر والاضطهاد وتزيل الكراهية ضدهم. تسهّل أعمالهم. تعمل على نجاحهم وذيوع

شهرتهم. تساعدهم مادياً وتصلح أحوال معيشتهم. تغيّر مصائرهم.

كان (سانت ـ بوف) يقول إن دار الأميرة (متلدا) هي بمثابة (وزارة للعطف).

حين يفكر المرء في هذا، لا يسعه إلّا أن يؤمن أن بعض أصحاب النفوذ الدنيوي، قادرون فعلاً، ورغم كل شيء، على التأثير في مجرى تاريخ الأدب. وقليل هم الذين استعملوا نفوذهم وسلطانهم في خدمة الأدب، كما فعلت الأميرة (متلدا بونابرت).

قال (سانت ـ بوف) إن ذوق الأميرة (كلاسيكي) مثل كل الأمراء، إنما المرء يتساءل، هل كان (سانت ـ بوف) محقاً؟ هل كان عملاً (كلاسيكياً) أن تصطفي الأميرة (فلوبير) وأن تتحمس لـ (قنكور) في ذلك الوقت، حين كانت متقدمة على ذوق عصرها، بل على ذوق (سانت ـ بوف) نفسه؟ لكن لعل الأفضل أن ننظر إلى حماستها لهما، على أنها وفاء صديق يحسن اختيار الأصدقاء، أكثر من كونه بعد نظر ناقد، عرف عبقرية الأول وموهبة الثاني.

■ ■ ■

يواصل الكاتب الفرنسي الكبير (مارسيل بروست) حديثه عن الأميرة متلدا بونابرت) فيقول:

«مهما يكن، فلا شك أن اسم الأميرة (متلدا) سوف يبقى محفوراً على الألواح الذهبية للأدب الفرنسي. لقد خلّد ذكرها (مرِمي Merimee) في مجلد كامل من رسائله ـ (رسائل إلى الأميرة).

كذلك فعل (فلوبير - Flaubert) في عدد من رسائله، وأشاد بها (سانت - بوف Sainte - Boeuve) في (إثنينيّاته)[٦]. وجاء ذكرها في صفحات بعد صفحات من (يوميات) الأخوين (قونكور - Goncourt). كل هؤلاء الأدباء الأفذاذ، أشادوا بالأميرة، ورسموا لها صورة جذابة تبعث على الإعجاب.

كان من أصدقائها المعجبين بها أيضاً (تين - Taine)[٧] و(رينان - Renan)[٨] وقد ساءت علاقتها بـ (تين) في سنواته الأخيرة، بسبب نشر كتابه (نابليون بونابرت). أرسل لها الكتاب وطلب رأيها فيه. قرأت تلك الصفحات الفظيعة التي يظهر فيها نابليون كأنه قاطع طريق. في اليوم التالي أرسلت بطاقتها إلى (تين) أو بالأحرى تركت بطاقتها عند زوجته وعليها الأحرف (P.P.C - سوف أكون في إجازة). وهذا معناه حسب العرف (مع السلامة. لا أريد أن أراك بعد اليوم).

قطعت الأميرة صلتها بـ (تين) و(سانت - بوف) ولكنها اصطلحت مع أكاديمي آخر هو الدوق (د أومال - D'Aumale)[٩] حين عادت إلى فرنسا عام ١٨٤١، وجدت ترحيباً ومعاملة كريمة من العائلة المالكة، تركت في نفسها شعوراً بالجميل لم تنسه لهم أبداً، حتى إنها لم تكن تسمح لأحد أن يذكر في مجلسها أسرة (أورليان - Orleans) بأي سوء. وقد بذلت جهداً كبيراً في حمايتهم، ولكن حكومة (الأمبراطورية) لم تكن كريمة معهم، فصادرت ممتلكاتهم رغم جهود الأميرة. وبعد الخطاب الذي ألقاه الأمير نابليون، وأساء فيه للأسرة الملكية، بعث إليها دوق (أومال)، تلك الرسالة الشهيرة، الرسالة العجيبة الرائعة.

بدا كما لو أنهما لن يلتقيا أبداً بعد ذلك، وبالفعل عاشا بعيداً أحدهما عن الآخر سنوات طويلة. ولكن الزمن محا المرارة، ولم يبق إلاّ عرفان الجميل والإعجاب المتبادل. كانا في الواقع متشابهين في خلقهما، هذان الأميران (غير الرسميين). لم يكن الدوق متعصباً لعائلته الملكية، ولم تكن الأميرة متعصبة لأسرتها البونابرتية. كان أهم من ذلك عندهما، أن لهما أصدقاء مشتركين، هم قادة الفكر في عصرهم.

ظل هؤلاء الأصدقاء لسنوات يسعون لإصلاح ذات بينهما، ينقلون للأميرة الأشياء الجميلة التي يقولها الدوق عنها، وكذلك يفعلون مع الدوق. وأخيراً، تمّ اللقاء ذات يوم في مرسم الفنان (بونا ـ Bonnant)[١٠]. تمّ ذلك بتدبير من (ألكساندر دوما الابن). لم يكونا قد التقيا منذ أربعين عاماً. كانا يومئذٍ شابين، وجميلين. ما يزالان جميلين الآن، ولكن الشباب قد مضى. وقفا بعيداً عن الضوء في البداية، في الظل، كل منهما يخشى أن يرى الآخر ماذا فعلت به الأيام. ثم زال الخجل، وعاد بينهما الود القديم الذي لم ينقطع إلى أن مات الدوق.

كان باستطاعة الأميرة (متلدا) لو أرادت، أن تتزوج ابن عمها الأمبراطور نابليون، أو قريبها ابن قيصر روسيا، ولكن قدر لها أن تتزوج وهي في العشرين من عمرها الأمير الروسي (دفدوف). وحين ذهبت إلى روسيا، قال لها القيصر الذي كان يتمنى لو تزوجت ابنه (لن أغفر لك أبداً زواجك من دفدوف). كان يمقت دفدوف. وحين أحسّ أنها سعيدة في زواجها قال لها (إذا احتجت إليَّ فأنا رهن إشارتك في أي وقت). وكان كما وعد. لم تنس له ذلك أبداً.

حين عادت إلى فرنسا بصفتها ابنة عم الأمبراطور، كان أول شيء

فعلته أنها سارعت بالكتابة إلى القيصر نكولاس[١١]. أرسل لها رداً بتاريخ ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٣ قال فيه (سعدت سعادة بالغة يا عزيزتي برسالتك التي تضمنت مشاعر نبيلة أدخلت الغبطة على قلبي. إن فرنسا قد استردتك إليها كما تقولين. إذاً تمتعي بكل ما تقدمه إليك من مسرات، وليس أحد أحق منك بالسرور. لقد أسعدني أنني استطعت أن أقدم لك بعض العون خلال إقامتك معنا).

ثم شبت حرب القرم، ووجدت الأميرة نفسها ممزقة بين ولائها لفرنسا وحبها وإحساسها بالجميل لقيصر روسيا، فكتبت له رسالة مؤثرة، ولكنها رسالة ليس فيها شيء يمكن أن يعترض عليه أشد الفرنسيين تطرفاً. وقد ردّ عليها القيصر بتاريخ ٩ شباط/ فبراير عام ١٨٥٤:

«أشكرك من أعماق قلبي يا عزيزتي، على ما ورد في رسالتك من عواطف جميلة لشخصي. إن قلباً مثل قلبك، لن يتحول أبداً مع تقلبات السياسة. كنت متأكداً من ذلك. لقد أحسست بسعادة خاصة أن تصلني هذه الكلمات، من قطر أصبح فيه اسم روسيا وقيصرها يثيران أشد الكراهية. وأنا حزين مثلك لقطع العلاقات بين روسيا وفرنسا، رغم كل جهودي لإيجاد طريق يؤدي إلى اتفاق ودي. حين عادت الأمبراطورية إلى فرنسا، راودني الأمل ألا تؤدي عودة ذلك النظام إلى قيام تنافس ينتهي بصراع مسلح بين الدولتين.

أسأل الله ألّا تهب العاصفة التي تبدو نذرها في الأفق. هل كتب على أوروبا، بعد فترة أربعين عاماً من الهدوء، أن تصبح مرة أخرى مسرحاً لمآس دموية؟ ماذا تكون النهاية إذا حدث هذا؟ لا يستطيع

أحد أن يتنبأ. ولكن مهما حدث يا عزيزتي، فإنني أؤكد لك، أن الصداقة التي عاهدتك عليها، لن تتزعزع أبداً».

هاتان الرسالتان قد نشرتا من قبل. إنما الشيء الجديد، الشيء الذي ليس معروفاً، هو ما سوف أذكره الآن. إن الصداقة التي تعاهد عليها القيصر نكولاس مع الأميرة (متلدا) بقيت تقليداً راسخاً لم ينقطع حتى بعد أن أصبح نكولاس الثاني قيصراً لروسيا[١٢].

وكما هو معروف، فإن من المراسم التي تضمنها برنامج الاحتفالات بزيارة القيصر الشاب إلى باريس ـ وكانت تلك أول مرة يزور فيها باريس ـ زيارة لضريح الأمبراطور نابليون في الـ (انفاليد). أرسلت الحكومة الفرنسية دعوة إلى الأميرة (متلدا) وخصصت لها مكاناً بارزاً بين كبار المدعوين على المنصة. وبقدر ما كانت الأميرة تستخف بالمظاهر والمناصب كما رأينا، إلّا أن الأمر كان يختلف، حين تحس بأي استخفاف بشرف العائلة البونابرتية نفسه. ردت قائلة أنها لا تحتاج إلى بطاقة دعوة لتزور ضريح عمها في الـ (انفاليد) وإذ إنها تملك مفاتيح خاصة، فبوسعها أن تذهب في أي وقت تشاء. وقالت إن الحكومة إذا وافقت على ذهابها بتلك الطريقة، فسوف تذهب، وإلّا فإنها ترفض الدعوة.

كان وضعاً محرجاً للحكومة، لأن معنى ذلك أن تدخل الأميرة إلى مرقد الأمبراطور، في الحجرة الداخلية من الضريح، قبل أن يدخلها القيصر. وفي صباح يوم الزيارة أسرع مندوب عن الحكومة إلى دارها وأخبرها أنها تستطيع أن تدخل ضريح عمها الأمبراطور مستعملة مفاتيحها الخاصة.

استقبلت بكل مراسم الحفاوة التي تليق بمقامها، ثم دخلت هي ووصيفتها وحدهما إلى مرقد الأمبراطور، حيث لا يسمح لأحد بالدخول. بعد قليل وصل القيصر، فحيّاها وتحدث معها بكل لطف واحترام. وكان يرافقه مسيو (فيلكس فور)[١٣] رئيس الجمهورية، فقدم نفسه إليها بأسلوبه المهذب الذي عرف عنه طول حياته، وقبّل يدها بتلك الطريقة الفريدة التي تجمع بين أعمق المشاعر الجمهورية، والولاء لأمجاد التاريخ الفرنسي».

■ ■ ■

يوميات الأخوين (قنكور)، من أشهر المذكرات في تاريخ الأدب، ليس في فرنسا فقط، ولكن في العالم. كانا يكتبانها معاً، كما كتبا كل أعمالهما الأدبية. تبدأ يوم ٢ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٥١، وهو اليوم الذي قام فيه (لوي نابليون بونابرت)، الذي عرف فيما بعد بنابليون الثالث، وكان إلى ذلك الوقت، رئيساً منتخباً، بانقلاب، حلَّ بموجبه البرلمان، وحظر الأحزاب، واعتقل زعماءها، وأعلن نفسه أمبراطوراً لفرنسا. وكما تقدم، فقد كان الأخوان (قنكور) وخاصة أكبرهما (أدموند)، من أصدقاء الأميرة (متلدا) ابنة أخي نابليون الأول، وابنة عم نابليون الثالث.

وفيما يلي مقتطفات من اليوميات التي يصف فيها الأخوان (قنكور) بعض الأمسيات التي قضياها في دار الأميرة (متلدا):

«الأربعاء ١٩ آب/ أغسطس ١٨٦٣.

انتقل الحديث في دار الأميرة إلى (مدام صاند)[١٤]. تحدثنا عن علاقاتها الغرامية، وأجمع رأينا على أنها مسترجلة، ليس فيها رقة

أنثوية. وفي طبعها قسوة وبرود، يجعلانها تكتب عن عشاقها، أثناء علاقتها بهم. وروى أحدهم أن (مرِمي ـ Mérimée) كان معها ذات يوم، فرأى ورقة على المنضدة وحين أخذ يقرؤها، اختطفتها من يده بعنف. كانت تتحدث عنه في الورقة.

كانت أحياناً ترتدي زي الرجال، خاصة خلال علاقتها بـ (صاندو ـ Sandeau). كانا يترددان على مطعم صغير يملكه رجل اسمه (بنسون). كان يقول:

«العجب أنني حين أراها في ثياب رجل أقول لها (مدام)، وحين تكون في ثياب امرأة، أقول لها (مسيو)».

حكى لنا (سانت ـ بوف)، أنه رآها في زي رجل، مرة واحدة. ذهب يزور (بولوز) أيام عزوبيته. أول ما دخل، قفز شاب من (الكنبة) وحيّاه قائلاً (هلو. هل تأخذني إلى (لامني)[١٥]. لم يكن ذلك الشاب غير مدام صاند، وكانت علاقتها قد ساءت بـ(موسّيه)، إثر عودتها من (فنيسيا). قال (سانت ـ بوف): تصوّروا. كان (لامني) ما يزال قسيساً، وكان الفصل شتاء، وكان (لامني) يعيش في آخر الدنيا، في (برتاني).

انتهى الأمر بـ (سانت ـ بوف) أنه بدل أن يأخذها إلى (لامني) أخذها إلى (موسّيه). عند الباب قال لها (هل أدخل معك؟) فسلّت سيفها في وجهه ـ كانت تحمل سيفاً ـ وقالت له (لا. مع السلامة).

يرى المرء، في كل هذه القصص التي يحكيها (سانت ـ بوف) نوع الدور الذي كان يقوم به تلك الأيام. دور المتسقّط لأخبار الفضائح،

المصلح بين العشاق، الذي تفضي إليه النساء بأسرارهن. ولا شك عندي، أن حب الاستطلاع، كان يبلغ به أن يختبىء في غرف النوم، يسجل ما يجري، ليضمن مذكراته.

٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٦٤.
حملنا إلى الأميرة الألبوم الياباني الذي طلبته. حدثتنا عن لقاء (سانت ـ بوف) للأمبراطور في (كُمبينيي) حيث لم يحسن التصرف.

«تصوروا. تركنا وخرج لأمور غرامية. كل الحاشية الأمبراطورية لاحظت ذلك».
«هل ترك أثراً حسناً لدى الأمبراطور؟».

«أبداً. لم يستطع أحد أن يفهم ما يقول. الأمبراطور يفهم فقط الأشياء العملية. لو أن (سانت ـ بوف) طلب منه شيئاً محدداً، منصباً مثلاً، ولكن يبدو أنه لا يحب أن يتحمل أية مسؤولية. يريد أن يكون طليقاً لينتقد من يشاء وما يشاء بحرية».

ثم أخذت تستدرجنا لنحدّثها عن ذوقه في النساء، وكانت تتظاهر أنها لا تصدّق ما نقصّه لها، لنعطيها المزيد. تقول ضاحكة:

«لو كان شاباً! مثل هذه الأعمال، تكون مسلية في الشباب. ولكن هو، وكرشه تلك؟».

الأربعاء ١ شباط/ فبراير ١٨٦٥.
في دار الأميرة، ضمت المائدة هذا المساء عدداً من رجال الأدب، منهم (دوما)[١٦] الأب. ضخم الجسم، عملاق، شعره أكرت مثل

شعر الزنوج، وعيناه صغيرتان كعيني فرس البحر، يقظ ماكر، يرى كل شيء حتى وهو مغمض العينين. هيئته تذكر بعامل في سيرك، أو حمّال في قصص ألف ليلة وليلة. إنه الصنايعي المصحصح، عدّاء المسافات الطويلة، رياضي القصة المسلسلة. لا يشرب، لا النبيذ، ولا حتى القهوة. ولا يدخن.

يتحدث بطلاقة، ولكن دون أي بريق أو جاذبية. كل ما يفعله أنه ينتشل المعلومات من أعماق ذاكرته الواسعة ويلقيها بصوت أجش. يتحدث عن نفسه أغلب الوقت، بغرور صبياني لا يخلو من ظرف.

أيضاً (لسبْس)[١٧] شاقّ القنوات، وسيم، عينان داكنتان تحت شعر مُبْيض. كان على مائدة الأميرة هذا المساء، على أثر عودته من مصر. هذا الرجل الحديدي، اعترف لنا أنه أحجم عن القيام بعدة أعمال مهمة في حياته بسبب تنبؤات عرّافة في شارع (تورنون).

الأربعاء ٢٦ نيسان/ أبريل ١٨٦٥.

استقبلتنا الأميرة هذا المساء ببرود شديد لا يُتقنه أحد مثلها. تجاهلتنا تماماً ولم تتفضّل علينا بأي نظرة. وكانت تخالفنا في كل ما نقول. ركّزت اهتمامها فقط على (فلوبير) الذي أجلسته بجوارها. أخبرني (فلوبير) فيما بعد ونحن خارجان، أنها جعلته يتمشى معها في الحديقة مرتين.

من حسن الحظ أن الأمراء، والأميرات خاصة، تنتابهم هذه الحالات الغريبة من النفور وتقلبات المزاج، وإلّا لأصبح الإنسان أسيراً لحبّهم بشكل مطلق».

■ ■ ■

فيما يلي مزيد من (يوميّات) الأخوين (قنكور)، وهي مذكرات تغطي مساحة واسعة، وتزدحم بالشخصيات والأحداث. ولكن هذه المقتطفات تتعلق فقط بالأمسيات التي كانا يقضيانها في دار الأميرة (متلْدا بونابرت). ويلاحظ القارئ علاقتهما الغريبة بـ (سانت ـ بوف) الذي كان من أصدقائهما المقربين، ومع ذلك لا تخلو كتابتهما عنه من السخرية وأحياناً السُّخط. كذلك يلاحظ القارىء غيرتهما الشديدة من (ألكساندر دوما الأب) الذي ما يفتآن يغمزانه بأن جدته زنجيّة. ولا شك أن غيرتهما كان سببها نجاح (دوما) وشهرته الواسعة وثراؤه ـ وربما صحته أيضاً، فقد كانا عليليْن، دائماً يشكوان من المرض.

«١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٦٥.

بعد العشاء مع الأميرة، حدّثنا (سانت ـ بوف) عن نوبات الغضب الجنونية التي تسيطر عليه أحياناً، قال إن ذلك يحدث له في الغالب بعد الفراغ من كتابة مقالته الأسبوعية، حين يكون سريع الانفعال مُسْتَفزَّ الأعصاب. وروى لنا كيف أنه شتم (فيلْمان ـ Velleman)(١٨) وكان يضربه بمظلّته. دائماً توجد مظلّة في قصص (سانت ـ بوف).

جاء (مرمي ـ Merimée) خلال السهرة. كانت أول مرة نراه يفتح فمه. يتحدث ببطء كمن يصغي إلى نفسه، مع فترات صمت قاتلة. قليلاً قليلاً يخلق حوله جواً من البرودة الفظيعة. ليس فيه تأجج ذهني ولا عمق روحي. لا شيء غير التصنع والتكلف. كأنه ممثل عجوز متعب، ليس في عجلة من أمره. بالإضافة إلى هذا غرور واحتقار لكل آداب السلوك التي تعارف عليها الناس. يوجد شيء يثير الاشمئزاز في ذلك السمت الساخر المتغطرس، الذي رسم

بعناية، للتأثير على النساء والرجال ضعيفي الإرادة.

١٧ شباط/ فبراير ١٨٦٦.
عند الأميرة (دوما) الأب، منتفخ مزهو في ربطة بيضاء وصديري أبيض، ضخم، يتنفس بصوت مسموع. سعيد مثل زنجي. قال إنه عاد لتوه من رحلة في النمسا والمجر وبوهيميا. حدثنا كيف أنهم عرضوا مسرحية له باللغة المجرية في مدينة Peth، وكيف أن أمبراطور النمسا أعطاه قاعة في قصره في (فيينا) ليلقي محاضرة. ثم أفاض في الحديث عن مسرحياته التي رفض الـ (تياتْر ـ فرانسي) عرضها، وعن روايته (فارس البيت الأحمر) التي منعتها الرقابة..

ذات متورمة وأنانية منتفخة، ولكن حديثه مسلٍّ، وغروره الصبياني يدعو للشفقة. قال إن النجاح في المسرح هذه الأيام، يحتاج فقط للخلاعة والبذاءة.. سراويل الراقصات التي تتمزق على المسرح من الخلف «إذا سمعت الجمهور يقول وهو خارج من المسرح (المناظر جميلة والأزياء رائعة، ولكن يا له من كاتب غبي) فأعلم أن المسرحية قد نجحت نجاحاً لا نظير له».

١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦٦:
أحياناً تجيء الأميرة بملاحظات ذكية جداً. قالت إنها لاحظت أن بعض النساء يصطنعن أصواتاً تناسب أزياءهن، فإذا كان ثوب المرأة من الحرير، يكون صوتها حريرياً، وإذا كان ثوبها من المخمل، يكون صوتها مخملياً، وهكذا.

٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦٨:
في غرفة الجلوس في دار الأميرة. أعطاني (قوتْيِيه Gautier)[١٩]

ظهره العريض، وكان جالساً القرفصاء أمامي على السجاد، على الطريقة التركية، مستنداً إلى ذراعيه. كان يبدو لي في ذلك الوضع مثل قزم. كان (ساسي)[٢٠] الذي جلس وراءه، يتحدث إليه كأن احتقاره لمرشحه (الرومانسي) يتنزل من علوّ شاهق.

أحزنني أن أرى (قوتييه) في هذا الموقف المزري. إنني أحزن حين أجد الموهبة عند إنسان ضعيف الخلق. مسكين (ثيو).

كم يحلم أن يكون عضواً في (الأكاديمية). لذلك، كل ذلك الخضوع والتذلل، والتطرف المقزز، والفكاهة المصطنعة. كان بين الحاضرين أن (قوتييه) يسعل كي ينتخبوه عضواً في (الأكاديمية)[٢١]!

ثم قام وجلس على كرسي صغير عند قدمي الأميرة، مثل مهرج بلاط طعن في السن. سقط رأسه على صدره، ونزلت أجفانه الغليظة على عينيه المتعبتين، وتدلت ذراعاه المتأرجحتان بلا حياة. خفنا أن يموت منكفئاً على وجهه، ذلك الرجل المثقل بالأمجاد، الذي يقف على شاطىء الخلود الأكاديمي، وكأنما الحياة أرادت أن تسخر منه بأن تدق مسامير نعشه في تلك اللحظة.

قال له (سان ـ فكتور)[٢٢] وعلى وجهه تلك الابتسامة المريضة التي يلبسها كلما رأى مجموعتنا عند الأميرة:

«مقالتك عن (بُنْسار)[٢٣] ممتازة. يبدو أنه أصبح عبقرياً!».
فقال (قوتييه) وهو يضحك ضحكاً مفتعلاً:
«آه... ذلك لا أهمية له. لا بد أنك قد عرفت الآن، أنك كي

تعرف رأيي الحقيقي، لا بد أن تقرأ بين السطور».

«مهما يكن، فإنك قد قلت إن أعماله (اتخذت طابع الخلود)..».
فقال (قوتييه):
«كلام فارغ».
حين قمنا لنذهب، انتحت بنا الأميرة جانباً. كانت قلقة على صحة (قوتييه) فأرسلت له طبيبها الخاص. قالت لنا هامسة أنه يبدو أن مرضه ليس في الصدر ولكن في القلب.

أوصلنا بعربته، وفي الطريق تحدّث معنا بطريقة مؤثّرة جعلت عيوننا تدمع».

الهوامش

(١) تشير إلى أسرة (آل بوربون) الذين كانوا يزعمون، ككل ملوك أوروبا، أنهم يحكمون بمقتضى (حق إلهي).

(٢) ألفرد دي موسّيه (١٨١٠ ـ ١٨٥٧) شاعر وكاتب مسرحي، أحد عشاق الكاتبة (جورج صاند).

(٣) (مرِمي) (١٨٠٣ـ ١٨٧٠) ـ كاتب رومنْسي. أشهر قصصه (كارْمن) التي أصبحت أوبرا مشهورة.

(٤) فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) روائي وكاتب مسرحي. صاحب رواية (مدام بوفاري) إحدى العلامات في تاريخ الرواية.

(٥) قُنكور، أدموند (١٨٢٢ ـ ١٨٩٦) الأخ الأكبر من الأخوين قنكور ـ اشتهرا بالمذكرات وبالجائزة الأدبية المعروفة التي تحمل اسمهما.

(٦) سانت ـ بوف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩)، كان أهم ناقد في عصره، كان ينشر مقالات، تصدر أيام الإثنين، فسميت (الإثنينيات).

(٧) تين ـ (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ناقد وفيلسوف ومؤرخ أدبي. كان له تأثير كبير على الاتجاهات الفكرية في القرن التاسع عشر.

(٨) رينان ـ (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢)، مؤرخ وناقد، تخصص في اللغة العبرية والدراسات اللاهوتية. عمل أستاذاً للغة العبرية في الـ (كوليج دا فرانس). كتابه (حياة المسيح) الذي أنكر فيه ألوهية المسيح أحدث زوبعة في زمانه.

(٩) هنري يوجين فيليب د أورليان، دوق أومال، الابن الرابع للوي فيليب. عسكري ومؤرخ ومهتم بالفنون والثقافة. كان حاكماً للجزائر عام ١٨٤٧ وعلى يديه استسلم الثائر الجزائري الأمير عبد القادر. ويذكر أن عائلة الأمير عبد القادر لقيت منه معاملة كريمة.

(١٠) بونا ـ (Bonnant) (١٨٣٣ ـ ١٩٢٢) الرسام المفضل للطبقات العليا في الجمهورية الثالثة، واشتهر خاصة بلوحات لنساء تلك الطبقة.

(١١) نكولاس الأول ـ حكم روسيا من ١٨٢٥ إلى ١٨٥٥.

(١٢) نكولاس الثاني، آخر قياصرة روسيا. حكم من ١٨٩٤ إلى ١٩١٧ حين قامت الثورة.

(١٣) فيلكس فور، انتخب رئيساً في عهد الجمهورية الثالثة في كانون الثاني/ يناير ١٨٩٥ بتأييد من أنصار الملكية والجمهوريين المعتدلين. في عهده حدثت المواجهة بين بريطانيا وفرنسا في «فشودة» في جنوب السودان.

(١٤) جورج صاند، الاسم الأدبي المستعار للكاتبة (أورود دوبان، البارونة دو دفان، ١٨٠٤ ـ ١٨٧٦) من عائلة أرستقراطية، تربّت في دير، ثمّ تأثرت بأفكار روسو وبايرون وشاتو برياند، وتركت زوجها البارون دو دفان، بعد أن ولدت له طفلين وعاشت حياة بوهيمية في باريس متفرّغة للأدب. اتصلت أولاً بالكاتب (جول صاندو) وبدأت تكتب باسم (جول صاند) ثم أخذت اسم (جورج صاند) الذي عرفت به. كانت كاتبة ناجحة في زمانها، عشقها كثيرون، منهم (ألفرد دي موسّيه) والموسيقي (شوبان). نشرت رسائلها الكاملة عام ١٩٦٤، وهي ذات أهمية أدبية عظيمة.

(١٥) الأب روبير دي لامني De Lamennais، ١٧٨٢ ـ ١٨٥٤، كاتب ديني خرج على أفكار الكنيسة، ووجدت أفكاره ترحيباً كبيراً من أدباء أمثال (هوغو) و(لامارتين) و(سانت ـ بوف)، وأحدث أثراً عميقاً لدى (جورج صاند).

(١٦) ألكساندر دوما الأب ـ (الإسكندر دوماس)، ١٨٠٢ ـ ١٨٧٠. من عائلة نبيلة وكانت جدته زنجية، كان كاتباً ناجحاً غزير الإنتاج، بلغت أعماله ١٠٣ مجلدات. من رواياته المعروفة (الكونت دي مونت كرستو) و(الفرسان الثلاثة).

(١٧) فيردناند دي لسبس (١٨٠٥ ـ ١٨٩٤) دبلوماسي وإداري ومغامر ارتبط اسمه بقناة السويس وقناة بنما.

(١٨) أبل فرانس فيلْمان، ١٧٩٠ ـ ١٨٧٠، مؤرخ وناقد وسياسي. عمل مرّتين وزيراً للتربية. كان من النوابغ، أصبح أستاذاً في السوربون وهو في السادسة والعشرين.

(١٩) ثيوفيل قوتْييه ـ Gautier، ١٨١١ ـ ١٨٧٢. شاعر وروائي وناقد غزير

الإنتاج واسع النفوذ. كان من أوائل دعاة مذهب (الفن لأجل الفن)، وقد تأثر به (فلوبير) و(بودلير). كان شديد التعصب لـ (فكتور هوغو).

(٢٠) صموئيل أُستزاد دي ساسي de sacy، ١٨٠١ - ١٨٧٩، ناقد وكاتب سياسي. أبوه أنطوان، كان من كبار المستشرقين في زمانه.

(٢١) إشارة فيها تهكّم أن الأكاديمية الفرنسية لا تنتخب لعضويتها إلّا الذين يقفون على حافة القبر.

(٢٢) الكونت بول دي سان - فكتور - Saint Victor، ١٨٢٥ - ١٨٨١، أديب وناقد مسرحي. ألّف عن نشأة المسرح وتاريخه.

(٢٣) فرانسوا بُنْسار Ponsard، ١٨١٤ - ١٨٦٧. كاتب مسرحي أغلب مسرحياته شعرية ذات طابع كلاسيكي. كان من زعماء الحركة المناهضة للرومانسية في المسرح. وواضح أن المقالة التي يشير إليها (قنكور) كتبها (قوتْييه) بعد موت (بُنْسار).

الفصل الثامن

رولان بارت

«يا لها من بِدَع عجيبة تسرّبتْ إلى نقدنا الأدبي! سحابة مظلمة ساقتها إلينا ريح شؤْم، من جنيف أو بوسطن، أو من الجحيم، حجبت عنا شمس (الجمال) المُضيئة. يا لها من فلسفة عبثية! أي عدوى غريبة، تُصيب المروجين لهذه التُرّهات، فيُبربرون بكلامٍ مثل هذيان المجانين؟».

شارل بودلير ـ آذار/ مارس ١٨٥٩

* * *

حيّر العالم الفرنسي (رولان بارت) مريديه أنه لم يثبُت على موقف واحد، بل ظلَّ يغيّر مواقفه باستمرار. وسوف يجد القارىء أدلّة كثيرة على عبثه الفكري، في مقالته الشهيرة التي أعلن فيها (موت المؤلف). وهي من كتابه (الصورة ـ الموسيقى ـ النص) الصادر عام ١٩٧٧. وفيما يلي مقتطفات منها:

«يقول (بلزاك) في قصّته «القرصانة» التي يصف فيها خصيّاً متنكراً في هيئة امرأة (كان امرأة فعلاً، بمخاوفها المفاجئة، وتقلّبات مزاجها، وقلقها الغريزي، وتهورها واهتمامها بالأمور التافهة، ورقة شعورها المحبّبة).

من الذي يتحدث؟ هل هو بطل القصة الذي يجهل أن المرأة ما هي إلّا خصيّ في زي امرأة؟ هل المتحدث هو (بلزاك) الشخص، معتمداً على تجربته وفلسفته عن (المرأة)؟ هل هو (بلزاك) المؤلف، معبّراً عن أفكار أدبية عما يظن أنه طبيعة (الأنثى)؟

هل هو صوت الحكمة عموماً؟ صوت السايكولوجية الرومانسية؟

إننا لن نعرف الإجابة أبداً، لسبب بسيط هو أن الكتابة إلغاء وتحطيم لكل صوت. لكل مصدر. الكتابة هي ذلك الركام المحايد، الفضاء المائل، حيث ينزلق الموضوع. السلبي الذي يقضي على الخصائص الذاتية كلها، بدءاً بخصائص الجسد الذي يقوم بفعل الكتابة.

لا شك أن الأمر كان دائماً هكذا بمجرد أن تُروى حقيقةٌ ما ـ ليس بنية التأثير المتعمّد على الواقع إنما في نهاية الأمر رهين بطبيعة الرمز ذاته، وخارج أي وظيفة ما عدا ذلك ـ حينئذٍ يحدث الانفصام. الصوت يفقد مصدره. المؤلف يدخل في موته. الكتابة تبدأ (...).

المؤلف شخصية مفتعلة، بمعنى أنه نتاج مجتمعنا، بإرثه من العصور الوسطى، والفكر التجريبي الإنجليزي، والعقلانية الفرنسية، ودعوة حركة الإصلاح البروتستانتية إلى تأكيد ذاتية الفرد، أو كما يقال تجاوزاً (الفرد الإنساني). هذه النظرة الساذجة، وصلت قمتها بشكل

منطقي، إلى التهويل في الفكر الرأسمالي، من أهمية الفرد، أي المؤلف.

هكذا تجد أن المؤلف يتربع على عرشه في كتب تاريخ الأدب، وتراجم الكتّاب، والمقابلات، وفي المجلات، بل وفي رغبات المؤلفين أنفسهم، الذين يستهويهم أن يخلطوا بين ذواتهم وأعمالهم، بواسطة نشر مذكراتهم ويومياتهم.

كل شيء في الثقافة العامة، ينطلق من شخص المؤلف وحياته وذوقه وأهوائه (...) النقد أبداً يبحث عن تفسير العمل، في شخص الرجل أو المرأة، الذي صنعه، كأنما العمل في نهاية الأمر شيء مُتاح، ينبع من مصدر واحد هو صوت المؤلف الذي يهمس في آذاننا بأسراره (...).

إزاحة المؤلف عن عرشه، ليس فقط حقيقة تاريخية، أو حيلة كتابية، إنه أمر يُحدث انقلاباً كاملاً في النص الحديث. أو بكلمات أخرى، النص بعد اليوم يُكتب ويقرأ، بطريقة تجعل المؤلف غائباً عنه في جميع مستويات النص... حين تعتقد في وجود المؤلف، فإنك دائماً تتخيّله كأنه (ماض) كتابته. الكتاب والكاتب، يقفان بالضرورة على خط واحد. ينقسم إلى (قبل) و(بعد). المؤلف يظن أنه يُطعم الكتاب أي أنه يوجد قبل الكتاب. يفكر ويعاني ويحيا من أجل الكتاب. إنها علاقة تشبه علاقة الوالد بمولوده.

خلافاً لهذا التصوُّر، فإن الكاتب الحديث، يولد في اللحظة نفسها التي يولد فيها النص. ليس له إطلاقاً وجود يسبق كتابته أو يزيد عليها. لا يوجد زمن عدا زمن الكتابة. وكل نص يكتب إلى الأبد،

ويُكتب هنا، ويُكتب الآن (...).

نحن نعلم اليوم، أن النص ليس خيطاً من كلمات تصرِّح بمعنى واحد. ليست رسالة لاهوتية مقدسة من (المؤلف ـ النبي).

إنها فضاء متعدّد الزوايا، يحوي أنواعاً شتى من الكتابة، ليس أي منها مبتكراً. تتجانس كلها وتتنافر. النص ليس أكثر من اقتطافات شتى من منابع الثقافة على سعتها (...) الكاتب الذي يجلس مكان المؤلف، لم يعد يحمل في جوفه أية مشاعر ولا أفكار ولا أحاسيس ولا تصوّرات. إنه بالأحرى يحمل في جوفه مُعجماً ضخماً يغرف منه كتابة لا نهاية لها. الحياة ليست أكثر من محاكاة للكتاب. والكتاب ليس أكثر من مجموعة إشارات. محاكاة لفقد مؤجل باستمرار.

وهكذا حين يزول المؤلف، تصبح محاولة فك ألغاز النص، محاولة لا جدوى منها. أن تُعطي النص مؤلّفاً، هو أن تفرض عليه مساحة وحدّاً. يعني أن تجد معنى قاطعاً نهائياً. معناه أن تضع نهاية للكتابة.

ذلك التصور يناسب الناقد جداً، لأن الناقد حينئذٍ يُعطي نفسه سلطة اكتشاف المؤلف وراء النص، أو اكتشاف العوامل المؤثّرة عليه ـ المجتمع، التاريخ، الذات، الحرية. وحين يعثر على المؤلف يكون قد وجد حل اللغز. انتصار للناقد. لا عجب إذاً، أن عهد سلطة المؤلف، كان أيضاً عهد سلطة الناقد.

في الكتابة المتعددة، أنت لا تفسر أي شيء. أنت تفكك كل شيء: لا توجد ألغازٌ تبحث لها عن حل. تتابع هيكل البناء. تسحب عناصره كما تسحب خيوط الثوب. في كل موضع، وعلى كل

مستوى. إنما لا شيء يوجد تحت السطح، تتسكّع في فضاء الكتابة. لا تنفذ فيه. الكتابة تَرْشَح المعنى باستمرار، ليتبخّر باستمرار. كل ذلك في عملية إقصاء للمعنى.

هكذا يصبح الأدب (ومن الأفضل أن نقول بعد الآن الكتابة) ـ برفضها إضفاء طابع اللغز على النص أو إعطاءه أي معنى نهائي ـ تصبح حرة. يصبح النص والعالم طليقين من قيود ما يمكن أن يوصف بالطابع (اللاهوتي).

إن تلك ثورة حقيقية في نهاية الأمر، إذ إن رفض إعطاء النص معنى نهائياً، هو في الواقع رفضٌ للخالق (الله)، وآياته، ورفض للعقل والعلم والقانون».

انتهى كلام الأستاذ (رولان بارت). ولا يحتاج الإنسان إلى إعمال الفكر طويلاً، كي يدرك أنه لغو مملوء بالمغالطات والعجرفة. وهو لم يترك للقارىء أي مجال للحكم. لم يترك لك شيئاً تقيس به، أو مرجعاً تستند إليه، لأنه رفض كل شيء ضربة لازب.

ورغم ذلك، فإنه لم يفلح في أن يُخفي المغالطة الكبرى في خطابه. إذا كان قد أمات الكاتب والناقد والعقل والعلم والقانون، فأين وضع هو نفسه؟ ومن أين استمد الحق أن يصدر هذه الأحكام (اللاهوتية) كأنها حقائق تنزلت عليه من السماء؟

الأمر كما قال (بودلير) ـ «كلامٌ مثل هذيان المجانين». إنه لا يعدو أن يكون محض لعب بالأفكار والألفاظ، من رجل يتيه بعلمه، وهو فيما يتعلق بنا على أي حال، علمٌ لا فائدة منه ولا خير فيه.

■ ■ ■

أصدر العالم السميولوجي الفرنسي (رولان بارت) حكمه بموت المؤلف، في مقالة ظهرت عام ١٩٧٧.

وفي عام ١٩٨٠، أعلن (ميشيل فوكو) حكمه بموت الكاتب على طريقته، مقالة شهيرة هي الأخرى، عنوانها (ما هو المؤلف). وسوف يلمس القارىء المماحكة نفسها بأسلوب آخر. وفي ما يلي فقرات من مقالة (فوكو):

«ظهور فكرة ما يسمى بـ (المؤلف)، تمثل مرحلة واضحة في تاريخ الفكر والمعرفة والأدب والفلسفة والعلوم (...) لن أحاول هنا أن أقدم تحليلاً تاريخياً ـ سوسيولوجياً لتطور ظهور فكرة (المؤلف). وربما يكون ذلك مفيداً. كيف أصبح (المؤلف) كائناً واضح المعالم في ثقافتنا؟

وأي مركز وُضع فيه. ومتى أخذ الناس ينسبون عملاً ما إلى مؤلف ما، ويهتمون بصحة تلك النسبة وأن العمل ليس مُنتحلاً.

متى بدأنا نهتم بسير الكُتّاب عوضاً عن سِير الأبطال، وأصبح (المؤلف) بديلاً عن البطل. كيف ظهر هذا النوع من النقد الذي يقرن بين المؤلف وأعماله. كل ذلك يكون مفيداً، ولكنني سوف أكتفي الآن بالنظر في العلاقة بين المؤلف والنص، وكيف أن النص، كما يزعم، مرتبط بهذا (الشخص) الذي هو خارج نصّه وسابق لوجوده (...).

نستطيع أن نقول، بادىء ذي بدء، أن الكتابة الحديثة، قد حرّرت نفسها من قيد المعنى. لم تعد تطلب إلّا ذاتها وحسب، دون أن تحدّها حدود بواطينها، وغير معنية إلّا بمظهرها الخارجي. هذا يعني

أن الكتابة تلاعُب بين إشارات لغوية صرفة. وهي ليست منظومة حسب أي معنى أو مغزى لها، ولكن فقط حسب طبيعتها الصوتية.

تتكشف الكتابة على أنها **لعبٌ يتجاوز حدوده.** لا تكون مهمتها الحفاوة بفعل الكتابة، ولا التعبير باللغة عن موضوع ما. مهمتها هي أن تخلق فراغاً تختفي فيه الكتابة ـ يبتلع الكتابة.

الأمر الثاني في الكتابة هو صلتها بالموت. هذه الصلة، هي عبارة عن إحياء لفكرة قديمة، عبّرت عنها الملاحم اليونانية، التي كان هدفها استمرار حياة البطل، وإعطاءه صفة الخلود. يموت البطل في شرخ الشباب، فيكون خالداً بطريقة أخرى. حينئذٍ تكون الملحمة، أو القصة انعتاقاً من الموت. هذا واضح أيضاً في الأساطير العربية مثل (ألف ليلة وليلة). الهدف هو الهروب من الموت. الراوية تحكى حتى مطلع الفجر لتفلت من الموت.. لتأجيل اليوم الذي يسكت فيه الصوت. رَويّ شهرزاد جُهد يتكرّر كل ليلة، ليظل الموت خارج دائرة الحياة (....).

هكذا نفخت ثقافتنا الروح في هذه الفكرة القديمة، فكرة الرواية أو الكتابة، إنها فعلٌ يطرد شبح الموت. أصبحت الكتابة تضحية وقرباناً، حتى التضحية بالنفس.

العمل، الذي كان هدفه الخلود، أصبح الآن يملك حق القتل... حق أن يقتل مؤلِّفه. ذلك حدث لـ (فلوبير) و(بروست) و(كافكا). ليس هذا فقط، ولكن الكتابة أصبحت تطمس آثار موضوع الكتابة نفسه.

المؤلف يستغل العناصر كلها التي تقوم حاجزاً بينه وبين كتابته، ليمحو مميزات تفرده.

تكون النتيجة أن أثر الكاتب يضيع كليّة. يصير لا شيء. لا يبقى منه غير الصدى المميز لغيابه. حينئذٍ لا مفر له من أن يقبل دور القتيل في لعبة الكتابة (...).

هذا كله ليس جديداً، فقد أدرك النقد والفلسفة منذ زمن، قضية اختفاء المؤلف وموته. لكن نتائج هذا الإدراك، لم تُدرس كما يجب، ولم يُحسب حساب خطورته كما يجب (...).

يرددون باستمرار، أن مهمة النقد ليست إيضاح علاقة المؤلف بعمله، ولا التعرف إلى تجربته وفكره من ثنايا العمل، وإنما بالأحرى اختيار هيكل العمل ومعماره وسمته المرتبط بطبيعته، والملاعبات الباطنية بين مكوّناته.

حين نقول ذلك، تعترضنا مشكلة. ما هو العمل الكتابي؟ ما هو هذا الكائن العجيب المميز الذي نسميه العمل!؟ من أي عناصر يتكون؟ أليس هو الشيء الذي صنعه المؤلف؟ (...).

حتى حين يكون المؤلف كاتباً معترفاً به، من حقنا أن نسأل: هل كل شيء قاله أو سجله أو تركه وراءه هو عمله؟ هذه قضية نظرية وتقنية في الوقت نفسه.

حين نقدم على نشر أعمال (نيتشه) مثلاً، ما هو الحد الذي نقف عنده؟ تقول ننشر كل شيء سجله نيتشه. أكيد. لكن ما هو (كل

شيء؟). ماذا تقول في مسودات كتاباته؟ وماذا عن المفكّرات التي سجلها على عجل لمشاريع ينوي التوسع فيها مستقبلاً؟ وماذا لو عثرنا بين أوراقه على إشارة لمرجع ما، أو عنوان، أو قائمة بالثياب التي ينوي إرسالها إلى الغسّال؟ هل هذه كتابة أم لا؟ وإذا قلت لا، فلم لا؟

وهكذا إلى ما لا نهاية. كيف يستطيع المرء أن يجزم ما هو (العمل) في ركام ملايين الأشياء التي يخلّفها الكاتب وراءه بعد موته؟ لا توجد نظرية تهدينا إلى ما هو (العمل). لذلك فإن مهمة هؤلاء الذين يعكفون على جمع أعمال الكتّاب والفلاسفة وتبويبها وشرحها، مهمة عسيرة.

ميشيل فوكو

ميشيل فوكو (Michele Foucault)، قطبٌ آخر من أقطاب ما يُسمى بـ (الحداثة). ولد عام ١٩٢٦، ومات عام ١٩٨٤. وكان حتى وفاته أستاذاً في الـ (كوليج دي فرانس) في باريس. يُوصف بأنه فيلسوف وعالم اجتماع ومؤرخ لتطور الفكر. ورغم أنه كان يتبرأ من أنه (بُنْيوي)، فإنه يُصنَّف بين (فلاسفة ما بعد البنيوية).

ويقول شُرّاح فلسفته، إنه بينما لجأ (لفي شتراوسْ) - وهو زعيم البِنيويين - كما لجأ (رولان بارت) في مرحلته الأولى - إلى علوم اللسانيات لابتداع نظرية نمطية، فإن (فوكو) لجأ إلى تاريخ المؤسسات السياسية والاجتماعية.

كان يتشكك في وجود أية حقائق مطلقة أو إيديولوجية قابلة

للتطبيق في كل الأحوال، ولا يؤمن أن بالإمكان إقامة مجتمع يسود فيه العدل. ويقول:

«يبدو لي أن من الصعب الاستفادة من فكرة الإيديولوجية أولاً، لأن الإيديولوجية سواء أرضينا أم أبينا، دائماً تستند إلى نقيض، إلى فكرة أخرى تزعم أنها هي الحقيقة. بالنسبة لي، القضية ليست في التمييز بين حقيقة وغير حقيقة. القضية هي أن ترى في مسار التاريخ آثار تلك الحقيقة في سياق طرْح ليس حقاً ولا باطلاً.

ثانياً، مفهوم الإيديولوجية، يشير بالضرورة إلى شيء له صفة موضوعية. وثالثاً، الإيديولوجية تقف في وضع نسبي إلى شيء له طبيعة الأساس للبناء ـ مادتُها وحتميّتها الاقتصادية إلى غير ذلك (...).

قضية القهْر، قضيّة أكثر صعوبة... إنها تبدو بالفعل، كأنها تطابق عدداً من الظواهر، التي تدخل في نطاق آثار العنف. حين وضعت كتابي «الجنون والحضارة»، استعملت هذا المفهوم الظاهري للقهر (...) ولكن يبدو لي الآن، أن ذلك لا يكفي لفهم الجانب الخلاّق لـ (السلطة).

حين نحدّد معنى (السلطة) على أنها (قهر)، فنحن نطبّق مفهوماً قانونياً بحتاً لمعنى السلطة. نربط السلطة بالقانون الذي يقول (لا). السلطة تعني هنا في المقام الأول، سلطة المنْع.

أنا أرى الآن، أن هذا فهم سلبي جداً. فهم ضيّق وسطحي لمفهوم السلطة. وهو فهم شائع، للغرابة. لو كانت السلطة قهريّة فقط، لو

لم تفعل شيئاً سوى أن تقول (لا)، هل تظن أن أحداً كان سوف يطيعها؟ الذي يجعل السلطة محتملة ومقبولة، هو أنها لا تقتصر على الحظْر، بل تفعل أشياء أخرى. أشياء تجلب المتعة وتُنتج المعرفة وتشجع تبادل الأفكار والحوار والجدل. يجب أن يُنظر إلى مفهوم السلطة على أنها شبكة إنتاجية تشمل جسد المجتمع بأكمله (...).

النُّظم الملكية في الحقبة الكلاسيكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، طورت نظاماً متكاملاً للدولة ـ الجيش والشرطة والإدارة المالية. وأهم من ذلك أنها ابتكرت ما يمكن أن يُسمى (الاقتصاد الجديد للسلطة). أي أنها ابتدعت إجراءات جعلت آثار السلطة تصل إلى أعضاء الجسم الاجتماعي كلها، بطريقة متصلة غير متقطعة، بالإضافة إلى أنها استطاعت أن تتكيّف حسب مقتضيات الظروف...».

هذا، وقد أثار هذا الموقف على (فوكو) سُخط أتباعه من اليسار. وهو موقف لم يثبُت عليه، فقد تأرجح بين ما ينمّ عن إعجابه بالسلطة، وخوفه من بعض مظاهر استعمالها، مثل العنف ضد الخصوم السياسيين.

وموقفه برمّته متناقض، لأنه لم يكن يؤمن بـ (الطبيعة الإنسانية). وقاده ذلك أن يقلل ضمنياً، من أهمية (المجتمع). وواضح أن السلطة السياسية تفترض وجود مجتمع. وقد رفض صراحة إمكان قيام مجتمع يسوده العدل.

في مواجهة له مع عالم اللّسانيات الأميركي (ناعوم شومسكي)، قال شومسكي:

«علينا أن نسعى إلى إيجاد تصوّر لمجتمع عادل في المستقبل، يقوم قدر المستطاع على عاطفة إنسانية ثابتة، تنبع من إدراكنا لروح الإنسان وطبيعته».

وكان ردّ (فوكو):
«من مظاهر فلسفتنا السياسية في الغرب، إننا مغرمون بهذه النظريات المطلقة... القوانين العامة والطوباويات... يجب أن تكون مهمّتنا، أن نضرب صفحاً عن هذه المشاريع الطوباوية، هذا البحث عن القواعد الثابتة والقوانين العامة... مهمّتنا يجب أن تكون في أن ننقُد عمل المؤسسات التي تبدو محايدة ومستقلة. ننقدها لكي نكشف ونعرّي العنف السياسي الذي ينتج عنها (...).

يبدو لي أن فكرة (العدل) هي في جوهرها، سلاح صنعته سلطة سياسية أو اقتصادية معينة لتحمي به نفسها، أو سلاح اخترعته جهة أخرى لتستعمله ضد تلك السلطة... لا يمكنني مهما كان ذلك مؤسفاً، أن أدعو لفكرة كهذه ـ العدل ـ من شأنها أن تقوّض مجتمعنا من أساسه...».

■ ■ ■

يقول العالم الفرنسي (ميشيل فوكو) في ختام مقالته التي أسماها (ما هو المؤلف؟): «ربما يجوز لنا الآن، أن نتمعن مسألة الكتابة، لا من حيث فحواها أو تنوعها فحسب، ولكن أيضاً، من حيث تحولات صيرورتها. ولا يخفى أن سبل تداول النص وتقييمه ونسبته وملكيته، تختلف باختلاف الثقافات، وتختلف حتى ضمن تلك الثقافات.

نستطيع أن نفهم دون صعوبة، علاقة القوانين الاجتماعية بأنماط

التعبير، وفي ما يتعلق بي، أستطيع أن أقبل النشاط الوظيفي للكتابة، والتحولات التي يتعرض لها هذا النشاط. لكنني لا أستطيع أن أعطي أي أهمية لأية معانٍ أو مفاهيم، تُعزى لهذا النشاط.

بوسعنا، حين نتْبع هذه الطريقة في التحليل، أن نعيد النظر في مقوّمات (المؤلف)، ليس بهدف استحضار الشخص الذي صدر عنه العمل، ولكن لكي نفهم، متى وبأية طريقة، تدخّل (المؤلف)، وما هي طبيعة وظيفته.

حين نفعل هذا، فإننا نقلب المُشكل القديم رأساً على عقب، ولا يعود السؤال: كيف يستطيع أن يدخل عنصر من الخارج على النص ويعطيه معنى؟ أو: كيف يستطيع هذا العنصر أن يحرّك اللغة من داخلها ويمنحها مرامي وأهدافاً هي من طبيعتها أصلاً؟

بدلاً من ذلك، تصبح الأسئلة هكذا: كيف، وفي أية ظروف، وبأية أشكال، يظهر (المؤلف) في نسيج الكتابة؟ ما هي المكانة التي يحتلها في كل نوع من (الخطاب)؟[1] ما هي الوظائف التي يؤدّيها؟ ما هي القوانين التي يخضع لها؟

باختصار، يصبح الأمر متعلّقاً بحرمان (المؤلف)، أو من يحل محله، من دوره كمصدر للعمل.

كذلك توجد دوافع ترتبط بالوضع (الإيديولوجي) للمؤلف. حينئذٍ يكون السؤال: كيف يمكن مقاومة الخطر العظيم، خطر الكتابة القصصيّة الذي يتهدّد عالمنا؟ الجواب هو: نقاوم الخطر بمصادرة دور المؤلّف.

هذا سوف يمكّننا من الحد من الانتشار السرطاني المخيف لـ (الإشارات)[٢] في وقت يتحتم علينا فيه أن نقتصد، ليس فقط في المال، ولكن أيضاً في الأقوال والإشارات. يجب أن يكون المؤلف هو الهدف الأول لأي جهد يسعى إلى الحد من انتشار المعنى. يجب علينا أن نغير كليّة الصورة القديمة عن دور المؤلف.

تعوّدنا أن نعتبر المؤلف مصدر العمل الكتابي، وأنه هو الذي يتفضل علينا به بكرم وسخاء. ثروة لا تنفد من المعاني. وتعودنا أيضاً أن ننظر إلى المؤلف على أنه من طينة غير طينة البشر. ما أن يفتح فمه حتى تتدفق المعاني بلا توقف.

الأمر عكس ذلك تماماً في الحقيقة. المؤلف ليس نبعاً لا ينضب من المعاني. المؤلف لا يسبق عمله. إنه ليس أكثر من (وظيفة)، نستغلها في ثقافتنا للفرز والاختيار والرفض. باختصار، إنه العامل الذي نوقف به التدفق السائب، والتلاعب الصريح، والتوليف والتفكيك وإعادة التجميع، للإنتاج الكتابي.

نحن متعوّدون على أن ننظر إلى المؤلف على أنه عبقري، لا حدود لقدرته على الابتكار. وذلك لأننا نطلب منه أن يكون عكس ما هو...

حين أقول ذلك، فكأني أطلب وجود نوع من الثقافة، يتحرّك فيها العمل وينتشر، بمعزل عن شخص المؤلف. لكن ذلك مطلب عسير، محض وهم، أن نتصوّر ثقافة تتحرك فيها الأعمال الروائية في حالة من الاستقلالية الكاملة، وتنمو وتتطور وحدها، دون وجود شخص أو أشخاص يتحكّمون في مسارها.

لا شك أن المؤلف، قام منذ القرن الثامن عشر، بدور العامل المنظّم لتدفق العمل الكتابي، وهو أمر اقتضته ظروف المرحلة الصناعية، وطبيعة المجتمع البرجوازي. وكان ذلك مطابقاً أيضاً لما أخذ به المجتمع من احترام للفردية والملكية الخاصة. لكن ذلك تغيّر بفعل التحولات الاجتماعية. لم تعد وظيفة المؤلف كما كانت، بل لم تعد الحاجة تدعو لها أصلاً.

إنني أعتقد أن (المؤلف) سوف يختفي، وسوف تحدث الكتابة المتعددة الإشارات بوسيلة لا سيطرة للمؤلف عليها.

حينئذٍ تصير الكتابة همهمة مجهولة المصدر. حينئذٍ لن نسأل تلك الأسئلة القديمة المعادة: من الذي يتكلم؟ هل هو حقيقة أو شخص آخر؟ ما مدى ابتكاره؟ ما مدى صدقه؟

سوف نطرح أسئلة أخرى بدلاً عن تلك الأسئلة. ما هي تقلبات أحوال هذه الكتابة؟ كيف تؤثر؟ كيف تنتشر؟ هل توجد فيها ثغرات تسمح بنفاذ مؤلفين مُحتملين؟

هل يوجد أحد تنطبق عليه صفات (الشخص ـ المؤلف) كلها؟

ووراء كل هذه الأسئلة، سوف نسمع صوتاً لا مبالياً يقول (ماذا يهم من الذي يتكلم؟)».

الهوامش

(١) يُترجم الحداثيون العرب كلمة Discourse الإنجليزية، أو كلمة Discours الفرنسية، إلى (خطاب). وقد تجنّبتُ استعمالها في هذه الترجمة قدر المستطاع. وهي قد تعني (قول) أو (كلام) أو (كتابة) أو (إبانة). وهي عند (ميشيل فوكو): مجموعات كبيرة من التعابير ذات احتمالات استراتيجية!

(٢) إشارة، Sign وقد يترجمونها (علامة) أو غير ذلك. وهي من ركائز علم (السيميولوجي). وعند بعضهم إن الإشارة أو العلامة، هي الاسم الذي يُعرَّف به شيء ما. وعند (سوسور) وهو شيخ السيميائيين أنها (كيان سايكولوجي ذو جانبين، أحدهما (مفهوم) والثاني (صورة صوتية)!).

نبذة عن المؤلف

ـ ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

ـ تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

ـ عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

ـ التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

ـ متزوج وله ثلاث بنات.

ـ من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!